نشوى صلاح

الأُخرَى

رواية

الرواق للنشر والتوزيع

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

الأُخرىَ

(رواية)

نشوى صلاح

عن الرواية..

رأت من خلفها فتاة تقترب منها الفتاة الأخرى تحمل نفس ملامحها، نفس صورتها، حاولت منتهى الالتفات للخلف لتراها لكن ثمة شيء كبّل حركة رقبتها، ربما يكون الخوف همست لنفسها دون صوت هي أنا من أنا فيهما؟ أشعر بالضياع بالتكرار أشعر أنني لست أنا.. أنا نسخة مكررة، أنا أخرى سواي!"

لعنة الأخرى ظلت تطاردها بلا هوادة.. وبرغم حياتها التي تعج بالغموض، وعالمها الذي يفيض بالمعاناة والمفاجآت، استمرت محاولات منتهى رحال المستميتة في الهروب، حتى وجدت نفسها فجأة ترفع الستار عن مسرح حياتها، ذلك الستار الذي تعمدت إسداله طويلا، وتختار نديم نعمان ليكون هو المتفرج الوحيد الذي تبوح له بالبدايات عساه يجد سببًا لما آلت إليه النهايات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إلى أصحاب النظرة الواحدة..

والفكرة الواحدة..

والرؤية الواحدة..

فلتعلموا أن الحياة بها ألف أخرى!

إهداء

إلى يوسف..

سيف..

يسرا..

أشقائي الذين يصغرونني، أم أبنائي الذين صاروا أكبر مني.. حقيقة لم أعد أدري!

أتمنى أن أكون قد تركت فيكم ولكم ما تفخرون به..

نشوى صلاح

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول

في كل يوم، خلال ثلاثين يومًا مضت، ترفع تلك المُهمَلة رأسها نحو نديم بمجرد مطالعته لبريده الإلكتروني، تتوق لإطلالته، تنتشي لمجرد شعورها بأنه على مقربة منها، تهمس لنفسها بالتأكيد ستتلاشى المسافات الآن، واثقة هي من احتياجه لأن يقترب، تُمنّي نفسها بأنه في غضون ثوانٍ سيضع لمساته عليها ليفتح لها باب الحكي. يقترب نديم، أنامله تكاد تتحسسها، عيناه تكاد تسقط فوق جسدها، لكنه فجأة يُعرض عنها، يوليها ظهره، وكأنه يهمس إليها دون كلمات لن أمسَّكِ، سأتركك هكذا مجرد شيء مهمل، ستتركك أيتها البائسة تتضورين احتياجًا لنظرة أو لمسة فأضنّ عليكِ بهما، سأخبرك بطريقتي أنكِ ومن أرسلتكِ صرتما لا تعنيان لي شيئًا!

ثم يبتعد، تاركًا إحساسًا لعينًا بالأسى وخيبة الأمل يستولي عليها، إحساسًا يصرخ فيها ما أنتِ سوى مجرد رسالة مهملة!

أكان هذا ما يقصده نديم حقًا؟ أم إنها رغبته في مقابلة فعلة صاحبة الرسالة بمثيلتها؟ أكان يرغب في استرداد شيء من كرامته التي تم المساس بها؟

إنها واحدة من المرات القليلة التي وقف فيها نديم أمام نفسه حائرًا!

من جديد رمقها بينما هو جالس، يسند ظهره إلى كرسي مكتبه الفاخر، ثم ألقى رأسه إلى الوراء، تعلقت عيناه عبر النافذة الزجاجية الكبيرة بسماء تلك المدينة الفرنسية، مدينة النور. لون الشفق في هذه المدينة يثير أشجانه دائمًا، فأن يحيا الإنسان في وطن غير وطنه أمر لا يمكن تجاوزه بسهولة، بل قد لا يمكن تجاوزه أبدًا.

يدرك أن غربته تلك تمثّل حلمًا للكثيرين، يرغبون في دفع كل ما هو غالٍ ونفيس للحصول عليها، يرون أن كلمة وطن لم تعد تعني الكثير، ويتساءلون عن ماهية أن يكون هناك وطن يسكننا ولا نسكنه، وطن نشعر دومًا بالخوف على مصيره، بالرثاء على حاله، يقلقون عليه قلقهم على أطفالهم، ويحتاجون لحضنه أشدّ من احتياجهم لأحضان أمهاتهم.

حاسوبه الشخصي مفتوح في مواجهته، المهملة تسحب نظراته من الشفق والحنين إلى الوطن نحوها، ما زالت قابعة في البريد الوارد، لم تُفتح بعد، رغم أن تاريخ إرسالها يعود إلى شهر مضى!

شهر كامل تومض نفس الأيقونة، في إشارة مفادها أن هناك رسالة مسكينة، مهملة، ورغم أن مرسلها يحمل علامة «هام»؛ إلا أن نديم يرفض استلام رسالة هذا الشخص، الذي كان يمتلك يومًا قدرًا من الأهمية.

سمع طرقات وقور على باب غرفة مكتبه الفاخرة، فسمح للطارق بالدخول. وضع سكرتيره أمامه في نظام بعض الأوراق التي تتطلب مراجعته، وربما تحتاج توقيعه على بعضها.

ـ تستطيع الانصراف.

ـ سأنتظر انصرافك أولًا يا سيدي.

فكرة ما باغتت رأس نديم فأقنعته أن يعدل عن قراره بالمغادرة، ويستبدل به قرارًا آخر مفاجئًا بالبقاء.

ـ أعتقد أنني سأسهر بعض الشيء، لن أحتاج إليك الليلة، فلن أحتاج لأكثر من بعض القهوة، وسيقوم «توماس» بهذه المهمة.

بأدب جمّ انصرف السكرتير بعد أن ألقى على مديره تحية المساء.

هل أخذ نديم حقًا قراره بفعلها؟! وما المانع؟ هكذا أخبر نفسه، فعلمه بما ستكشف عنه الرسالة لن يُغيّر من الأمر شيئًا، فإن كانت هذه رسالة اعتذار، فهو لن يعطي مُرسلتها فرصة لأن تفعل، ولن يقبل تبريرها إن أرادت أن تُبرر.

قرر أخيرًا فتح رسالته المهملة، طاوعته نفسه عندما أقنعها بأن الأمر قد انتهى برمته، وأنه فقط سيضغط على أيقونة «فتح» ليقرأها بشكل سريع، لن يحتاج الأمر منه سوى دقائق، فيجب ألا يمنحه أكثر مما يستحق أو يتوقف أمامه طويلًا.

لكن وقع خلاف ما عاهد عليه نفسه، دون أن يدري كيف حدث ذلك!

فبمجرد أن قرأ أول نداء في رسالتها تراءت «منتهى رحال» أمامه! كيف استطاعت تلك الغائبة المستهترة أن تحضر الآن بكل قوة؟!

«نديم»...

اسمه كان أول كلماتها، ها هو يسمع صوتها يدوي بين أرجاء الغرفة، ها هي تقف أمامه، تنظر إليه بعينيها العسليتين المستديرتين، تلك العينان الباسمتان في شجن عجيب، هكذا كان يراهما دومًا، ها هي تزيح خصلات شعرها الكستنائي الهاربة من عقصتها، المتسللة لتلامس بشرتها الناعمة المشرّبة بلون الورد، تلك البشرة التي تُزيّنها شفتاها المكتنزتان المثيرتان، وتلك الابتسامة الصغيرة تعانق نظرة حنان عميقة في عينيها.

ها هي «مُنتهى» تعود لتناديه في رسالتها وتجبره بسطوة مشاعر ـ كان يحملها لها في وقت قد خلى ـ أن يستمع إليها.

«نديم»

لا أدري تحديدًا ذلك الشعور الذي يتملكك تجاهي لحظة قراءاتك رسالتي هذه..

هل تلعنني؟

هل أنت ناقم على تلك اللحظة التي جمعتك بي؟

هل صرت تكره أيامنا معًا؟ هل أصابك الندم على خوفك عليَّ، على اهتمامك بي؟ على وقتك الذي منحتني إياه؟

هل... وهل...

حقًا لا أدري كيف هي صورتي في عينيك الآن.

هل صرت تراني إنسانة قاسية القلب، ناكرة للجميل؟

صدّقني لا أدري من أين واتتني الجرأة لإشهار قلمي في وجهك لأكتب لك إليوم، إنها رغبة ألحت عليّ لأكشف لك عن جانب هام في حياتي، جانب لم أُطلعك عليه من قبل، ربما يكون هذا الجانب هو الذي دفعني لفعل ما فعلت، لكن مع فعلتي التي فاجأتك، وربما فاجأتني، وجدتني ولأول مرة أهتم. أهتم بأن تكون صورتي واضحة في عيني أحدهم، وأنا التي لا تهتم لهذا الأمر كثيرًا، فأنت الوحيد الذي أشعل في روحي رغبة الحكي عما تعمدت دومًا أن أحتفظ به في مكان أعمق من أن يُرى أو يُكتشف أو يتم تناوله بالحديث، إنه ما تمنيت طويلًا أن أنساه فلم يُنسى، وما ترفَّعت عن أن أبدي وجعًا منه، لكنني ها أنا أجأر أمامك بما خجلت من أن أسمع أحدًا صوت أنينه المزمن.

لقد قررت أن أدعوك لتراني دون رتوش، لا لتمنحني المزيد من الاهتمام، أو لتنفث بين أوصالي نفحات من الشفقة فتُسكّن آلامي، ولكن ربما لتلتمس لي عذرًا في رحيلي الذي كان.

أتدري أين كانت بدايتي يا نديم؟ أتتعجب! أكاد أسمع صوتك الهادئ العميق الذي كان يهدهدني دون أن تدري أنه يفعل، أكاد أسمعه يهمس في اندهاش متسائلًا: بدايتك يا منتهى؟! بدايتك؟! نعم، لقد قررت أن أصطحبك معي إلى البدايات، عساك تجد هناك سببًا لما آلت إليه النهايات.

لقد بدأ إدراكي للحياة وأنا في سن صغيرة للغاية، أكاد أتذكر أشياء عجيبة، حينما أصبحت أقصها على الناس فيما بعد كانوا يصيحون في عجب:

مستحيل يا منتهى، كيف تذكرين مثل هذه الأشياء!! لقد كان عمرك وقتها ثلاث سنوات فقط!

أكاد أصيح في وجوههم قائلة إن الأمر لا يتعلق بالذكاء، أو بقوة الذاكرة والإدراك المبكر، إنه القدر! نعم، القدر الذي اصطفاني ليهديني طفولة شديدة التميز، شديدة الخصوصية، لذا فهي طفولة أبدًا لا تُنسى! الإنسان غالبًا ما ينسي تلك الأشياء المتكررة في حياته وحياة الآخرين، فتصبح أشياء اعتيادية ليس لها نكهة التميز، أما أنا فلم يكن هناك شيء عادي في طفولتي.. وربما أكون أنا فقط التي ترى ذلك، سأترك لك الحكم في هذا الشأن.

ما زلت حتى الآن عندما أنظر إلى الخلف أشعر بغصة في حلقي، وأكاد أرى مرارة العلقم تسري في أوصالي، ما زلت أرى لطفولتي ملامح لا تشبه طفولة الآخرين.

كانت بدايتي في منزل قديم في منطقة «مصر القديمة»، تلك المنطقة التي تقترب كثيرًا من نيل بلادنا بالقاهرة، المنطقة هي التي تقترب من النيل وليس منزلنا، فمنزلنا يقع في أحد الشوارع العتيقة، التي لا ترقى إلى أمثالها الواقعة على ضفاف النهر، في شقة متوسطة الحال تزخر بالعديد من الأشخاص.

سأحكي لك عن سكان تلك الشقة، لقد وقعت عيناي أول ما وقعت على سيدة قليلة اللحم، تنام الطيبة بين ثنايا ملامحها التي ترك الزمن آثاره فوقها، فبدت كامرأة مسنة، تلازم كنبة بعينها، ولأننا كنا نسكن الدور الأرضي فكانت هذه الكنبة في صالة الشقة، تعلوها نافذة تستطيع السيدة أن تُنهي من خلالها كافة احتياجاتها، بل وتقيم أيضًا علاقات مميزة مع العالم الخارجي. كنت أراها تحادث الجيران من خلالها، يتبادلون التحيات والحكايات الصباحية والمسائية، كما كانت تمارس متعة التسوق بسلاسة شديدة من خلال ذات النافذة، فلقد كان الباعة الجائلون لا يكفّون عن الحركة ذهابًا وإيابًا أمامها، منادين على بضاعتهم بعبارات مرتجلة بليغة، وكلمات مسجوعة تدخل القلب بسهولة، يدللونها ويصفونها بأجمل الأوصاف، فالفول يناديه عم فرحات باللوز، والطماطم يناديها بائعها بالفروالة، والموز يناديه بائعه بأبي نقطة، وأسمع أحدهم ينادي على بضاعته «يا سيوي يا بلح»، أو «يا تين العامرية يا برشومي»، أما هذا فكان ينادي بصوت متمايل يجيد تلحينه»يااا حموي يا ناعم»، أتذكرني وأنا أسأل العجوز في فضول طفولي «ما هي بضاعة هذا البائع؟» فتقول مبتسمة إنه ينادي على المشمش يا صغيرتي، لأن المشمش بداية شتلاته تم جلبها من حماة.

محفورة داخل ذاكرتي صورتي وأنا لا أكفّ عن طرح الأسئلة على تلك الطيبة، ولا أنسى أبدًا صبرها في الإجابة علي، وتحملها لشغفي النهم للمعرفة:

ماذا تقصدين بحماة؟

ـ اسم مدينة في سوريا، تمامًا كما أن الإسكندرية مدينة في مصر.

أتذكّرني حينما كنت أهرع، أنا وصغير يلتصق بي دومًا كظلي؛ نحو رجل يدفع أمامه عربة تحمل فرنًا صفيحيًا مهترئًا بلا لون، متعجبة من تحمل البائع الصمود أمام لهيبه، لكنه مضطر بالتأكيد، فبضاعته لا تؤكل إلا ساخنة، وكان نداؤه «يا معسلة يا بطاطا» يكاد يكون نداء خاصًا لنا، الصغير وأنا.

تتراءى أمام عيني صور وخيالات كثيرة من طفولتي، منها صور لجيراننا، هداية وشقيقها حسين، اللذين لازما طفولتي بينما كانا يكبراني بسنوات، وكيف أنساهما وما زالت أيامي تغيض بهما وتفيض بحكاياتهما، وما يزال قلبي يهمس باسم أبيهما الدكتور فؤاد؟.

سأحدّثك عن سكان شقتنا، أولهم هو ظلي الصغير، «محمود».. ثم يقتحم ذاكرتي اقتحامًا رجل مزعج، كنت أخشاه وأرتجف من مجرد وجوده في البيت، فكثيرًا ما رأيته في السنوات الأولى من طفولتي عائدًا في الليل مترنحًا، يتمايل يمنة ويسرة، ويختلق المشاكل مع الجميع، بينما أرى السيدة العجوز تمسح دموعًا تغالبها، وتقول في صوت متحشرج:

هداك اللـه يا منصور يا ولدي! لماذا تفعل بنفسك هذا؟ قلت لك مرارًا وتكرارًا ارض بقضاء اللـه، قلت لك إننا من نحكم على أنفسنا بالراحة أو الشقاء، قلت لك إنها اختياراتنا!

كنت أرى كلماتها الذبيحة تهبط على هذا المزعج وكأنها أعواد ثقاب تُلقى على عبوة مكتوب عليها «قابل للاشتعال السريع»، فأراه يهبّ في ثورة أتصورها غير قابلة للإخماد، فأنكمش أنا وصغيري في فراشنا نصطنع النوم وفرائصنا ترتعد من فرط هدير صراخه، صارت عادتنا النوم خوفًا، وعندما صرنا أكبر اعتدنا النوم كمدًا.

لقد علمتني الحياة أن الأيام قد تُجبر الإنسان على تعود أشياء كان يظنها في بداية علاقته بها مستحيلة التعايش، كالحزن والفقد والألم، لكن هل تتصور أنه رغم قسوة هذه الأشياء فقد أرغمتني الحياة على أن تكون بيني وبينهم علاقة وترابط، فألفتهم وألفوني ومات الإحساس بالغربة بيننا.

كان يعيش معنا في نفس الشقة شقيقتان تصغران هذا الشاب المشتعل المترنح، واحدة تصغره بقليل والأخرى تصغرهما كثيرًا، عندما كبرتُ قليلًا كان أول ما عرفته اسمهما، فكبراهما اسمها سوسن، وقد كانت أكثر بياضًا وجمالًا وبهاء، أما الصغرى فاسمها يُسر، خمرية اللون متواضعة الجمال، فياضة الحنان.

لا أدري لماذا كنت أشعر أنني والصغير تائهان في ذلك المنزل، كنت أشعر أنني فاقدة لأشخاص كانوا يجب أن يكونوا هنا.

ألم أقل لك إنني قد تعرفت على صديقي «الفقد» في سن مبكرة جدًا، بل ربما كان هو أول أصدقائي، فعندما كبرت قليلًا وصرت أختلط بأبناء الجيران، وبدأت أميّز الأشياء والأشخاص والعلاقات، وبدأت أعي مع من أحيا ومن أفتقد؛ كان أول ما أدركته أن منزلنا هذا لا يشبه منازل جيراني، لأنه يخلو من أب وأم أمتلكهما ويملكاني. وعرفت أن السيدة المسنة الطيبة هي جدتي، وأن الفتاتين سوسن ويُسر هما «عمتاي»، وأن «محمود» هذا الصغير هو شقيقي الوحيد، الذي يصغرني بأحد عشر شهرًا فقط! لا أدري لماذا كنت أظنه أصغر مني كثيرًا، لقد صوّر لي عقلي الصغير أنني أمه!

وكانت المفاجأة التي أزعجتني وقتها، والتي لم يغادرني أثرها لزمن طويل، هي معرفتي بأن ذلك الرجل المزعج، الذي كنا نتصنع النوم هربًا منه، هذا المتطاول دومًا على العجوز الطيبة، والذي جعلوني أحفظ اسمه جيدًا مقترنًا باسمي، منصور طه رحال، هو..

«أبي»!!

هل لك أن تتصور يا نديم ان هذا الوجع كان أول ما أدركته في أيامي، التي كانت غضة وقتها، وأن أبي بهذه الصورة هو أول رجل تقع عليه عيناي، وهو من ارتبط به معنى الرجولة في عقلي؟

أكاد أراني أجوب أركان المنزل باحثة عن امرأة بعينها فلا أجدها، فأعاود الكرة والبحث، فأصل في كل مرة إلى نفس النتيجة القاسية، إنها ليست هنا!

لا أدري لماذا أشعر بنفس وجع البدايات الآن!!

أتذكّر جيدًا زواج أبي، نعم تزوج، لا أذكر تحديدًا كم كان عمري وقتها، لكنني ما زلت أذكر زوجته تلك جيدًا.

كان اسمها عنايات، بينما طلبت من الجميع أن ينادوها بـ»نانا».

كانت عنايات امرأة غريبة الأطوار بكل ما تعنيه الكلمة من معانٍ، لم أكن أدري كيف اختارها أبي ولا لمَ فعل! هل ليعاقبني أنا ومحمود عَلى ما لم نقترفه، أم ليُعاقب نفسه على ما جنت يداه؟ أم تزوجها ليصب فوق أحزان جدتي أحزانًا جديدة، وفوق شيخوختها ـ التي لم تبلغ سنواتها بعد ـ سنوات.

ما زالت تفاصيل عنايات على كثرتها محفورة في ذاكرتي، فلقد كانت امرأة كثيرة الشحم، يغلب عليها اللون الأصفر الصارخ، فتتدلى المصوغات الذهبية من رقبتها وأذنيها وتلتفّ حول معصميها، كل هذه المناطق تُصدر أصواتًا رنانة

تجذب إليها سمع ونظر كل من تمر بهم أو يمرون بها، كل شيء فيها يصرخ معلنًا عن سوقيتها؛ كلماتها، صوتها، ألوان ملابسها، حركات يديها، وقع خطواتها، حتى لون أحمر الشفاه الذي يصبغ شفتيها. ورغم هذا تزوجها أبي. تصورت وقتها أنه من الممكن أن تكون طباعهما الغليظة هي نقطة التقائهما.

وجدتني ومحمود، بعد أيام من زواج أبي من عنايات، وقد أُغلق علينا معهما باب شقة صغيرة قريبة من بيت جدتي. لا، لم يكن الباب هو المغلق علينا، بل لقد أُغلقت أبواب الحياة كلها علينا نحن المرتعدين الصغيرين، بينما فُتِحت لنا أبواب الجحيم على مصراعيها.

تركت الأشهر التي عشناها مع عنايات بصماتها على طفولتنا، بل وعلى عمرنا بأكمله، فكان أبي يخرج إلى عمله في الصباح ويتركنا تحت رحمة من لا ترحم، فلا نتنفس الصعداء بعد خروجه كما كنا نفعل في بيت جدتي، بل يُحيطنا شعور بالرعب، فالمرأة لا تكفّ عن الصراخ في وجهينا، متبرمة من كل حركة نتحركها، ومن كل طلب نتوجه به إليها، كنا أصغر كثيرًا من أن نعتمد على نفسينا، وكانت تلعن في كل لحظة حظها العاثر الذي ألقى إليها بزيجة من رجل يعول صغيرين بلا أم.

كنت أسمعها تقول وهي تمصمص شفتيها وتلويهما متكورتين يمنة ويسرة:

ملعون أبو الحب، ملعون أبو كل رجل وسيم يشبه رشدي أباظة، أو يفوقه جمالًا، يجعل فتاة مثلي تقع في غرامه، وترفض كل من تقدّموا لخطبتها، لأجل الزواج منه، ملعون أبوك يا قلبي!

وهل كان لهذه الملعونة قلب!

وآه من يوم لن أنساه ما حييت، يومها أصيب محمود بإسهال عنيف، ربما بسبب شيء ملوث أكله، أو فيروس أصابه، أو بسبب اضطراب نفسي جراء الصرخات التي تحاصرنا من جميع الاتجاهات، لم يعد محمود يستطيع السيطرة على إخراجه، بينما تصرخ عنايات «تمالك نفسك أيها القذر المتعفن، هل سأقضي اليوم كله في غسيل ملابسك الداخلية؟!»

لكنه لم يتمالك نفسه، ولم يستطيع أن يسيطر على الإسهال، بل وزاد القيء الطين بلة، فأخذ محمود يفرغ كل ما في معدته على الكليم الأحمر الصارخ الموضوع على أرضية الغرفة، جن جنونها وتحوّل وقع أقدامها إلى دبيب أشبه بدبيب أقدام فيل غاضب في الغابة، ذلك الدبيب القادر على إحداث تصدعات عميقة في الأرض من تحته، شعرت بالمنزل يرتجّ بنا، وفجأة رأيتها تهرول ممسكة بملعقة حديدية كبيرة الحجم، طويلة اليد، وضعتها أمامنا على النار حتى تغيّر لونها، لم تشفع صرخاتنا وتوسلاتنا كي تصفح عن محمود، لم

تصدّقنا بأنه لم يتعمد فعل ما فعله. أقسمنا لها إنه لن يفعل مرة أخرى. كان محمود يجري منها كأرنب صغير مذعور، حاولت أن أحول بينهما فارتميت بجسدي الصغير عليه لعلي أحميه، أفديه، أنقذه، لكن للأسف لم تُفلح محاولاتي المستميتة، فلقد هوت عنايات العملاقة فوق جسدي بكفّها الضخم، قبضت بأصابعها على تلابيب جلبابي فاقتلعتني من مكاني اقتلاعًا، وأطاحت بي بعيدًا، ورفعت الملعقة شديدة الاحمرار ثم تركتها تستقر فوق إلية محمود العارية، تعالت صرخاته الذبيحة ، كان يصرخ رعبًا وألمًا، وكنت أصرخ ضعفًا ووهنًا وانهيارًا، بينما تصرخ هي في هيستريا متوحشة قائلة:

سأؤدبك، سأجعلك تتمالك نفسك بطريقتي، سأعلمك كيف تستطيع التحكم في قاذوراتك!

ذهب محمود في إغماءة أو ميتة، لا أدري، لكنني وقتها أيقنت أنه قد فارق عالمنا، ثم بعثه اللـه من جديد رحمة بي وحدي!

كل ما أذكره بعد ذلك أنني دخلت في نوبة هلع هيستيرية، ظننتها أبدًا لن تنتهي.

لقد كانت تلك الحادثة هي الأقسى بين ثنايا طفولتنا، كما أنها كانت السبب في عودتنا مرة أخرى الى بيت جدتنا التي طحنتها الصدمة، فعكفت على علاج إلية محمود من حروق من الدرجة الثانية بناء على روشتات الأطباء أحيانًا، وباللجوء إلى الوصفات الشعبية أحيانًا أخرى. ظلّ صغيري لفترة طويلة يعجز عن الجلوس على مقعدته، فكان يرقد على أحد جنبيه أو يظل واقفًا، وإن أراد النوم ينام على بطنه وهو يئن من ألم لا يغادره.

في النهاية عدنا منكمشن، محمود وأنا، إلى أحضان جدتي ويُسر وسوسن، ولم أرَ عنايات ثانية.

علمت أن أبي قد طلقها، واختفت من أيامنا إلى الأبد، بينما ظلّ شبحها باقٍ ينغص عليّ أيامي إلى اليوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مرت الأيام واشتدّ عودي نوعًا ما، فالتحقت بالمدرسة، صرت أكبر، وكبر معي ذات الشعور الذي يخبرني أنني ما زلت أفتقد شيئًا جوهريًا يربطني بهذا العالم، كنت أشعر بنفسي كورقة شجر صفراء جافة تطير وحيدة بلا وجهة، ورقة هشّة لا تملك من أمرها شيئًا، ولا يهتم لأمرها أحد، مجرد ورقة تحلم كما لو كانت خضراء في غصن شجرة وارفة كبيرة، تضرب جذورها في الأرض بثبات، والسبب هو افتقادي لها. بدأتُ في تلك السن أسأل عنها أكثر من ذي قبل، فلا أتلقى من أحد جوابًا شافيًا، فقط بضع كلمات هزيلة لا تُغني ولا

تُسمن من جوع، تصحيها نظرات غير مفهومة يتبادلونها بينهم، نظرات تفيض بالارتباك والمرارة، ويغلّفونها بكلمات تزيدني حنقًا:

ستعود يومًا، بالتأكيد ستعود.

كان هذا هو ردّ جدتي زهيرة وسوسن ويُسر على سؤالي الحائر، ذلك السؤال القابع بداخلي كمارد يتقلص حجمه أحيانًا، ويتضخم أحيانًا أخرى، ليصير عملاقًا قادرًا على ابتلاعي.

لماذا لا يجيبون على سؤالي البسيط؟ سؤالي لم يكن معجزًا أو عجيبًا، لم يكن سوى «أين هي؟ أين أمي؟ أليس لي أم كسائر البشر؟! أريد أمي؟ أريد أن أراها!»

بقي نديم يغالب نومه ويرتشف على مهل قهوته، بينما تلتهم عيناه السطور التي آلمته كثيرًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني

كان طه رحال مدرسًا للغة الإنجليزية بمدرسة الخديوي إسماعيل الثانوية العسكرية، رجل دمث الخلق، صاحب عقلية متفتحة، محبوب من الجميع. تزوج من زهيرة التي اختارتها له أمه، فقد كانت تربطها بأمها صلة قرابة من بعيد، ووقع اختيار الأم على زهيرة ليس فقط لأنها من أصل طيب، ولكن لأنه ابنة وحيدة لتاجر ثري من تجار الأقمشة بحي الجمالية الشهير وقتها، وبرغم مشاركة أعمامها لها في ميراث أبيها إلا أنه ظل ميراثًا لا يُستهان به، وتجاوزت الأم عن كون زهيرة أقل جمالًا من ولدها الوسيم طه، وأنها في منتصف العشرينيات من عمرها، وهذا يعني أنها تأخرت كثيرًا في الزواج، لكن قناعات أم طه أكدت لها أن زهيرة بها مزايا أكثر أهمية.

ولم يكن لدى طه سبب يمنعه من الموافقة على اختيار أمه، وحينما تقدم لخطبة زهيرة كان القبول هو بداية علاقته بها، لكنه سرعان ما سكن إليها بمجرد زواجهما، ربما لفرط الحنان الذي يُغلف كل تصرفاتها، وبمرور الوقت صارت في عينيه أجمل النساء، لقد كانت تحترمه حدّ التبجيل، وتهتم به حدّ التفاني، وتحبه حدّ العشق، تركت ميراثها تحت إمرته يتصرف فيه كيفما شاء، وطلبت منه أن يضم مرتبه الصغير إلى ريع قطعة الأرض التي ورثتها عن أبيها، أما باقي ميراثها فتمثّل في محل أبيها المغلق، وبضاعة اشتراها أعمامها من أمها بثمن بخس لتقوم بتجهيز ابنتها للزواج بجزء منها، وتشتري لها بما تبقى قطعًا من الحلي الذهبية عيار واحد وعشرين؛ لتُقدّمها لها في يوم زفافها.

احتفظت زهيرة بذهبها، وطلبت من زوجها أن ينفق من ريع أرضها على بيتهما، دون أن تسأله يومًا عن الأرض بمَ تجود، أو كم صارت تساوي، فلقد سلمته أمرها تمامًا عن طيب خاطر.

ماتت أمها بعد زواجها بسنوات قليلة، فصار طه هو كل أهلها، وبيتها هو مملكتها.

أنجبت له منصور، وبعد عامين أنجبت سوسن، ورث الطفلان عن أبيهما حسنه، فأخذ عنه منصور وسامته، وامتازت سوسن بجمال أخّاذ، وورثا عنه لون بشرته الفاتحة وشعره البني الناعم الكثيف.

ثم أُصيب رحم زهيرة بعطب ما تسبب في نزيف شديد، أوهن جسدها، وأذبل عودها، وامتصّ لونها، وألزم بشرتها شحوبًا، فصارت هناك ضرورة لإجراء عملية كبيرة، كما قرر الجراح، وهي استئصال أحد المبيضين المسئولين عن الخصوبة والإنجاب، وقبل أن يفعل سألهما بتأثر ظهر جليًا على وجهه:

ألديكما أولاد؟

ـ الحمد للـه، لقد رزقنا اللـه بولد وبنت.

قالها طه بوقاره المعتاد، وإن بدا واجمًا، يرغب في التعرف على المقصد من وراء السؤال.

ـ حمدًا للـه على نعمه، فبعد هذه العملية الجراحية سيكون من الصعب أن يحدث حمل أو أن تُنجبا المزيد من الأبناء.

مرت السنون وكبر الابنان، وتصورت زهيرة أن اقترابها من سن الأربعين هو السر وراء غياب طمثها الذي رفض زيارتها منذ عدة شهور، همست وقتها لنفسها «صرتِ عجوزًا قبيل الأربعين يا زهيرة، معطوبة الرحم، مقطوعة الطمث!» لكن ما أفزعها بحق هو انتفاخ بطنها، فلم يكن لديها من اللحم ما يستر الانتفاخ الذي تصورته ورمًا أو مرضًا كالحباط، ذلك المرض الذي يصيب البهائم فينفخ بطونها، بينما يتصور الفلاحون أن بهائمهم صارت سمينة، وستجود عليهم باللحم، إلا أن هذه البطن المنتفخة لا تكون سوى إعلان عن زيارة وشيكة للموت، يخطف فيه البهيمة، ويترك للفلاح الحسرة، وفجيعة الصدمة.

اصطحبها طه مكمودًا إلى الطبيب، الذي كان واحدًا من أشهر أطباء النساء والتوليد في وسط البلد، وكان ابنه تلميذًا عند طه في الصف الثاني الثانوي.

حمل فحصه لزهيرة مفاجأة، أخبرهما أنها حامل في الشهر الخامس، وعندما صرخ طه وزهيرة في آن واحد بكلمة «مستحيل!» وبعدما تداخل صوتاهما، وتناثرت كلماتهما، وترددت في أرجاء غرفة الكشف «مبيض واحد! سنوات طويلة بلا حمل! زهيرة أوشكت على الأربعين! سن اليأس!» هزّ الطبيب رأسه متفهمًا، ثم أردف مبتسمًا:

إنها قدرة اللـه، مبروك.

بعد شهور قليلة، فاجأت آلام المخاض زهيرة وهي في فراشها ليلًا، فأيقظت طه قائلة في صوت واهن مرتجف:

طه! أستشعر ماءً دافئًا يتدفق مني، يبدو أنني ألد!

هاتف طه الطبيب، الذي طلب منه نقلها إلى المستشفى، فأسرع إلى زهيرة التي تصله تأوهاتها، فوجد ما أذهله وأعجز تفكيره.. رأى مولودًا ضئيلًا مكتملًا لم يتبين نوعه، ملطخًا بالدماء، صارخًا، معلنًا عن وجوده بين فخذيها العاريين. عصفت المفاجأة بـ»طه» ودفعته لأن يتوجه بخطى متعثرة إلى الهاتف، ليعاود الاتصال بالطبيب، ويخبره بصوت مرتعش أن زهيرة قد وضعت بالفعل، وأنه

لم يعد يستطيع نقلها إلى المستشفى، فطلب منه الطبيب عنوان المنزل، مقررًا أن يأتي بنفسه ليقطع الحبل السري، ويطمئن على الأم والجنين.

حضر الطبيب في وقت قصير لإتمام عملية الولادة، ورفض تمامًا تقاضي أي تكاليف، قائلًا:

يا أستاذ طه، حضرتك معلم أجيال، لقد قمت على مدار سنوات بالتدريس لأبنائي الثلاثة، وكنت سببًا هامًا لتفوقهم في مادة اللغة الإنجليزية، كما أنهم لم يتعلموا منك اللغة وحسب، بل تعلموا منك الكثير من القيم والفضائل، وربما يكون هذا هو الوقت المناسب لأردّ لك شيئًا من الجميل.

عقب ولادتها قال طه لزهيرة:

سأسميها يُسر، فقد كانت كل أمورها ميسّرة منذ حملك فيها حتى لحظة ولادتها هذه، لقد اختارت هذه الفتاة أن تأتي للحياة بطريقتها الخاصة وبكل يُسر.

جاءت يُسر تشبه أمها كثيرًا، خمرية اللون صغيرة التقاطيع والعينين، ضئيلة الحجم، لها شعر أسود فاحم ناعم، بينما استقبلها طه وكأنه أب لأول مرة.

عندما اشتدّ عليه مرض الربو، وتتابعت عليه الأزمات الصدرية التي أنهكت رئتيه تمامًا، مات طه، وكان في أيامه الأخيرة يبصق دمًا، ويتنفس بصعوبة شديدة. كانت يُسر حينها في السابعة من عمرها، أصغر الأبناء وأحبهم إلى قلبه، فقد أنجبها وهو على مشارف الخمسين من عمره، كان يشعر أنه سيفارقها، وسيورثها لقب اليتيمة في سن صغيرة، كان يشفق عليها لأنها ورثت عنه الربو، ذلك المرض الذي تسبب لكليهما في أزمات عاصفة منعتهما كثيرًا من الاستمتاع بحياتهما، وأرّقت نومهما طويلًا.

رحل طه، وصارت زهيرة من بعده عجوزًا في السابعة والأربعين من عمرها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما زالت منتهى تذكر ذلك الحلم القديم، متسائلة: أليس غريبًا أن يظلّ الإنسان متذكرًا لحلم بعينه رغم مرور عشرات السنوات؟ لقد قرأت ذات مرة أن الحلم الذي يظلّ عالقًا بذهن صاحبه بعدما يستيقظ من نومه، والذي يظلّ رائيه يذكر تفاصيله؛ يسمى رؤية أو منامًا؛ لأنه في مرتبة أعلى من الحلم.

فقد رأت منامها هذا للمرة الأولى حينما كانت في العاشرة من عمرها، لكنها لم تكن المرة الأخيرة.

استيقظت من منامها مضطربة وضربات قلبها متسارعة، فلقد رأت نفسها تسير في غرفة ضبابية لا تتبين تفاصيلها، ثم وجدت في مواجهتها مرآة

مستطيلة، توقفت أمامها باحثة عن صورتها، فلم ترها، اقتربت أكثر من المرآة لكنها ظلت لا ترى نفسها، كادت تجن، حاولت اختصار المزيد من المسافات بينهما، تحسستها بأصابع مرتعشة، اكتشفت أن ما يعوق رؤيتها هو بخار الماء المتكاثف فوق المرآة، استعانت بطرف كمها لتزيح البخار، ها هي أخيرًا ترى صورتها، حاولت أن تتأمل ملامحها، لكن ارتعدت فرائسها.. لقد رأت من خلفها فتاة تقترب منها، الفتاة الأخرى تحمل نفس ملامحها، نفس صورتها، حاولت منتهى الالتفات للخلف لتراها، لكن ثمة شيء كبّل حركة رقبتها، ربما يكون الخوف، همست لنفسها دون صوت «هي أنا! من أنا فيهما؟ أشعر بالضياع، بالتكرار، أشعر أنني لست أنا، أنا نسخة مكررة، أنا أخرى سواي!» استيقظت فزعة، وهي تكرر تلك الكلمات.

رفعت رأسها من فوق الوسادة المتيبسة وهي تتصبب عرقًا، حاولت ابتلاع ريقها فلم تجد قطرة لعاب واحدة في فمها.

بعد شهور تكرر نفس المنام، ما زالت منتهى واقفة أمام المرآة، والأخرى تحاصرها من خلفها، تحتل وجودها. الإحساس بالضياع وفقدان الذات يملآن كيانها. سمعت في هذه المرة صوتًا يأتيها، يناديها، يخترق منامها الخانق:

منتهى.. منتهى!

بلا وعي حاولت رفع رأسها، فشعرت بأنامل تلامسها.

ماذا بكِ أيتها الصغيرة؟!

تشعر بكيسين من الرمال معلقين بجفنيها، تقاوم كثيرًا كي تفتحهما، تتهدّج أنفاسها، وتتبعثر الكلمات من بين شفتيها:

ـ من أنتِ؟ من الأخرى؟

ـ أية أخرى؟! استيقظي يا منتهى، أهو كابوس؟ استيقظي!!

رأت منتهى وجه جدتها زهيرة يكاد يكون ملاصقًا لوجهها، وبرغم الفزع الذي بدا على الوجه الطيب، الذي لازمته صفرة منذ فترة فزادته ذبولًا، إلا أنه بدا لها وكأنه طوق نجاة امتدّ إليها لينقذها من الغرق في يمّ مخيف.

بعد أن تأكدت زهيرة من أن منتهى قد تخلصت من آثار النوم؛ مدّت إليها يدها بكوب به القليل من الماء، كان فوق المنضدة الخشبية القديمة إلى جوار السرير.

ـ اشربي يا حبيبتي!

بأصابع صغيرة باردة أمسكت منتهى بكوب الماء لترشف منه رشفات قليلة.

ـ أكان كابوسًا؟

أرخت الصغيرة رأسها فتحركت خصلات شعرها الكستنائي فوق وجنتيها الورديتين الناعمتين، ولمعت عيناها العسليتان بدموع بدت حبيسة، وغمغمت تقول:

منام لا أحبه، رأيته من قبل!

قالتها بحزن طفولي.

ـ اللهم اجعله خيرًا، احكي لي يا منتهى!

وعندما همّت الصغيرة بالحكي قاطعتها زهيرة:

الدعاء أولًا، الدعاء يا صغيرتي.. ألم أعلمك إياه؟ ماذا نقول قبيل حكي مناماتنا يا منتهى؟!

اتسعت حدقتا عينيها المستديرتين، وأرجعت رأسها إلى الخلف في محاولة للتذكّر، فقالت زهيرة ببطء، ليختلط صوتها بصوت الحفيدة التي لم تبخل عليها ذاكرتها:

ـ اللهم اجعله خيرًا لنا، شرًا لأعدائنا، خيرًا نؤتاه، وشرًا نتوقاه، إن شاء اللـه، اللهم صلِ وسلم بارك على رسول اللـه.

بدأت منتهى في سرد تفاصيل منامها، واختتمته قائلة:

ـ في كل مرة أستيقظ خائفة وأنا أتساءل من هذه الأخرى، أيهما أنا؟ أين أنا؟

شردت زهيرة، ثم قالت:

يبدو أنكِ قد كبرتِ يا منتهى، فأنتِ الآن في الثانية عشرة من عمرك، ويبدو أنه قد حان الوقت لتعلمي، وإن كان ذلك ضد رغبة منصور.

صمتت زهيرة لبرهة ذهبت فيها بعينيها وفكرها إلى ما لم تدركه منتهى، ثم قالت بحنان:

فلتخدي الي النوم الآن، وفي صباح الغد سأحكي لكِ.

أي نوم هذا الذي سيطاوعها ويأتي بعد كلمات جدتها تلك! انتظرت منتهى ذلك الصباح كما لم تنتظر يومًا من قبل، سكنها يقين أن جدتها ستبوح أخيرًا، ولكن ما شغل ذهنها الصغير هو سؤال بعينه، هل منامها هذا يحتمل تلك الكلمات الكبيرة التي قالتها جدتها؟ حدّثها قلبها بأن شفرة أيامها على وشك أن تُحلّ.

كانت صحة زهيرة قد تراجعت كثيرًا في الفترة الأخيرة، هل هو الحزن الذي سكنها على حال ولدها، أم هي اللوعة التي ما تزال تلازمها على فراق طه؟ فبرغم طول سنوات رحيله إلا أن عينيها الصغيرتين ما زالتا تغرورقان بالدمع كلما تطرق الحديث إليه، وهل خلا يوم دون أن يتطرق الحديث إليه! لقد كان منتهى ومحمود يعلمان كل تفاصيل حياة جدهما الأستاذ طه رحال، يحفظان ملامح شخصيته، ماذا أحب وماذا لم يُطق، ماذا كان يرضيه وماذا يزعجه، عرفا كل هذا من خلال حكايات زهيرة التي لم تتوقف ليوم واحد. حفظا ملامحه من خلال صورته بالأبيض والأسود، والتي تتصدّر غرفة الضيوف، بينما تجلس زهيرة قبالتها متأملة إياها وكأنها متعبّدة في محراب.

كلمات متفرقة تتواتر إلى أذني منتهى، تدور بين منصور رحال ويُسر والدكتور فؤاد حسيب جارهم، كانوا يتحدثون عن حالة زهيرة الصحية، فيروس سي، تليف في الكبد، يقولون إنه قد يكون من أثر استخدام أدوات غير معقمة حاملة للفيروس عند طبيب أسنان، أو ربما حدث ذلك جراء تعرضها لنقل دم من قبل، الحالة متأخرة. كلمات كان لها وقع مقبض على صدر الصغيرة، وإن لم تعي مفادها، لكن ما كان يزيد من قلقها هو مشهد متكرر ليُسر، تراها تبكي في غرفتها وحيدة، وبمجرد أن تفتح منتهى باب الغرفة تُرخي يُسر رأسها، ثم ترفعها كاشفة عن عينين منتفختين، لم تفلح محاولتها لتجفيفها بمنديل تمسك به. أيضًا تلك الاتصالات الهاتفية المتكررة لسوسن في الفترة الأخيرة، كلها أمور تُنبيء بأمر غير اعتيادي يجوب أرجاء البيت ويخصّ الجدة. الشيء الوحيد الذي كان ينفث في صدر منتهى بشيء من الطمأنينة هي حالة السكينة والرضا التي لازمت زهيرة، ورفضها الذهاب إلى الأطباء، واكتفاءها بمتابعة الدكتور فؤاد لها، دون أن تُفلح محاولاته لإقناعها بالذهاب بصحبته إلى مستشفى متخصص اسمه (معهد تيودور). كانت تبتسم ابتسامة مبتورة وهي تقول:

مؤمنة أنا أن الشفاء بيد اللـه، وها أنا أتناول الدواء الذي تكتبه لي.

ـ لكن يا أم منصور...

تقاطعه قائلة:

لا يرحل الراحلون قبل انتهاء آجالهم، لابد أن تنتهي الآجال حتى نرحل، ثق أنه ما زال في العمر بقية.

كانت تحاول أن تخفي عن أعينهم انتفاخ بطنها وتورم قدميها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فوق السرير النحاسي العالي ذو «الناموسية» المخملية المميزة؛ جلست منتهى إلى جوار جدتها في صباح يوم الجمعة الموعود، وكانت رائحة البخور المميزة تفوح بين ربوع المنزل. قالت زهيرة وقد رنت ببصرها حيث اللاشيء:

علم رؤياك عند اللـه يا ابنتي، لكن ما أستشعره من منامك أن من رأيتيها في المنام هي منتهى..

ـ أعلم يا جدتي لكن من الأخرى؟

قالتها ببراءة والفضول يتقافز بين عينيها، فأردفت زهيرة بمرارة:

أنا أتحدث عن الأخرى، فالأخرى هى منتهى التميمي، أنتِ صورة منها يا منتهى.

قالت في ذهول طفلة لا يستطيع عقلها الاستيعاب:

منتهى التميمي من؟!

ـ أمك!

لقد قررت زهيرة أخيرًا أن تحكي للصغيرة بكل الصدق القصة كاملة، حاولت جاهدة أن تختار كلمات بسيطة تناسب الصغيرة، فخانتها تعبيراتها مرات كثيرة، وحاولت ألا تبدو الحقيقة كئيبة فخانتها دموعها في أغلب الأوقات، فبدت القصة وكأنها مأساة عُجنت بالألم.

شحذت الصغيرة كل حواسها لتستقبل الحكاية، أرهفت السمع، واتسعت حدقتاها، وخفق قلبها، وسجل عقلها كل تفاصيل الحكاية، تلك الحكاية التي تاقت إليها منذ أن وعت على الحياة، حكاية أغرب من كل الحكايات التي قرأتها، حتى ولو لم يستوعب عقلها الصغير يومها كل ما سمعته، لكن من المؤكد أن أحرف كلمات جدتها حُفرت فوق سطور عقلها وخلجات نفسها وخفقات قلبها، وبقيت داخلها دون رحيل.

لقد علمت قصة منصور طه رحال ومنتهى التميمي.

ومنذ ذلك اليوم بدأت الصغيرة بكتابة مذكراتها التي لم تنقطع عن كتابتها يومًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الثالث

كانت فجيعة زهيرة في مصيبة موت طه كبيرة، فقد رأت العالم من بعده وكأنه خلا من كل شيء، كان عالمها الذي عشقت الحياة بين أرجائه، ولم ترغب يومًا في الخروج منه، فكيف يرحل ويتركها وسط هذا الخواء، أنى لها أن تحيا! من سيشاركها الحياة من بعده؟ من سيهتم لحال أبنائهما الثلاث؟

عند رحيل طه كان منصور قد أنهى لتوه السنة الأولى من كلية الآداب قسم الفلسفة، فتى ما يزال في مقتبل كل شيء، وكانت سوسن ترقب نتيجة امتحان الثانوية العامة. أما يسر فتركها طفلة تبكي بحرقة وهي تسأل عنه، متى سيعود وأين ذهب؟ لم ترَ أي سبب مقبول لغيابه عنها، حتى عندما قالت لها زهيرة بصوت شرخه البكاء فغيّره تمامًا:

ـ أباكِ في الجنة يا يُسرا!

ازداد يومها بكاء الصغيرة، وتعالت شهقاتها وهي تقول:

لا أسامحك، وأبدًا لن أسامحك، كيف سمحتِ له أن يفعل؟ لو أخبرتيني لذهبت معه!

فتنفجر زهيرة في البكاء من جديد وتضيع ملامح حروفها، وتكتشف أن صوتها قد بُحّ، وكلماتها تخرج بلا صوت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عارضت زهيرة ومنصور قرار سوسن العجيب في الالتحاق بالمعهد العالي للفنون المسرحية، لكن هيهات أن يُثنيها عن وجهتها أحد، فهي منذ طفولتها صاحبة شخصية قوية، ربما بسبب كلمات المديح والإطراء على جمالها، مما كان يُغذي فيها شعورًا بالاعتداد بالذات، ويضرب في نفسها جذورًا من الثقة، مما جعلها ترى نفسها تستحق تسليط الأضواء عليها، وأن مجال التمثيل هو المجال الوحيد الذي سيشبع رغباتها ويحقق أحلامها.

«يا ليتها ما فعلت، ربما لو لم تفعل لما حدث لمنصور ولدي ما حدث، اللهم لا اعتراض على حكمك يا رب!» هكذا كانت تهمس زهيرة لنفسها دون أن تستطيع منع دموعها من الانفجار، ولسانها من الاستغفار.

فبعد شهور قليلة من التحاق سوسن بالمعهد، توطدت علاقتها بزميلة لها في نفس السنة الدراسية، ابنة لأم أرمنية وأب مصري أرمني يُدعى يوسف التميمي، تاجر مجوهرات، يمتلك محلًا شهيرًا في حي مصر الجديدة الراقي، ترتيبها الثاني بين أربعة أشقاء، تكبرها فتاة ويصغرها صبيان، وتحمل اسمًا بدا مميزًا، لم يكن مألوفًا وقتها: «منتهى».

فتاة ناعمة، ذات جمال خاص، أخذت عن أمها بشرة بيضاء مشربة بلون الورد، وشفتين ورديتين مكتنزتين، وأنف دقيق، وعينين عسليتين مستديرتين، ولها جبين صغير ووجه مستدير، ويميزها شعر كستنائي يميل إلى الأحمر، صاحبة قوام تتفجر منه كل تفاصيل الأنوثة.

بتكرار ذهاب منصور لاصطحاب سوسن من المعهد تعرف على صديقتها الناعمة، وبمرور الوقت اشتعلت شرارة الحب بين قلبيهما. أحبت منتهى في منصور وسامته التي فاقت وسامة كل زملائها، فهو شاب فارع الطول، عريض الصدر، ذو جسد رياضي وعضلات مفتولة، شعره البني مصفف دومًا بعناية إلى الوراء، واثق في نفسه، راقٍ في حديثه، خشن الطباع، مترفع عن بذل مجهود من أجل الاقتراب من الآخرين. اقترب منها وهمس في أذنها بكلمة الحب السحرية بعد عدة أشهر من تعارفهما، بينما كانت في أمسّ الحاجة لسماع اعترافه بحبها، فقد صارت مهووسة به، أحبت فيه جرأته، اهتمامه بها، غيرته عليها، رأته مختلفًا عن كل شباب عائلتها الذين يحيون حياة مخملية سلبتهم سمات فارس أحلامها، بينما تطابقت تمامًا مع مواصفات منصور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بقلب الأم استشعرت زهيرة تغيّرًا اجتاح ولدها البكر، فقد بدا مبالغًا في اهتمامه بمظهره، يترقب مواعيد شقيقته في المعهد، كما أنه بات يطلب منها الكثير من المال الذي لم تكن تملك منه إلا أقل القليل، فلقد اضطرتها الظروف لبيع قطعة الأرض التي ورثتها عن أبيها، ثم البدء في بيع حُليها الذهبيه قطعة تلو الأخرى، لتواجه التزامات الحياة لثلاث من الأبناء، لا يمكنهم الاعتماد على معاش زهيد تصرفه الحكومة لهم.

همست زهيرة بإحساسها لسوسن، التي لم تخفيها سرًا أن منصور غارق في علاقة حب مع صديقتها. اغتمت زهيرة لما سمعت. تصنعت الجهل، ووجّهت سؤالها مباشرة إلى صاحب الأمر، سألته عن التغيير الذي تراه باديًا عليه. التزم منصور الصمت، فاستطردت تقول بعينين متوسلتين، وصوت هادئ يقطر وجعًا:

ربما تكون معجبًا بإحداهن، لكن يا بُني يجب ألا يتعدى الأمر إلى ما هو أكثر من المشاعر، فأنت ما زلت في الحادية والعشرين من عمرك، طالب في السنة الثانية بالجامعة، ولديك شقيقتان يتيمتان، وأم تجاهد بما تبقى لها من ميراث أبيها لتظلوا مستورين، وعندما ينتهي ما لدينا من ثمن الأرض لن يتبقى لنا سوى محل مغلق بالجمالية، ومعاش أبيك الذي لن يكفينا، نحن بحاجة لأن نجاهد أنفسنا، رغباتنا، عواطفنا.. حتى أحلامنا يا منصور يجب أن ننتقي منها ما يناسب ظروفنا!

بدا منصور صامتًا شاردًا، فاستمرت زهيرة في الحديث وصوتها يزداد توسلًا ووهنًا:

ما زال أمامك طريق طويل من الدراسة والعمل حتى تلحق بقطار الحياة، لا تعد بنات الناس بما لا تملكه يا ولدي، ولا تعد نفسك بما لا تستطيع نيله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حملت الشهور القليلة التالية لأسرة طه رحال سلسلة هزّات أرضية ارتدادية، أعقبت زلزالها الذي تمثل في رحيل عائلها، فلقد استعرت جذوة قصة حب منتهى ومنصور، وتطاير شررها، فوصل الخبر إلى يوسف التميمي من خلال ابنه الأصغر الذي شاهد شقيقته وحبيبها يسيران مشتابكي الأيدي، متعانقي الأصابع، بجوار شريط مترو مصر الجديدة.

عندما صرخ أبوها في وجهها بما علمه لم تستطع منتهى أن تنكر، ألهب وجنتها الناعمة بلطمة قوية، وحبسها في المنزل، ثم أصدر أمرًا بمنعها من الذهاب إلى المعهد.

هرع الحبيب إلى محل التميمي بجرأة شديدة ً، راغبًا في مقابلة والد حبيبته القاسي، ليصارحه برغبته الجادة في الزواج من ابنته بمجرد أن ينتهي من دراسته الجامعية، عندها طرده يوسف التميمي وبريق مجوهراته تنعكس على ملامحه، طرده بعد أن سخر منه وأمره ألا يتعرض لابنته ثانية.

كانا عاشقين مجنونين شديدي الجرأة، فاتفقا سرًا عبر اتصال هاتفي متهور على تفاصيل هرب منتهى من منزلها. وفي الموعد المتفق عليه اصطحبها منصور إلى المأذون، ثم عقد قرانه عليها وشهد على العقد صديقان له.

يومها أخبر منصور أمه بسفره بصحبة بعض أصدقائه لأيام في رحلة مع الجامعة، وهاتفت منتهى شقيقتها التي تكبرها بأعوام قليلة، لتخبرها أنها قد تزوجت من أحبته وانتهى الأمر.

نفدت بسرعة الجنيهات القليلة التي كانت بحوزة منصور، وعاد مصطحبًا عروسه العاشقة إلى منزل أمه المكلومة.

وبرغم فجيعتها في ولدها؛ لم تستطع زهيرة التخلي عن فتاة ترى أن ابنها أجرم في حقها وحق نفسه وحق أسرتها، عندما جعلها تترك منزل أسرتها رغمًا عن أنف الجميع لتهرب معه إلى حيث المجهول.

وبفعلته أحدث منصور في عمر زهيرة جرحًا غائرًا، كانت تعلم أنه لن يندمل أبدًا. قتل بخنجر صدئ كل أحلامها، وهو من ظنته امتدادًا لطه، لكن فعلته صرخت في وجهها بأن طه مات بحق، وأنه لم يكن هناك سوى طه رحال

واحد، فصارت لا تكره فكرة الموت ولا تخافه، فيوم سيأتيها سيأخذها إلى عالم يزينه طه بسكناه.

أتى يوسف التميمي مرة واحدة إلى منزل طه رحال، خرجت إليه ابنته دامعة العينين، ترتجف كهرة صغيرة مبتلة ضلت طريقها، لم يصرخ التميمي في وجهها، ولم يصفعها كما فعل من قبل، ولكنه نظر بازدراء إلى كل شيء وقعت عليه عيناه في المنزل المتواضع، ثم حدّج ابنته بنظرة سرت في جسدها كتيار كهربائي صاعق، وقال:

لقد كنت أفكّر في عقابك! لكن بعد مشاهدتي لهذا المنزل وهذه الحياة؛ أرى أن عقابك هو اختيارك، أنتِ ميتة في نظري ونظر أمك وأشقائك.

ثم استطرد يقول وأصابعه تقبض على غليونه، بينما لم تستوقفه دموع ابنته، ولا انتفاضات جسدها المتتالية:

ـ لقد اخترتِ الموت وأنتِ على قيد الحياة. إياكِ أن تفكري في العودة إلينا مرة أخرى، فلقد أخبرنا الجميع بموتك.

كانت هذه كلماته قبل دبيب خطوات رحيله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صار منصور مقتنعًا بأنه رجل البيت، وأن رجولته هي التي أملت عليه ألا يتخلى عن حبيبته التي حبسها والدها بعد أن لطم وجنتيها الناعمتين بكفّه الغليظ، وأقسم عليها ألا تبارح المنزل بعد اليوم.

لماذا تقاطعه أمه، لماذا تتهمه بالجنون والتهور، لماذا هذا القهر الذي سكنها، ولماذا تلك النظرات التي تفيض بالاتهامات التي ترمقه بها اللعينتان سوسن ويُسر؟ لقد وعد بأن يعمل ويستكمل دراسته ويُنفق على زوجته، وعد وكان واثقًا من أنه سيستطيع أن يفعل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لعدم وجود أمها إلى جوارها، وانعدام خبرتها؛ لم تحتط منتهى جيدًا، ولم تُجد استخدام وسيلة منع حمل بشكل سليم، فكانت المفاجأة أن حملت منذ الشهر الأول، لقد كانت صغيرة وعاشقة ومثيرة وناعمة، صدّقت الأفلام التي رأتها عبر شاشات السنيما وأغرمت بها واختارت لأجلها الدراسة بالمعهد، صدّقتها فآمنت بقدرتها على ترك العالم من أجل حبيب لا تتصور حياتها بدونه، لقد أكّدت الأفلام أن الحب لابد أن ينتصر في النهاية مهما قابلته من صعاب، وأكّدت أيضًا أن الحبيب لا يستطيع أبدًا أن يحيا دون حبيبه، وأن الحب الأول لا يُطمس ولا يُنسى.

بعد تسعة أشهر وضعت منتهى وليدتها، فرح بها منصور لأنها وثّقت علاقته بأنثاه، كما أنها جاءت صورة منها، ولم يقبل منصور أي اقتراح لتسميتها، بل ذهب منفردًا في اليوم التالي لولادتها، وعاد بشهادة ميلاد باسم منتهى منصور رحال.

الشهور الإحدى عشر التي تلت قدوم الوليدة إلى الحياة كانت سلسلة من أحداث تلاحقت بلا توقف، فبعد شهرين حملت منتهى من جديد، بينما سحقت أعباء الحياة كل ملامح الحنان والاحتواء التي كان يتحلى بها منصور، ولم يعد لديه وقت للذهاب لكليته، لم يعد أمامه إلا العمل كسائق لتاكسي يملكه أحد جيرانه.

تزايدت طلبات منتهى «الطفلة بحاجة للبن صناعي، أنا بحاجة للذهاب لطبيب لمتابعة الحمل، أشعر بوهن شديد، هذا الحمل أكثر صعوبة من سابقه»، ولم تصارحه بما صارحت به سوسن أكثر من مرة: «أشعر أنني أختنق يا سوسن، أشعر أنني لست أنا، أشتاق لأمي، لأشقائي، لحياتي القديمة، لغرفتي، لفراشي في بيت أبي، للتجمع مع أبناء عمومتي في عزبة جدي، أشتاقني يا سوسن، متعبة أنا إلى ذلك الحد الذي صار عنده لا شيء مريح».

وبرغم معاملة زهيرة الحنون لمنتهى، ومحاولاتها لتوفير سبل الراحة التي تستطيعها لها، بجعلها لا تشترك في أعمال المنزل أو في شئون الطبخ، بل وكانت دومًا تُراعي ذوقها في الطعام، وبرغم أن سوسن ظلت صديقتها الأقرب، وكانت تحب قضاء الوقت مع يُسر الصغيرة، التي تساعدها في شئون مولودتها بحنان وحب عجيبين، إلا أن كل هذه الأمور لم تجعلها تشعر بالسعادة أو القدرة على التأقلم مع ذلك الوضع الذي لم تُعد له بعناية.

صار منصور شديد العصبية، يثور لأتفه الأسباب، يصرخ كمجنون، تغيّر كثيرًا، لم يعد أنيقًا ومهندمًا كما كان، حتى قسمات وجهه صارت أكثر غلظة، بينما عانقت بشرته سمرة وجدّية وقسوة لم تعرفها منتهى فيه من قبل.

اختلفا ذات مرة، فعلا صوته إلى حدّ أصابها بالفزع، فصرخت في وجهه، ولعنت عيشتها معه، فهوى بكفّه فوق خدها، ودفعها فسقطت فوق الفراش بغرفتهما الضيقة، فارتجف السرير بالوليدة التي كانت تبلغ من العمر شهورًا قليلة، واستيقظت من نومها صارخة بلا توقف، اختلطت صرخاتها بشهقات أمها المتهدجة العالية من أثر البكاء، وبلعنات أبيها المدوّية، ثم صفعته العنيفة للباب التي أعقبت خروجه وهو يسبّ ويلعن بلا توقف.

في الصباح حاول منصور الاعتذار لمنتهى، فاكتفت بالإيماء برأسها ردًا على كلماته التي حاول بها أن يُصلح ما تمّ كسره بالأمس، اقترب منها ليلثم

شفتيها، فأشاحت بوجهها، واكتفت بأن تركت له خدّها ليطبع فوقه قبلة لم تُرضيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في صباح أحد الأيام قبل أن تضع منتهى طفلها الثاني؛ سمعت يسر الصغيرة طرقات على باب الشقة، وعندما فتحت وجدت نفسها أمام شابة جميلة مميزة الطلّة وكأنها قد خرجت لتوها من شاشة سنيمائية. بدت مترفة المظهر، ترتدي تاييرًا أزرق ضيقًا، وتحمل حقيبة يد أنيقة لامعة، بنفس لون حذائها عالي الكعب، ظلت يُسر تتطلع فيها حتى سمعتها تقول:

أريد مقابلة منتهى.

ـ من؟

سألتها يسر وهى تتفحص تفاصيلها بانبهار.

ـ أنا منى، شقيقتها.

عابسة كانت، لها ذقن دقيق مرتفع لأعلى، بينما تحبس خصلات شعرها الكستنائي المسترسل بنظارة شمسية فاخرة.

رحبت بها زهيرة وشعور بالخزي يلازمها لفعلة ولدها التي لم تبرأ منها بعد، لم تُصدّق منتهى نفسها عندما وقعت عيناها على شقيقتها الكبرى، لم تُصدّق أنها قد بزغت فجأة كشمس الأصيل وسط ظلام أيامها الدامس، هرولت نحوها ببطن منتفخ، فبدت تسير بخطوات أشبه بمشية طائر بطريق يلهو على الشاطئ، وقالت في صوت مرتعش وبصوت خانته أحباله الصوتية:

أبي قال إنه أخبركم أني قد مت، فما دمتم تعلمون أنني ما زلت حية لماذا لم تسألوا عني وإن أخطأت؟!

ثم ارتمت منتحبة فوق صدر أختها التي تركتها تضمها وتقبلها دون أن تحوطها بذراعيها، وكأنها تعلنها لها، لقد أتيت لكنني لم أصفح بعد.

طلبت زهيرة من منتهى أن تصطحب شقيقتها إلى غرفة الضيوف أو غرفة نومها، لم يكن منصور بالمنزل، وبالتأكيد تحتاج الشقيقتان إلى أن ترتويا من بعضهما البعض بعد طول ظمأ.

أخبرت منى شقيقتها أن أمها تموت كمدًا كل يوم منذ أن ارتكبت جريمتها الشنعاء في حقهم جميعًا، وهي سيدة المجتمع التي كانت تزدهر بإطلالتها سهرات وحفلات الطبقة الأرستقراطية، لكنها صارت كسيرة النفس تهرب من الآخرين خشية أن تنفذ الأعين إلى حياتها فتتعرف على جريمة ابنتها.

تنقلت عينا منى الواسعتان بين الصغيرة التي ما زالت تحاول الحبو تحت أرجلهما، وبين بطن شقيقتها المنتفخ الممتد أمامها، ثم لوت شفتيها في امتعاض، وأخبرتها أنها لا تكاد تصدّق ما تراه.

أرخت منتهى عينيها هربًا من لسعات نظرات شقيقتها وكلماتها، ثم عادت تسأل دون أن تملك حبس دموعها:

هل أخبركم أبي أني مِت؟ هل أخبر أبناء عمي وبنات خالاتي أنكم قد دفنتموني؟ هل تلقيتم العزاء فيَّ يا منى؟

ـ لا لم يحدث.

قالتها ببرود، ثم أردفت:

أخبرهم بأنكِ سافرتِ إلى روما لدراسة السنيما، أبي لا يعلم أنني آتية إليكِ.

صمتت لبرهة، ثم استطردت تقول:

حفل زفافي سيكون بفندق شبرد بعد أربعة أشهر من الآن، لقد تمت خطبتي إلى عمر سلطان قريب أمي، والعائد لتوه من باريس بعد حصوله على رسالة الماجستير في القانون الدولي.

ثم سألتها وهي تضع ساقًا فوق ساق:

ـ متى ستضعين جنينك؟

ـ الشهر القادم، فأنا حامل في الشهر الثامن.

طالت جلستهما لأكثر من ساعتين.

عندما عاد منصور في المساء انقبض صدره فور علمه بزيارة منى، وازداد صدره انقباضًا عندما لم تُحدّثه منتهى عن هذه الزيارة إلا بكلمات قليلة مقتضبة، ومن ذلك اليوم صار يهرب من إحساس لازمه بأن منتهى قد تغيرت كثيرًا بعد هذه الزيارة، فلقد صارت ذابلة، شاردة، حتى عندما يجلسون جميعًا لتناول الطعام تبدو وكأنها لا تُجالسهم، والأعجب من ذلك أن منى لم تزر منتهى سوى مرة واحدة بعد هذه الزيارة، كان ذلك عقب ولادة منتهى لطفلها الثاني، والذي اختار له أبيه اسم محمود.

ساءت حالة منتهى النفسية بعد ولادة محمود، فأصبحت لا تكف عن البكاء، ورجح الطبيب إصابتها باكتئاب ما بعد الولادة.

في بكور يوم ما رجت منصور بأن يعود في المساء مبكرًا فلديها ما تقوله بإلحاح. فعاد قبل الموعد الذي توقعته، وكأنه لا يريد أن يطيل زمن الانتظار.

همست منادية، بينما هو يفتح أزرار قميصه:

منصور!

التفت ينظر إليها، فقالت من بين دموعها التي بدأت تنساب في صمت:

أحبك! أنت تعلم جيدًا كم أحبك! تعلم أنني لم أحب قبلك رجلًا، وحتى أموت لن يمتلك قلبي سواك!

نظر إليها مشدوهًا:

ما الذي تخفينه يا منتهى؟ كلماتك تشعل قلقًا في نفسي!

اقتربت منه، لم تفعل منذ وقت طويل، التصقت به ثم ألقت برأسها الصغير فوق صدره العريض، فبللت دموعها شعر صدره العاري، ألصقت شفتيها المبللتان بصدره، رفع وجهها والتقطهما محمومًا، لحظات قليلة وألقى بها فوق الفراش الذي ارتجّ لفرط النشوة التي اجتاحت الجسدين المنتفضين، استسلمت تمامًا، بينما كان يفيض شوقًا إليها، فهو لم يفتر لحظة عن الهوس بجمالها، فلم يزدها الحمل والولادة والرضاعة إلا أنوثة فوق أنوثتها، لقد تضاعفت فتنتها ونعومتها!

استلقى على ظهره ملتحفًا وإياها غطاءً يغطي نصفيهما السفليين، جذبها إلى صدره، فلقد انتهى لكنه لم يرتو منها بعد، علا رأسها وانخفض مع تهدّج أنفاسه، بينما بدت مصرة على أن تتمّ حديثها الذي بدأته منذ قليل.

ـ ساعدني في إرضاء أسرتي، أخطأت في حقهم دون قصد، غلبني عشقي لك، ولعي بك يا منصور هو الذي جعلني فعلت فعلتي!

بينما ينفث دخان سيجارته فتتراقص أمام عينيه أشكال مبهمة ككلمات منتهاه، فأردفت بصوت مرتعش يفيض ضعفًا:

طلقني يا منصور!

همّ بدفعها بعيدًا، فتمسكت به ولم ترفع رأسها من فوق صدره، شعر بسخونة دمعاتها تلسع جلده.

ـ سأذهب لأبي بورقة طلاقي أطلب منه أن يعفو عني، سأخبره بأنني قد عدت إليه، وتركت من خلفي طفليَّ، عدت بعد أن طلقني زوجي الذي أعشقه ويعشقني رغبة في نيل رضاه، حينها فقط سيرضى عني وسيزوجني بك من جديد.

صمتت دون أن تصمت دموعها ثم أردفت تقول في توسّل بين شهقات متقطعة:

ورقة طلاقنا هي صكّ الغفران عن فعلتنا يا منصور، أشعر أن لعنة عقوقي لوالدي تطاردني، الاكتئاب سيقضي عليَّ، اللبن في صدري بدأ يجفّ، ومحمود لم يبلغ من العمر سوى شهرين، الأمر مجرد ورقة سأذهب بها إلى أبي، وسنعقد قراننا في اليوم التالي.

لم تتوقف دموعها لحظة، واستطردت تقول دون أن تمنحه الفرصة لمقاطعتها:

هكذا وعدتني أمي في رسالة شفهية أرسلتها لي مع منى، نعم أمي يا منصور، تلك التي يعتصرني حنيني إليها، اشتقت إليها وهي التي ينهشها المرض بسببي بينما ترفض أن تراني بسبب ما صنعت، اشتقت إلى شقيقيّ، لا أريد أن أعيش منبوذة وأموت طريدة، أنا لا أقوى على هذا!

بينما استشعرت غليان دمائه، أخذت تنثر قبلات صغيرة فوق جسده، وتواصل توسلاتها:

أنا لا أقوى أيضًا على الحياة بدونك يا منصور لكنني أكاد أجنّ، روحي لم تعد روحي، شيء فيها يذبل يومًا بعد يوم، أكاد أموت، إنها اللعنة!

هاج وماج، أرعد وتوعّد، ثم اعتلاها من جديد، وانطفأ بعد اشتعال.

مرّ أكثر من أسبوعين كانت تُعيد طلبها فيتحول إلى ثور هائج ترتعد فرائصها لثورته، ثم تسكن تمامًا، وتُرخي رأسها الصغير، وتنزوي.

كانت تُقدّم له نفسها كل مساء بإيمان وإخلاص شديدين، كما يتم تقديم قربان لإله إغريقي، ثم تتوسّل إليه عساه يحقق مطلبها.

كانت تبثّه شوقًا عجيبًا تطوف به سائر أرجاء جسده، شفتاها المكتنزتان الساخنتان لا تفتران عن الهمس بأنها لن تقوى على الحياة يومًا واحدًا بعيدًا عنه.

أخيرًا وقعت المعجزة، قُبلت القرابين!

كان أكثر ما طمأنه إصرارها على ترك الرضيعين، حتى يقبل أبوها عودتها إليهما من جديد، فالصغير لم يبلغ شهره الثاني بعد، ومنتهى جاوزت العام منذ شهر واحد.

قبّلتهم جميعًا، لم تكفّ عن البكاء، وعدته أن تعود بعد يومين على الأكثر، ثم حملت الصكّ ورحلت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تحملت زهيرة مسئولية الصغيرين، ساعدتها يُسر بحب وتفانٍ رغم صغر سنها، بينما لم يسمح وقت سوسن بتقديم الكثير من المساعدة لانشغالها في المعهد.

ولكن عقب اليوم الثالث لرحيل منتهى بدأ الخوف والتوتر يتسلل إلى الجميع، فهي لم تحاول الاتصال بهم لتبثهم أخبارها وتطمئن على الصغيرين! في اليوم الخامس أصاب منصور هياج شديد «بالتأكيد آذاها التميمي، حبسها في منزله، منعها من الرجوع إليَّ، لم تأخذه الرحمة برضيعيها، نكّل بها وبي، هذا المجرم الذي لم يرقَّ قلبه لضعفها، وهي التي وضعت منذ شهرين!»

عندما حاول الاتصال هاتفيًا بمنزل التميمي وجد أن الرقم قد تغيّر وصار باسم مالك آخر، جنّ جنونه، ذهب إلى محل المجوهرات، لم يجده هناك، سأل عن موعد قدومه، تبادل الموظفان المتواجدان في المحل نظرات غريبة، وكأن لديهما خبرًا مسبقًا عن حضور منصور إلى المحل.

ـ يوسف بك لا مواعيد له للتواجد في المحل.

صرخ في وجهيهما، بعثر كلمات غاضبة، وانصرف قبل أن يشرعا في طرده، ثم انطلق كرمح رمى به رامٍ ماهر إلى مصر الجديدة.

قبل أن يهمّ بدخول فيلا يوسف التميمي لمح حارسًا أسمر عجوزًا بجلباب نوبي يجلس أمامها، حاول أن يكبح زمام غضبه ليبدو طبيعيًا، سأل عن السيدة منتهى التميمي، أخبره بأنه مرسلٌ إليها بشيء ما.

ـ منتهى هانم غادرت منذ يومين، لم تمكث سوى أيام قليلة.

سُحبت روح منصور فلم يقو على الكلام، فاسترسل النوبي قائلًا:

قدمت بعد سفر طويل من أوروبا، عادت لزيارة الأسرة لأيام قليلة، أنا من أنزلت لها الحقائب أول أمس.

ـ سافرت؟!!

قالها وقد امتقع وجهه وصار بلا لون.

ـ ما أرقها الهانم الصغيرة، ودّعتني قبل أن ينطلق السائق بها إلى المطار، أنا هنا قبل مولدها.

ظلّ يثرثر بينما لم يعد منصور يسمعه، كان صوته الداخلي أقوى «الحارس النوبي كاذب، هذا الملعون، لقّنه يوسف التميمي تلك الكلمات القاتلة، مستحيل أن تسافر منتهى، مستحيل أن تترك رضيعيها، مستحيل أن تهجرني،

سأذهب في صباح الغد إلى قسم الشرطة، سأقدّم بلاغًا ضد يوسف التميمي، سأتهمه أنه يحبس زوجتي، وأنه ...»

سقطت الدموع من عينيه لأول مرة منذ بلوغه مبلغ الرجال، ساوره شعور بأن كل شيء يخذله، حتى قوته التي يعلمها عن نفسه، لم تعد زوجته، أطاعها وطلقها، جُنّ وطلقها كما طلبت، تركها ترحل كي تعود.

«لكم أنا أحمق!»

صرخ صوت الفرامل عاليًا، توقفت السيارة، خبط رأسه عدة خبطات متتالية في عجلة القيادة.

كيف صدّق كلاهما أكاذيب والديها وشقيقتها، كيف فعل هو فيها ما فعله، كيف رقّ قلبه لحالها فطاوعها، لماذا لم يقسُ عليها لأجلها؟ ها هي محبوسة، ممنوعة حتى من استخدام الهاتف، ممنوعة من العودة إلى رضيعها لتلقمه ثديها، إنها أضعف من أن تصمد أمام تعذيبهم لها، أنعم من أن تواجه تنكيلهم بها، خرجت منه آهه عالية شقّت سكون الكون من حوله، كونه الذي صار بلا منتهى، كون موحش كوحشة القبور.

بمجرد دخوله المنزل محني الظهر متحاملًا على قدمين لا تقويان على حمله، اخترق سمعه صوت صراخ الصغيرين، ووجد يُسر تندفع نحوه بينما تمدّ يدها الصغيرة إليه بورقة مطوية، قبل أن يقرأها وقعت عيناه على وجه زهيرة الذي بدا باهتًا حزينًا، وسمعها تغمغم في مرارة:

استدعاء من القسم يا بني، نسأل اللـه الستر، هل صدمت أحدًا بالتاكسي؟ هل تشاجرت مع أحدهم؟... هل... هل.... هل...

ظلت تطرح عليه الاحتمالات بينما ينفي بحركات من رأسه يمنة ويسرة كل ما توقعته.

هرع إلى القسم وأمامه كل الأفكار السوداء، قتلها التميمي، بل ماتت لقهر أصابها لأنه رفض عودتها إلى زوجها وصغيريها.

تصوّر نفسه يقف في المشرحة ليتعرف على جثتها، سأقتلك يا تميمي سأقتلك، سأنتقم لها ولطفلينا اللذين يتمتهما، سأقتلك وسأُعدم لن يهمني، لن أتركك تُفلت بجريمتك.

في زمن قياسي كان يتهاوى بين جدران قسم الشرطة، وكانت المفاجأة تنتظره، لقد رآه أمام عينيه، جالسًا قبالة مكتب المأمور، واضعًا ساقًا فوق ساق بين شفتيه غليونًا ينفث دخانه وكأنه يبصق.

لم يُكلّف يوسف التميمي نفسه عناء النظر إلى منصور الذي عقدت المفاجأة تفكيره. بعد التحقيق معه أبلغه المأمور أن يوقّع على ما يفيد بعدم تعرضه لوالد طليقته التي غادرت القاهرة هربًا منه بعد طلاقهما.

أخرسته المفاجأة، فأخبره المأمور أن السيدة منتهى التميمي قد غادرت البلاد، وأضاف أن البك سيكتفي هذه المرة بتعهد بعدم التعرض تفضلًا منه ورحمة.

كالمُغيّب وقّع وانصرف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

توقّع أن يُصاب بذبحة صدرية، بجلطة في المخ، بشلل يقعده عن الحركة سائر عمره، فمن يُصابون بمثل هذه الأشياء لا يتعرضون لأكثر مما تعرض له، توقّع ألا يستيقظ من نومه في اليوم التالي، وأن تصرخ أمه مولولة بأن ابنها قد مات بالسكتة القلبية، وأنه ترك لها رضيعين سيموتان منها، توقّع أن يكون كل ما حدث في الأيام القليلة الماضية ليس سوى كابوس مميت، وأنه سيستيقظ فيجد منتهاه إلى جواره تُرضع صغيرهما وتنظر إليه نظرة ذات مغزى بعد أن قضى ليلته بين أحضان أنوثتها المتقدة.

توقّع وتوقّع وخابت كل توقعاته، فاستيقظ في صباح اليوم التالي بكامل هيئته وصحته، جرجر نفسه ووقف ينظر في المرآة باحثًا عن منصور، لكنه لم يجده! لم تكن المشكلة متمثلة في عينيه المنتفختين، أو نظرة الكراهية المغلفة بالخزي المنصهر بالقهر التي سكنتهما، لكنه كان شيئًا جوهريًا قد تغيّر فيه.

نعم منذ ذلك الصباح قد صار منصور رحال شخصًا آخر غير الذي عرفه منذ مولده.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تزوجت سوسن وسافرت إلى أوروبا مع زوجها الإنجليزي السيد (توبار هينز)، الذي يعمل في مجال التصوير السينمائي، فقد كان واحدًا من مجموعة فنية مميزة قدمت إلى مصر مع مخرج عالمي شهير وفريق عمل مختار بعناية لتصوير أجزاء من فيلم هام، تدور بعض أحداثه على أرض الفراعنة.

عندما أنهى الفريق عمله بعد بضعة أشهر، وحان وقت الرحيل من القاهرة؛ لم يرحل هينز كما خطط قبل قدومه، فالخطة كانت قد اختلفت تمامًا عندما تعرف على فتاة مصرية لا تخطئ جمالها عين، التقى بها في استوديو مصر حيث كانت مشاركة في الفيلم بدور أقل من أن يوصف بأنه صغير، إلا أن تلك الفتاة التي التقى بها عدة مرات جذبت انتباهه بشدّة، وأبدى لها إعجابه بلغتها الإنجليزية السليمة، فأخبرته أن والدها الذي رحل منذ سنوات قبيل زوجها في

روما، خارجة لتوها من إحدى دور السنيما، عندما وجدت نفسها وجهًا لوجه أمامها، العجيب أن أمك أبدت سعادتها بلقاء سوسن، تبادلتا الأحضان، وعقدت المفاجأة ذاكرتهما للحظات. فقط سعدتا باللقاء.

اتسعت عينا الصغيرة العسليتان وازدادت استدارتهما، ولم تقاطع جدتها التي استرسلت في الحديث:

كانت أمك بصحبة رجل وطفلين، قدمتهما لسوسن على أنهم زوجها وطفلاها، وقدمت سوسن لزوجها قائلة «سوسن رحال يا شهاب، سوسن طه رحال» وكأنها تُذكّره باسم حدثته عنه من قبل. حيّا الرجل سوسن وزوجها بترحاب.

شهقت منتهى الصغيرة وطفرت الدموع من عينيها، رغم أنها لم تبكِ طوال الوقت الذي حكت فيه زهيرة، لكن عند هذا الحدث تحديدًا غمرها شعور عجيب بأنه قد تمّ إلقاؤها من قِبل من أنجبتها، تمّ التخلص منها ومن شقيقها عن عمد، وتمّ استبدال طفلين آخرين بهما.

قالت زهيرة بتأثر بالغ وكأنها ندمت لتوها أنها فعلت:

لا تبكي يا منتهى، فأنا لم أحكِ لكِ لإيلامك يا حبيبتي، لكنني شعرت أن في منامك أمرًا لي بأن أُخبرك.

تجاوزت الصغيرة كلمات جدتها، وقالت وهي تحاول مسح دموع تلسع وجنتيها:

هل رأتها عمتي سوسن ثانية؟ ألم تسألها عنا؟ ألم…

تهدجت أنفاسها وعلا صوتها بالبكاء، ولم تستطع أن تُكمل ما تريد السؤال عنه، فجذبتها زهيرة برفق واحتضنتها وهي تقول:

سألت سوسن عنكِ وعن محمود في أول مكالمة لهما بعد ذلك اللقاء، ومنذ ذلك اليوم وهما تتبادلان الاتصالات الهاتفية من وقت لآخر، ربما مكالمة كل بضعة شهور، وفي كل مرة تسألها عنكما، وقد عرفت سوسن منها أنها تزوجت مخرجًا شابًا اسمه شهاب المعزاوي، من أسرة فنية شهيرة، وأنجبت منه ولدًا يصغر محمود بعامين، وبنتًا تصغر الولد بعام.

ازداد بكاء الصغيرة واحتقن وجهها، قبل أن تدفنه بين كفيها الصغيرين، ولم تعد تستطع السيطرة على نفسها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ليلة الجمعة التي تلت جمعة الاعتراف كانت ليلة لا تشبه ليالي أسرة طه رحال، ليلة غائمة فاصلة، رحلت فيها زهيرة بلا عودة.

رحلت وتغيّر شكل الحياة في البيت لرحيلها، فنافذتها صارت مهجورة، وتقطّعت أواصر كافة العلاقات الودودة التي كانت تتمّ من خلالها، كنبتها الزاهية باتت كصحراء قاحلة، لا تطأها جلسة، ولا تؤنسها ثرثرة، حتى الباعة الجائلين تكاد أعينهم تخترق النافذة باحثين عنها، وكأنهم يفتقدون طلّتها الطيبة وابتسامتها الودود التي تحتضن بها وجوههم الكادحة حينما يمدّون إليها أيديهم ببضاعتهم.

كاد يوم الجمعة تحديدًا دون سائر أيام الأسبوع يسأل عنها بعد رحيلها، فلم يعد هناك من يأتي بالبخور كمخزون نصف سنوي من عطارة بعينها بحي الحسين، فتفوح رائحة لم يشتمها أهل البيت إلا في حياة زهيرتهم، حيث تتصاعد أدخنة وروائح مميزة وقت صلاة الجمعة، وتلتحم بصوت خطيب الجمعة الآتي من المسجد القريب للبيت.

رحلت زهيرة وتركت خلفها ابنة لم تنهِ دراستها الجامعية بعد، وحفيدًا إنجليزيًا مازال جنينًا على مشارف الوصول، وحفيدين تحت وصاية أب لا يألفانه، تركت ابنًا غيّرته الأيام وصبغت روحه بألوان قاتمة رسمها طيش شبابه.

قبل رحيلها بأعوام ترك منصور عمله كسائق تاكسي، وطلب منها أن يستغل المحل المغلق بحي الجمالية ليقيم مشروعًا، وافقت عساه ينجح في شيء بعد أن فشل في استكمال دراسته الجامعية، وبعد أن أخفق كزوج، وبعد أن صمّم على الهروب من كونه أبًا، كانت تعلم أنه يتحاشى الطفلين، لأنهما يجسّدان مأساة عشقه لأمهما، ومأساة هجرها المدبّر غير المبرر له.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع

«في يوم غائم رحلت جدتي الطيبة يا نديم..

رحلت رحيلًا موجعًا..

رحلت دون أن يتحقق حلمي في أن أرى وجهها يضحك، دون أن أسمع لها ضحكة عالية، نعم رأيت ابتساماتها الصغيرة الطيبة، عرفت دموعها لكنني لم أرَ أبدًا ضحكاتها. لقد عاشت جدتي منذ رأيتها حزينة وماتت حزينة، ولقد رأيت فيها الكثير من الطيبة والحب والعطاء وإنكار الذات.

رحلت في وقت كنت أحوج ما أكون إليها، وكأن حياتي وقتها كانت تفيض بالكثير حتى يأتي الفقد ليجزّ منها!

ألم أقل لك إن الفقد كان أول أصدقائي؟ لكم اعتدته وألفني هذا الملعون!

بكيت يوم رحيلها طويلًا، احتضنت أخي وبكينا وارتفع صوت نحيبنا بلا توقف، انتحبنا حتى تقطّعت أنفاسنا، وظلت جارتنا السيدة آمال تبذل المحاولات لتهدئتنا، وكانت عيناي مثبتتان رغمًا عني على الباب، متوقعة دخول امرأة بين لحظة وأخرى، تجذبني ومحمود وتغرقنا وسط ذهولنا بين أحضانها، وتبلل ملامحنا بدموعها شوقًا إلينا، وتخبرنا وسط شهقاتها المتتالية بأنها أمنا التي لا نعرفها، وتصرخ أمام الجميع مطالبة بضمنا إليها، طالبة منا العفو والسماح عما أجرمته في حقنا. نعم، كنتُ في تلك الليلة الحزينة، رغم ما علمته منذ أسبوع مضى، أتخيل هذا وأقول في نفسي بالتأكيد ستفعل، فهي إن لم تفعل ذلك الآن في خضم هذه المحنة فمتى ستفعل؟ إن لم تأتِ اليوم لتُكفّر عن كل ذنوبها في حقنا، وتبرر لنا جريمتها الشنعاء تجاهنا، فمتى ستفعل؟!

بكينا كثيرًا محمود وأنا.. أتى المساء ككل يوم، وأرهقنا البكاء والتعب والجوع. أتى مساء لا يشبه سابقه، فهو مساء يخلو من جدتي.. أتى المساء ولم تأتِ أمي الغائبة منذ عمر.. لم تأتِ التي كنت أتلمّس سراب ظهورها ذلك المساء..

أتى المساء فنمت أنا ومحمود أكثر انكماشًا مما كنا عليه من قبل!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد غياب زهيرة ظلت آمال تتردد على شقتها، تتفقد أحوال أسرتها، تطمئن على محمود ومنتهى ويُسر، تحاول بثّ شيء من الطمأنينة في أرواحهم المتعبة، كانت تأتيهم بأطباق من الطعام ثم تصعد إلى شقتها، وغلالة من الدموع تغلّف عينيها، ووجع فراق زهيرة يصهر روحها.

كانت آمال تعتبر زهيرة بمثابة أم لها، فعندما تزوجت من ابن عمتها فؤاد، الذي استأجر لهما شقة الزوجية في نفس المنزل الذي تقطن فيه زهيرة

والأستاذ طه؛ لم تسكن المنزل فقط، ولكن سكنت إلى جارتها الهادئة الطيبة الست زهيرة، وسكن أيضًا زوجها الطبيب القروي حديث التخرج إلى الأستاذ طه، فوجدا لديهما الكثير من الاحتواء، والخبرات الحياتية المفيدة والنصح المخلص، وكانا في أمسّ الحاجة لذلك، كان عُمر يُسر وقتها عامًا واحدًا، فكان الفارق في العمر بين يُسر وهداية الابنة الكبرى لآمال عامين، وكان الفارق بين هداية وحسين الابن الأصغر عدة أعوام أخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«كان الدكتور فؤاد ويسر هما من ساعداني كي أُشبع نهمي كقارئة، ذلك النهم الذي لازمني منذ تعلمت القراءة، كانت القصص والحكايات سلوتي التي أعيش فيها أحلامي، ومنها تغذى خيالي، فصنعت صورة لنفسي في المستقبل.

كنت كل مساء أصعد إلى شقة الدكتور فؤاد، أطرق الباب، وعندما أسأل عن عمي فؤاد؛ إذا بهداية أو حسين يستقبلني ضاحكًا مقلدًا إياي في لهجة تمثيلية:

هل انتهى عمي فؤاد من قراءة جريدة الأخبار بعد؟

ثم يُردف:

إنه سؤالك المساء وكل مساء يا منتهى!

ويجذبني من يدي إلى الداخل.

وبرغم أن شقتهم لا تزيد عن ثلاث غرف، إلا أنها كانت سكنًا وعيادة في آن واحد، تم تعليق لافتة كبيرة على شرفتها من الخارج، مكتوب عليها (دكتور فؤاد حسيب أخصائي باطنة وأطفال).

كان الدكتور فؤاد يذهب في الصباح إلى عمله كطبيب في مستشفى حكومي، ثم يفتح باب شقته من السادسة للتاسعة مساءً لاستقبال مرضاه، فلم يكن يملك من المال ما يكفي لشراء أو استئجار شقة أخرى كعيادة.

وبعد أن يجذبني أحدهما ـ هداية أو حسين ـ إلى الداخل؛ غالبًا ما كان عمي فؤاد يأتي، تُزيّن وجهه الأسمر الطيب ابتسامة أحبها، تظهر واضحة رغمًا عن الشارب الكثّ الذي يُخفي شفتيه، والسماعة الطبية التي تحيط برقبته، فأفهم على الفور أنه ما زال لديه مريض بالداخل.

ـ تعالي يا مُنتهى.. هل انتهيتِ من دروسك؟

ـ نعم انتهيت منها.

ـ الجريدة في انتظارك، والأستاذ يسأل عنكِ.

يمازحني مشيرًا بكلماته إلى الأستاذ مصطفى أمين، ثم يُردف قائلًا:

هناك مريض لم أنتهِ منه بعد، اقرأي فكرة اليوم حتى أعود إليكِ لنتناقش فيها. فأجلس على أقرب مقعد بعد أن أتسلم منه الجريدة التي تعانقها أصابعي، بينما تلثم عيني عمود «فكرة». لكم كانت كلماته بسيطة عميقة، وكأن قلمه غُمِس في دواة من سحر عجيب، سحر مُعدّ خصيصًا ليخطف لُبّ وقلب كل من يقرأ له.

ثم يأتيني صوت الست آمال مناديًا:

منتهى.. تعالي!

فأذهب نحو الصوت القادم من المطبخ، وتسألني:

هل تناولتِ العشاء؟

ـ نعم الحمد للـه.

لكنني في الحقيقة كنت لا أتناول العشاء أبدًا.

ـ إذن سأُعدّ لكِ كوبًا من الشاي باللبن وبعض البسكويت.

لقد ظللت بعد وفاة جدتي لا أشرب الشاي باللبن إلا من يد هذه السيدة.

كان وقت المساء الذي أقضيه في منزل الدكتور فؤاد بعد وفاة جدتي، يعني لي مساحة خاصة من الدفء لا أجدها في مكان آخر سواه، لكنه لم يلغِ أبدًا تلك المساحات من الغربة التي أراني أرتع فيها وأراها تحيط بي من كل مكان».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبل رحيل زهيرة بشهور قليلة قدمت زينب شقيقة فؤاد من قرية شديدة الصغر، تابعة لمحافظة كفر الشيخ، لتُقيم مع شقيقها بعد موت والدتهما. كانت زينب شابة في أواخر العشرينيات، لم تتزوج بعد، رغم تطابق مواصفات الجمال مع مواصفتها، فهي بيضاء متناسقة الملامح، واسعة العينين، ممتلئة القوام، ذات شعر ناعم، تتدلى خصلاته من تحت إيشارب تضعه دومًا فوق رأسها كنوع من الاحتشام.

سمعت منتهى ذات مرة حديثًا يدور بين جدتها وآمال عن زينب، قالت فيه آمال:

طيبتها الشديدة قد تعطي الآخرين فكرة خاطئة عنها، قد يظنونها ساذجة، لكنها ليست كذلك، كما أنها حاصلة على شهادة الإعدادية، إنها فقط على فطرتها، شديدة الحياء، وينقصها الاحتكاك بالحياة والناس، عاشت حياة

منغلقة، كانت أمها تخشى عليها من أي شيء وكل شيء، كانت تبكي في مرضها الأخير خوفًا عليها من بعدها، لقد كان حلمها بأن تراها عروسًا في منزل الزوجية مع رجل يقدّر قيمتها.

ـ اللـه كريم يا آمال، سيرزقها من سعته في الوقت المعلوم عنده.

في غضون شهور قليلة تلت خلو الحياة من زهيرة، ودون أن يمنح منصور نفسه فرصة للتفكير أو للتردد، تزوج من زينب. لم يكن يحبها، أو بالأحرى لم يعد لديه قلب يستطيع أن يستخدمه لهذا الغرض، لكنه رآها الوحيدة التي تناسبه، فلا طلبات لها، لا طموح ولا أحلام، ولا تدري عن الحياة خارج المنزل شيئًا. سذاجتها أسكنت في نفسه طمأنينة بدلًا من القلق الذي اشتعل في صدره بقوة عقب غدر منتهاه ورحيلها بعد طعنة غادرة لم يزل جرحها غائرًا، رغم مرور ثلاثة عشر عامًا.

كان يلمح في عيني زينب انبهارًا به، بينما همست له أمه قبل موتها أن آمال لم تُخفِ عنها رغبتها في تزويج زينب له، خاصة بعد أن جعل من محل الجمالية مطبعة تُدرّ دخلًا يكفي ضروريات الحياة، كما أنه بدا في السنوات الأخيرة أكثر التزامًا من الفترة التي تلت اختفاء منتهى، عندما كان يترنح في الحياة كممسوس يفعل كل شيء بلا وعي ولا هدف.

تزوج زينب لأن البيت بعد خلوه من زهيرة صرخ احتياجًا إلى سيدة تقوم بشئونه، وتُدير مسئولياته، تلك التي كانت تتقاسمها يُسر ومنتهى.. لكن، وبرغم محاولاتاهما المستميتة، ظلّ البيت يفتقد إلى بيت.

وبعد عام من زواجه من زينب رُزِق منصور منها بتوأم، (دينا ودنيا)..

هكذا أسماهما دون أن يستشير أحدًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«عمتي يُسر خمرية اللون، تحمل الكثير من ملامح جدتي، متوسطة الطول، شعرها الأسود الفاحم معقوص دوما إلى الخلف في شكل ذيل حصان، ذات قوام يميل إلى النحافة، صغيرة قسمات الوجه، خفيضة الصوت، هادئة، خجول، قليلة الصداقات، عميقة العلاقات، تحتفظ بصديقات طفولتها، وتبقى هداية هي صديقتها الأقرب، تهتم كثيرًا لحالي أنا ومحمود.

حينما كنتُ طفلة صغيرة؛ كثيرًا ما تصورتها وجدتي واقفتان على حافة نهر تنهلان منه، لا ينهل منه سواهما، نهر يجري هناك في مكان بعيد، في عالم لا يشبه عالمنا، وفي أرض غير أرضنا التي نعيش عليها، ربما يجري في عالم أكثر سموًا من عالم به أمهات يلقين بأطفالهن.. النهر اسمه نهر الحنان.

كانت يُسر تفعل كل شيء في صمت شديد، حتى حينما تُحضر لنا قطع الحلوى الصغيرة، تدخل إلى المنزل في ردائها البسيط، تُغلق الباب بهدوء، لا تنادينا بل تبحث عنا، ثم تفتح حقيبة يدها وعلى وجهها ابتسامة صغيرة، تمدّ إلينا يدها بقطع الحلوى، فنخطفها ونجري في سعادة، كانت تفعل هذا كثيرًا، دون أن تنطق بكلمات تُذكر.

وقت الغروب كانت يُسر تصحبني إلى أكثر مكان أسعدني الذهاب إليه في طفولتي، تأخذني إلى نهاية الشارع الذي نسكنه، حيث يوجد بائع يفترش أرضية الرصيف بكتب قديمة، فتقوم بإعطائه ما لدينا من قصص ومجلات قديمة، ثم نختار كتبًا ومجلات بعددٍ مساوٍ لما نعطيه إياه، دون أن نزيد، وتدفع له يسر قروشًا قليلة قبل أن نحتضن ما أخذنا ونرحل.

ذات يوم وجدتُني أُقلّب نظري بعجب بينها وبين البائع الذي لم يكن يشبه الباعة، فقد كان يرتدي دومًا قميصًا وبنطالًا لا يخفيان نحافته، رغم كونهما فضفضان، ويضع فوق عينيه نظارة طبية سميكة، وحينما يتحدث يخرج كلامه وعرًا، وكان يجلس أمام كتبه المصفوفة أرضًا فوق كرسي خشبي متهالك واضعًا ساقًا فوق ساق، كان السؤال يُلحّ على طفولتي ويرفض إلا أن ألقمه إجابة يرضاها، ولم أستطع أن أتمالك نفسي فسألتها بشيء من الغيظ:

لماذا تعطينه نقودًا يا يُسر؟ كتبه ومجلاته قديمة، أنتِ أعطيتِ له ثلاث قصص وأربع مجلات قديمة، واخترتِ مقابلهم ثلاث قصص وأربع مجلات قديمة أيضًا، فلماذا تدفعين له؟!

قالت باتسامة ترنو فوق صوتها الخفيض:

ـ الأستاذ سيد مكسبه من تلك المبادلة يا منتهى، عمله في فرشة الكتب هذه يتلخص في شيئين، إما بيع الكتب والقصص والمجلات القديمة بثمن بسيط، أو مبادلتها، وعند مبادلتها ندفع له أيضًا، مقابل المبادلة أقل بكثير من الشراء.

الأستاااااذ!!

قلتها وأنا أقلب شفتي السفلى تعجبًا، وربما اعتراضًا.

ـ نعم، هذا الرجل يعمل في الصباح موظفًا بالهيئة العامة للكتاب، فرشة الكتب ليست فقط لأن مرتبه لا يكفيه، ولكن لأنه مؤمن بأن البسطاء الذين لا يملكون من المال إلا القليل من حقهم أن يحصلوا على متعة المعرفة إن كانوا فيها راغبين، هو من قال لي ذلك من قبل، إنه رجل صاحب رسالة يا منتهى.

في أحد الأيام، وبعد سنوات طويلة من ترددنا عليه، طلب منا الأستاذ سيد ما تعجبنا له أنا ويُسر كثيرًا.. لقد طلب منا أن نحضر له صورة مقاس(٤×٦)

لكلينا، حاولنا أن نفهم أكثر، لكنه قال بكلمات مقتضبة كعادته:

أُعدّ لكما مفاجأة كبيرة، نعم ستؤثر على زياراتكما لي ومبادلاتكما لكتبي، لكن لا يهم، فأنتما تستحقان.

قال كل هذا دون أن يبتسم، لقد كان جادًا أكثر من اللازم.

مرت خمسة أيام بعد أن منحناه ما طلب، فأهدانا هدية لن أنساها، أهدانا كارنيهن عضوية لمكتبة دار الكتب العامة، تلك المكتبة العظيمة التي أصبح من حقنا الذهاب إليها لنختار ما نرغب في قراءته، أو نستعيره.

الأمر بدا ليُسر جميلًا..

وبدا بالنسبة لي جللًا..

بالتأكيد أنت تعلم يا نديم حجم الراحة التي يستشعرها القارئ، مهما صغر سنه أو كبر، حينما تحيطه الكتب من كل مكان، حينما ينظر فوقه فيجد رفوفها تعلوه، وينظر إلى جواره فيجدها تحيط به. حينما يمدّ يده فيجد في متناوله أن يُمسك أي كتاب يرغبه، فيشعر فجأة أنه سقط في عالم أحلامه، يالها من متعة لا تُعادلها سواها!!

لقد ظلت عضويتي في تلك المكتبة العامة، والتي ظلّ الأستاذ سيد يجدّدها لي لسنوات طويلة دون أن أدفع له أية رسوم؛ أحد الأمور الفارقة في حياتي.

أتدري في البداية ماذا كانت اهتماماتي في القراءة؟ كنت أعشق قصص المكتبة الخضراء، تلك القصص الخيالية الحالمة، أتذكّر جيدًا حينما كنت طالبة بالصف السادس الابتدائي، طلبت منا مدرسة اللغة العربية كتابة موضوع تعبير نتفق ونختلف فيه مع بطل أسطوري، كتبت يومها عن سندريلا، كتبت أني أحببتها كثيرًا، أحببت صورتها، رقتها، بساطة ملابسها، أحببت ساحرتها الطيبة، وأميرها العاشق، لكنني ظللت أرى ظروفها أفضل كثيرًا من غيرها، فأن تُعاني فتاة من موت أمها ومن قسوة زوجة أبيها أمر سيء فعلًا، لكن هناك من يعانين الأسوأ، فيكفيها أنها عاشت ولو قليلًا بين أحضان أمها التي اختارها اللـه عنده، والتي لم تتخلَ عنها بمحض إرادتها!

لقد كنت أعشق الألغاز ومغامرات المغامرين الخمس، بعدما كبرت قليلًا صرت أهيم بروحي كل يوم من حياة إلى حياة، فأنبهر بنعومة بطلات إحسان عبد القدوس، ويسحرني رشاقة أسلوبه، وأغوص مع قلم يوسف السباعي الراقي الرصين، ولا أتلكأ في دخول كل حارة وبيت في مصر مع نجيب محفوظ، وتنبهر أنفاسي مع روايات ديستوفيسكي وتشيكوف، ثم أعود لأرض الواقع مع قراءتي لعمود فكرة يوميًا بقلم الأستاذ.

في كل مرة كنا نذهب إلى المكتبة، وقبل أن نستقل أتوبيس النقل العام من محطته التي لا تبعد عن منزلنا كثيرًا؛ كنت أبذل الجهد في محاولات إقناع محمود ليأتي معنا، لكنه كان يُفضّل اللعب مع أبناء الجيران في الشارع، حتى عندما كبر كان يقضي وقته معهم في فعل اللاشيء، دون أن يُخفي تعجبه وأحيانًا سخريته من استمتاعي بمثل هذا الأمر ومساندة يُسر لي.

حينما تخرجت يُسر رفضت تعيين الجامعة لها، كان ترتيبها الثالث على دفعتها بكلية التجارة جامعة القاهرة شعبة المحاسبة. سألتها يومًا بعدما صرت أكبر سنًا، كيف فعلتِ ذلك يا يُسر؟ كيف رفضتِ وظيفة معيدة بالجامعة؟ أجابتني وأنا أسمع صوت جدتي بين منحنيات صوتها:

لعدة أسباب يا منتهى، فأنا أدرك جيدًا عيوب شخصيتي.

أزعجتني كلماتها، فقلت في غيظ:

عيوب؟ أية عيوب؟!

ابتسمت قائلة:

أنا لا أملك ملكة مواجهة الناس، عملي كمحاضر سيتطلب مني أن أقف أمام أعداد من الطلبة لأشرح لهم، وأنا لا أمتلك تلك الجرأة، كما أنني خفيضة الصوت. هذه المهنة قد تليق بكِ أنتِ يا منتهى، تملكين صوتًا رخيمًا، وتحبين طرح الآراء، ولديك القدرة على المناقشة.

ـ أهذه كل أسبابك لترك تلك الوظيفة؟

ـ أن أقبل تحمل مسئوليات لا أقدر عليها فذلك هو الفشل بعينه، وهذا ما لا أتمناه لنفسي أبدًا، كما أن مرتب المعيد بالجامعة ضئيل جدًا يا منتهى، وأنا بحاجة إلى مرتب جيد.

لم أُعقّب، لكن شعرت فجأة أن يسر أقوى بكثير مما تبدو عليه!

ربما لم أكن أدري وقتها أن يُسر تمنحني الكثير، لكن كنت موقنة دومًا أنني لا أستطيع تصوّر حياتي دونها، وأعلم أنه لا يجوز لي أن أقول إن يُسر لا تستحق أبدًا ما حدث لها بعد ذلك بسنوت!

ألم أسمع جدتي زهيرة وهي تُردّد أن الانسان مهما بلغت أوجاعه يجب أن يبتلعها ويصبر، وأن كل شيء يحدث بأمر اللـه، ولحكمة بعينها، وإن قصرت عقولنا عن فهمها؟ إذن لا يجوز أن أقول ما تصرخ به نفسي بين الفينة والأخرى، لا أريد أن أستبق الأحداث.

دعني أُحدّثك عما ظننته مستحيلًا..

حدث هذا في يوم ظننته عاديًا، لكنه أبدًا لم يكن كذلك..

ففي صباح يوم كنت أبلغ من العمر حوالي خمسة عشر عامًا، استيقظت لأصنع لنفسي ولمحمود شطائر الجبن الأبيض قبل أن ينطلق كلانا إلى مدرسته، كانت يُسر أيضًا تستعد لمغادرة المنزل إلى عملها بمكتب المراجعة القانونية ذائع الصيت الذي تعمل به، إلا أنها نادتتني حينما هممت بالخروج:

منتهى.. هل سينتهي يومك الدراسي في الثانية والنصف بعد الظهر؟

ـ نعم يا يسر، لماذ تسألين؟

ـ أتوقع أن أكون قريبة من مدرستك اليوم، ربما مررت عليكِ لنعود معًا.

ـ اتفقنا.

قلتها وانصرفت في عجالة لألحق بمحمود الذي سبقني، فلقد خشيت أن ينسى شطائره، رغم شعوري بأن يُسر كانت تريد أن تضيف شيئًا لكنها مترددة.

أثناء خروجي من مدرستي الحكومية، وبعد أن وصلت للبوابة الحديدية بقوة تدافع الفتيات وقت المغادرة، درت بعيني باحثة عن يُسر، فلم أعثر عليها، وعندما لمحتها أخيرًا، وهممت بالتوجه نحوها؛ استوقفني شيء غريب للحظات. لقد رأيتها داخل سيارة مرسيدس سوداء، تتحدث إلى شخص لا تلتقطه عيناي، يجلس بجوارها خلف السائق. يُسر تُشير إليّ، هل يبدو هذا عاديًا؟! لكن لا أدري، بمجرد ظهور هذا الشخص الذي يجلس إلي جوارها، وبمجرد مغادرته السيارة والتفاته نحوي؛ شعرت ببرودة تُخدّر أطرافي.

عرفتها.. عرفتها رغم أنني لم أرَ صورة لها أبدًا، فأبي كان قد أصدر قرارًا يسبق إدراكي بإعدام كل صورها، ورغم هذا عرفتها، بمجرد أن لامست عيناي ملامحها، وقبل أن تلتقي عينانا، فها هو الحلم الذي ظلّ يداعبني منذ وعيت على هذه الحياة قد صار حقيقة متجسدة أمامي. لم أستطع التقدّم نحوهما، تسمرتُ في مكاني، وبينما بقيتْ يسر هناك، تقدّمت هي نحوي، ها هي من سمعتُ عنها، وتمنيتُ لو خبّأتُ صورها في خزانتي المهترئة وسط طيات ملابسي، كما يفعل من غاب عنهم المحبّون، ها هي متجلية أمامي، امرأة طويلة القامة، ناعمة الملامح، كل شيء فيها يفوح بالثراء، بداية من عطرهاالأنثوي الفوّاح، الذي اخترق أنفي بمجرد اقترابها مني فلم يغادره إلي اليوم، مرورًا بفخامة ملابسها وأناقة حذائها اللامع ذي العكب العالي، وتلك السيارة الفارهة التي ترجلت منها.

تصفّحت وجهي بعينيها الجميلتين، وصافحتني بأنامل من حرير، قبل أن تضمني إلى صدرها بينما تقول بتأثّر:

لكم كنت أتوق شوقًا لرؤيتك! إنها الظروف التي حرمتني منكِ يامنتهى!

قالتها دون أن يبدو عليها ذلك الخجل الذي يجب أن يكون في مثل تلك الحالة، والمفاجأة أنني قد لمحت دموعًا تُطلّ بجرأة من عينيها.

ظللت محدّقة في قسمات وجهها الحريري، ربما رغبت عيناي في البوح بما عجز عنه لساني، أي شوق هذا الذي تتحدّث عنه؟! أية ظروف لعينة تلك التي تحاول أن تخفي جريمتها خلفها!! أي مبرر هذا الذي يجعلها لا ترى ابنيها لمدة خمسة عشر عامًا هي كل عمرنا!!

لا تصدّق الأفلام يا نديم، كاذبة هي! ففيها قد يصورّون مشهدًا مثل مشهدنا هذا بأنني قد ألقيت بنفسي بين ذراعيها، وقلت لها إنني أودّ لو أرتوي من حنانها بعد طول ظمأ و... و...

لم يحدث يا نديم، لم أحتضنها، ولم أفرح للقياها، وأيضًا لم أحزن، لكن ما أنا واثقة منه أنه كان بداخلي غضب جمّ يغلي كما البركان.

حاولت أن أبتسم، لكن يبدو أن شفتيّ تجمدتا كسائر أطرافي، كنت ما أزال بين ذراعيها حينما طاوعني صوتي وخرج فقلت:

أين كنتِ؟

تجاوزت سؤالي قائلة:

أرغب في رؤية محمود يا منتهى.

ـ لماذا ألقيتِ بنا؟

ـ سنتحدث يا حبيبتي.

ـ ماذا أجرمنا أنا وأخي؟ كنا أصغر من أن نكون مجرمين!

أكاد أكون موقنة من أن صوتي قد خرج لا يشبه صوتي، بينما أخذت تمسح زخّات دمعها بمنديل بدا ناعمًا بين أصابعها.

أخيرًا اقتربت يُسر، خطفتُ نفسي من بين ذراعيها، وأرخيتُ رأسي هربًا، فوقعت عيناي على حذائي المهترئ، كيف لم تبدُ لي يومًا سوء حالته كما بدت لي في هذه اللحظة، بينما يقابل حذاءً لامعًا شامخًا أنيقًا؟ شعرت بحذائي كما لو كان يريد أن ينفلت من قدمي ويفر هاربًا، يريد أن يتوارى بعيدًا خجلًا، انتبهت على صوت يُسر وهي تربّت على كتفي قائلة:

منتهى، أنا أخبرت منصور حينما حادثتني والدتك منذ أيام بأنني سأرتب للقاء بينكما كما طلبت، أمك تريد أن تصحبك لتكونا سويًا.

(أمك)!! أبعد خمسة عشر عامًا صار لي أم يحدّثونني عنها ويتحدثون إليها أمامي!!

ركبنا السيارة الفارهة، حيث اصطحبنا السائق إلى مصر الجديدة، لا، ليس إلى منزلها، لكن إلى نادي هيلوبوليس. حينما جلسنا في الكافيتريا طلبت لنا طعام الغداء، ألحّت عليّ أن أتناول ما يحلو لي من الأطباق الموضوعة أمامي.

ـ لست جائعة.

قلتها بصوت شارد.

ـ كيف؟! هذا بالتأكيد موعد تناولك للطعام عقب عودتك مرهقة من مدرستك.

ـ ربما أجوع بعد قليل.

لم أبح لها بما في نفسي، لم أقل لها إنني لم أعتد تناول الطعام مع الغرباء، ثم عن أي عاداتي تتحدث؟ على أي أساس يعمل عقلها على تصوّر أمور تخصّني؟ ربما فوجئت بصمتي، تُراها هل توقّعت فرحة عارمة تجتاحني حين لقياها بعد طول فقد؟ ربما دفعها كل من الصمت الذي خيّم، والظن الذي خاب، لبدء حديث طال وقته وإن تأخر عمره.

تحدثت يومها كثيرًا، تحدثت بلا توقف، كان صوتها هادئًا ناعمًا يخفت حينًا ويخبو حينًا آخر، وتلمع عيناها ببريق عجيب، بالتأكيد كانت امرأة لا تشبه النساء اللاتي رأيتهن في عالمي البسيط شديد التواضع، لم تكن تشبه واحدة من جاراتي ولا واحدة من أمهات زميلاتي، ربما كانت أشبه بنجمات السينما، بل تفوقهن جمالًا وأناقة.

كيف تزوج أبي بعدها من عنايات؟! وكيف اختار زينب؟! هكذا سألت نفسي يومها، لكنني لم أصل إلى إجابة إلا بعد ذلك بسنوات طويلة، أما يومها فقد كنت أصغر من أن يُلهمني عقلي الإجابة.

أرادت تبرير غياب عمر بأكمله، فحاولت أن تنتقي كلمات ظنتها مختارة:

كل ما حدث كان رغمًا عني، نعم أخطأت لكن خطأي تمثّل في أن أحببت، بينما كنت صغيرة حمقاء لا أعلم عن الحياة شيئًا. كان اهتمام أبي مُنصبًا على عمله وعلى جمع المال، بينما أمي منغمسة في حياتها الاجتماعية البراقة، كنت واحدة من أربعة أبناء لم أكن كبراهم فأكون محط الاهتمام، ولا صغراهم فأحظى بكوني المدللة التي لا تكبر أبدًا، ربما هذه الأسباب جعلتني أستسلم لكمّ الحب والحنان والاهتمام الذي أغرقني به منصور، لن أقول إن منصور كذب عليّ، لكن أستطع القول إن كل حساباته قد خانته، لقد تصوّر أن الحياة ستكون أسهل، كان مندفعًا وكنت صغيرة متهورة، ففوجئت أنني بعد الزواج

فقدت كل شيء، فقدت أسرتي ورغد حياتي في ظلها، فقدت مستقبلي ودراستي التي ألححت على والدي لقبولها، حتى الشاب الذي أحببته وفعلت كل ذلك لأجله فقدته، فقد تحوّل بعد الزواج إلى شخص مخيف شديد القسوة والعصبية، ضربني مرتين، تضاربت مشاعري بعدها نحوه بين الرغبة في البقاء معه والهرب منه، كما أنني كنت أشعر بغربة شديدة في بيت زهيرة رحمها اللـه، رغم كل محاولاتها لأن تشعرني بأنني إحدى بناتها، لكنني أبدًا لم أحسّ ذلك يومًا، كنت أشعر أنني زهرة تم اقتلاعها من جذورها ثم وُضعت في مزهرية بلاستيكية بها القليل من الماء، فقد تحيا يومًا أو بضعة أيام، وقد يتصور من يملكها أنه إذ يرويها فستحيا طويلًا، لكنه لا يلحظ أنها تذبل كل يوم أكثر من سابقه، وأنه لم يعد يفصلها عن الموت سوى القليل.

كنت أستمع إليها دون أن أُبدي تعبيرًا يُذكر، تعمدت أن أفعل ذلك.

ـ حينما أتت شقيقتي منى لزيارتي كنت على شفا الانهيار، كنت لا أعرفني، فبيدي رضيعة أحملها على يدي، وآخر ما زال ببطني، كنت أتحمل ما يشقّ عليّ حمله، كنت موقنة أنني لا أمتلك القوة على مواصلة الحياة بدون أمي وأشقائي وأسرتي، قالت لي منى حينما زارتني إنني أصبحت زوجة سائق، وأنني صرت في وضع ومقام زوجة عم إمام سائقنا، وأخبرتني في زيارتها الثانية لي إنهم استطاعوا إقناع أبي أن يغفر لي فعلتي الشنعاء إن عدت إلى منزله وحيدة هاربة من كل شيء كما غادرت، بشرط أن أعود مطلقة، وحينها سيفصل والدي في أمري.

رفض أبي مجرد طرح فكرة عودتي لمنصور، وصارحتني أمي وساندتها شقيقتي بأن مجرد تفكيري في ضمكما إليّ هو أمر مستحيل، فكيف سيواجهون الأسرة والمجتمع بكما، فبظهوركما سيُفتضح أمري، بل وأمر الأسرة كلها، وقالت أمي إنكما ستكونان بأمان مع جدتكما الحانية وعمتيكما، بكيتُ طويلًا صعوبة حياتي بدونكما أنتِ ومحمود، بل وبكيت حبي لمنصور.

وبعد أيام قليلة كنت جالسة وحيدة على متن إحدى الطائرات المتجهة إلى إيطاليا، لألحق بشقيقي الذي يدرس هناك، كان هذا قرار والدي غير القابل للنقاش، فقد قرر أن أرحل وأبتعد وأكون مع شقيقي لتتم إعادة تأهيلي، فقد أستعيد نفسي التي فقدتها في لحظة جنون وتهور.

وفي غضون شهور قليلة التقيت هناك شهاب، كان صديقًا لزوج منى، ويأتينا من مصر بأشياء مرسلة لنا من أبي.

كان مخرجًا شابًا، وبالطبع كنت أعرف أبيه وعمه كمخرجين مصريين شهيرين، صارحني بإعجابه بي بعد وقت قليل من تعارفنا، وطلب التقدّم لوالدي، لكن قبل أن أدعه يفعل أطلعته على كل شيء، صارحته بأن أسرتي

ترفض أن أطلع أي شخص في الوجود على ذلك الماضي الذي يحاصرني ولا أستطيع أن أنكره.

كان ردّ فعله عجيبًا، قال لي إنه مصمم على الزواج بي، وأن لحظة ميلادي بالنسبة له هي تلك اللحظة التي التقاني فيها، وما سبقها أمر لا يخصه.

رجوته ألا يخبر أسرته بأنني كنت زوجة وأم، وخاصة وأنه لم يسبق له الزواج من قبل.

تزوجنا، وأنجبنا سامي وسارة اللذين لا يعرفان أيضًا أي شيء عن حياتي السابقة، في البداية كنت أتفقد أحوالكما من خلال شقيقتي منى، التي كانت ترسل سائقها ليفعل، ثم صرت أعرف أخباركما من سوسن بعد أن التقيتها في أوروبا، وعرفت أن منصور حينما علم بزواجي هاج وماج وتزوج من زوجته الأولى، ثم طلقها بعد قليل حسبما علمت. لم يكن منصور ليسمح لي بأن أقترب منكما، أو منه، لم يكن ليغفر لي رحيلي وزواجي، ولا أظنه سيصدّقني إن أخبرته أنني لم يكن أمامي خيارات ولا بدائل.

ربما سمح لي اليوم بالاقتراب منكِ لأن السنوات الطويلة مرت ولابد للجراح وأن تكون قد اندملت. لقد عدت إلى مصر نهائيًا منذ عدة أيام، حيث وقّع زوجي عدة عقود لإخراج أفلام سينمائية.

تمنيت بحق أن أصطحبك إلى منزلي، لكن سأمهّد أولًا لسامي وسارة، يبدو الأمر معقدًا، لكن ستُحلّ كل الأمور مع الوقت يا صغيرتي، يا ليتكِ تُقدّرين ما مررت به في حياتي يا منتهى.

كنت ما أزال أرى زخّات دموعها تطفر كحلًا يحيط بعينيها العسليتين، وكان هذا ما حاولت أمي المدللة شرحه لي، حاولت أن تجعلني في لقائي الأول بها أُقدّر صنيعها نحو صغيرين تركتهما تحت وطأة أب يترنح ثملًا بين جدران هزيمة سحقته، بسبب تلك الفتاة التي أربكته، وهربت لأجله من بين أحضان أسرتها العريقة، وتزوجا وأنجبت منه ما اعتبرتهما خطيئتين! تريدني أن أتفهّم أنه حينما خمدت نيران العشق، تحت وطأة الفقر وضيق ذات اليد، لم تكن لتصبر هذه الناعمة على تلك الحياة الخشنة، فهربت من زوجها، وحصلت على الطلاق، وبدأت ترفل في حياة تشبهها مع زوج جديد، بل ورُزقت بطلفين بديلين عمن ذهبا من قبل.

يجب أن أتفهّم أنا ابنة الخمسة عشر عامًا هذا، بل وأبدو متأثّرة؟!

لم أتعاطف معها يومها ولو للحظة! بالعكس، كنت حانقة عليها، فلقد تأكدت يومها بأنها باعتني وأخي بثمن بخس، أو بالأحرى بلا ثمن، ولم تقنعني كل أعذارها، ولم تستدرّ دمعاتها الشفقة من بين ثنايا روحي.

لم أحسّها!

طلبتْ رؤية محمود في أقرب وقت، قلت لها إننا لدينا حفل زفاف في الغد، كان حفل زفاف هداية جارتنا، وأنني سأُمهّد له لنلتقيها بعد أيام.

نزلتُ يومها من سيارتها المرسيدس الفارهة أمام منزلنا القديم المتواضع، وفي يدي بضع هدايا حاولت رفضها كثيرًا لكنها أصرت أن آخذها، نزلتُ ولسان حالي يقول يا ليتني لم ألقكِ، يا ليتني لم أعرف مبرراتك وأسبابك! ليتكِ ظللتِ في غياهب المجهول!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

عندما دلفت منتهى إلى المنزل بعد الغروب ذلك اليوم، وجدت منصور جالسا في الردهة على غير عادته. تعجبت من رجوعه المبكر، لم تكن تعلم أنه ينتظرها ليستقبل فيها منتهى التميمي بعد طول غياب.

ألقت تحية المساء بصوت تائه مطأطئة الرأس، وهي تحتضن حقيبة مدرستها متوجهه إلى غرفتها. قطع سؤاله صمتها:

التقيتيها؟

كالمغيّبة هزت رأسها الصغير إيجابًا. لم تعتد أن تحادثه، ولم تألف أبدًا حواره.

ـ هل تذكرتكما أخيرًا؟!

اختنقت الصغيرة بالدموع، لم تعد تحتمل المزيد من الضغط، كانت تشعر بنفسها كبالون منتفخ عن آخره، بداخله خليط من المشاعر والغيظ والكلمات والصرخات والآلام، بالون على وشك الانفجار، وكلماته قد تكون هذا الدبوس اللعين الذي سيفجّره. كان يريد أن يتلمس بين كلماتها عطر منتهى الذي لم يغادر أنفه حتى بعد خمسة عشرة عامًا من الفراق، لم يغادره برغم زواجه من امرأة تليها الأخرى، وبرغم علاقاته التي تعدّدت بالنساء في المرحلة التي أعقبت رحيلها، تحسس بأنفه أجسادهن جميعًا باحثًا عن عطر كعطرها، عن عبقها، فلم يجده أبدًا. وحده عطرها كان قادرًا على أن يدغدغ رجولته، أن يرديه قتيلًا ثم ينفث فيه الحياة من جديد، وحده كان قادرًا على أن يسلبه مقاومته فيظلّ على أثره مستسلمًا في استمتاع.

كان يريد أن يرى صورة ابنة التميمي المحفورة داخله في كلمات ابنتها القادمة لتوّها من مقابلتها، هل ما زالت تحمل كل القوة في منتهى ضعفها؟ هل ما زالت جميلة؟ هل ما زالت الأنثى الوحيدة في العالم كله؟ كان موقنًا من أن اللـه بعد أن خلق حواء الجميلة لآدم، خلق منتهى له، ثم لم تكن هناك إناث بحق بينهما، ولن تكون من إناث بعدهما، لقد كانت حواء البداية وكانت المنتهى.

هل سألت عنه؟ هل تفقّدت أخباره؟ هل ما زالت تذكره؟ هل ظهرت بعد كل هذه السنين التي تعدّت المائة في تقويمه لتعلن ندمها عن كل شيء؟ هل عادت لتعترف بأنها تأكّدت أنه لم يُخلق رجل ليعشقها سواه، هل صارحت يُسر ومنتهى أنها تريد العودة إليه؟ هذه المجنونة هل تظن أنه سيعود إليها بتلك السهولة! ماذا سيقول للدكتور فؤاد؟! كيف سيعتذر لزينب التي صارت أمًا لطفلتيه؟! لكن زينب امرأة ساذجة سترضى بأي وضع يختاره لها، لا يهمها سوى أن تظل إلى جواره، هل... وهل...

لم تعطه الصغيرة فرصة لأن يسأل أو يعرف أو يستريح، فقط اندفعت إلى غرفتها، ثم سمع صرير إغلاق الباب الذي قتل فيه من الأمل أضعفه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان حفل زفاف هداية فؤاد وممدوح حفلًا بسيطًا، أقيم بقاعة مخصصة للأفراح بنادي نقابة المهندسين، بعثرت أمها آمال الزغاريد في أرجاء الحفل، بينما وقف الدكتور فؤاد يستقبل المهنئين منتشيًا سعيدًا، فها هي ابنته المهندسة تتزوج من زميل دراستها المهندس الشاب الذي اختارته بنفسها، راضٍ هو تماما عن اختيارها.

لطالما كانت هداية فتاة متعقلة، حتى حينما رأت من ممدوح محاولة للتقرب منها، لم تُخفِ هذا عن أبيها الذي كان يجمعه بها حوار مفتوح، لقد كان فؤاد حسيب نموذجًا للأب المتفتح المثقف الذي يرى أن أي أمر يمكن تبسيطه ومناقشته مع ابنيه، وأن الحياة كلها عبارة عن حوار لا يُفسده إلا التفسير الخاطئ أو إصرار البعض على عدم استكماله.

كان ممدوح الابن الأصغر بعد ثلاث شقيقات لأب مهندس، وصل لمركز وكيل أول وزارة.

بعد تخرجهما بعام، وبعد أن نجح والد ممدوح في إيجاد وظيفة جيدة لابنه في شركة مقاولات هندسية ناجحة؛ تقدّم ممدوح للزواج من هداية، ومنحه شقة بمنزل العائلة بالدقي.

ارتدت منتهى فستانًا بسيطًا وردي اللون أظهر جمالها، لكنه لم يُخفِ مسحة الشجن التي لازمتها منذ لقائها الأول بأمها، طوال وقت الحفل كانت مسئولة عن شقيقتيها الصغيرتين، ولم تُفلح كافة محاولات جارها الشاب الجامعي الوسيم للفت نظرها أو التحدث إليها، لم تكن المرة الأولى التي يُحاول أن يفعل، ولم تكن المرة الأخيرة التي لا تلتفت منتهى لمحاولات آخرين غيره للتودّد إليها.

في اليوم التالي نادت محمود ثم فتحت خزانتها الخشبية المتهالكة، تلك التي يرجع عمرها إلى عمر والدها، اشتراها جدها طه رحال بعد ميلاد منصور لتضم ملابسه وملابس سوسن، هكذا حكت لها جدتها ذات يوم. بمرور الزمن تقدّم عمر الخزانة، وشاخ خشبها، وصارت تُصدر صريرًا حين فتحها وغلقها، وكأنه أنين عجوز تؤلمها مفاصلها. أخرجت منتهى لفات هدايا لم تُفتح بعد، وضعتها دون كلمة أمام محمود الذي كان يجلس على طرف السرير.

قلَّب محمود نظره بين الهدايا وبين شقيقته التي تقف أمامه، ثم سأل:

هل أرسلها السيد هينز؟

ـ لا.

ـ عمتك سوسن؟

نظرت في عينيه الواسعتين الغائرتين بين عظام وجهه البارزة.

ـ محمود، لقد قابلت منتهى.

نظر إليها ذاهلًا.

ـ لقد عادت يا محمود، التقيتها، وترغب في لقائك.

ـ أنتِ منتهى، عم تتحدثين؟ ماذا دهاكِ!!

ـ أنا الأخرى يا محمود، لقد عادت منتهى الأولى.

ألجمت المفاجأة لسانه، بهت لونه، وتحجرت عيناه في مقلتيهما بينما هما مثبتتان على عيني منتهى.

حكت له ما حدث أمس الأول، كانت ردة فعله صادمة لها، إذ قال بلهفة:

أريد أن ألقاها اليوم، بل الآن، لا أكاد أصدق أنها عادت! هل تعتقدين أنها ستأخذنا لنحيا معها؟! هل تظنين أن حياتنا ستتغير؟ هل تتفقين معي أن...

توقفت الكلمات على شفتيه عنما رأى غلالة من الدموع تترقرق بعينيها، استشعر لوهلة أنه ربما يكون قد تجاوز في التعبير عما يجيش في صدره، نهض واقفًا إلى جوار منتهى فبدا أطول منها كثيرا، ثم قال:

هل أنتِ حزينة لعودتها يا منتهى؟ هل اعتدتِ غيابها؟ ألم تقولي لي بعد وفاة جدتنا إنها أخبرتك أنها حية، وأنها على اتصال بسوسن؟

ـ لا تُهم إجاباتي أو رغباتي يا محمود، فنحن منذ ولدنا نختلف عن الآخرين، لم يحقَ لنا يومًا أن نختار أو نتوقع، فقط علينا أن نرضى ونخضع ولا نتبرم أبدًا، إن كنت تجد في نفسك سعادة يا أخي لظهور أمك فسأكون مجنونة إن أفسدت عليك سعادتك، سأهاتفها لتحدد موعدًا تلتقيها فيه.

ـ ألن تأتِ معي يا منتهى؟

التقت عيناهما، فأردف قائلًا:

لن أذهب بدونك!

ـ وأنا لن أتركك وحدك أبدًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تعددت لقاءات منتهى التميمي بولديها في الفترة التي تلت ظهورها المفاجئ في حياتهما، حسب ما تسمح به ظروفها.

قضى زوجها المخرج العامين الأخيرين في هوليوود، استكمل خلالهما دراسات كان يراها ضرورية في هذا المجال الذي يستهويه، كما أن تاريخ أبيه وعمه جعلاه محطًا للأنظار. لم يبدأ الأمر بمجرد وصوله لأرض المطار ولكن قبل ذلك، فقد تم تسليط الضوء عليه مع متابعة الصحفيين له بشكل مستمر، وحرصهم على نشر أخبار موعد عودته كمخرج مصري واعد وامتداد لأسرة فنية ذات تاريخ، كانت مُنتهى تُفضّل دومًا أن تكون إلى جواره، كما أن حياة السنيما والأضواء كانت تستهويها منذ طفولتها.

لديها مربية ذات خبرة ترعى الفتى والصبية منذ قدوم الأسرة إلى مصر، وكانت هناك أيضًا خادم مقيمة تقوم بأعمال المنزل، ورغم هذا لم يكن لديها المتسع من الوقت للتقي بابنيها الكبيرين إلا مرة كل أسبوع في بداية الأمر، ثم مرة كل أسبوعين، ثم صارت اللقاءات أبعد. ظلت تلتقيهما في نادي هليوبوليس أحيانًا، وفي حديقة المريلاند، تلك التي تسكن في مقابلتها، أحيانًا أخرى.

قالت لهما في إحدى المرات:

شهاب يرغب بشدّة في لقائكما، مُصرّ على أن يكون هذا في منزلنا، يلومني لأنه لم يركما حتى اليوم رغم أنني ألتقيكما منذ عام تقريبا، يرغب في مشاركتنا بعض هذه اللقاءات، أنا أيضًا أرى أنه ليس من المعقول أن نظلّ نلتقي في النادي والحديقة.. لكن...

قالتها وصمتت وكأنها ترقب وقع كلماتها على وجهيهما، لقد اعتادت أن ابنتها الكبرى لا تُبدي أية انفعالات، كانت تراها شحيحة في كلماتها مسيطرة على انفعالاتها، شديدة التحكّم في تعبيرات وجهها، ذلك الوجه الذي يحمل نفس ملامحها، لون بشرتها، استدارة وحلاوة عينيها، كانت تراها تماثلها فقط في الملامح، لكنها أيضًا كانت ترى مسافات كبيرة بينهما تتعمد الصغيرة مدّها، على عكس الصبي الذي كان أكثر تودّدًا إليها، إنه يهشّ لرؤيتها، ولا يجد غضاضة في أن يحكي لها.

ـ هناك ثمة مشكلة بسيطة!

هكذا استكملت الأم حديثها الذي بدأته.

ـ خيرًا؟

سألها محمود بشغف، بينما نظرت إليها منتهى دون أن تنبس بكلمة، ودون أن يلامس وجهها تعبيرًا يُفضي إلى شيء.

ـ سامي وسارة صغيران، لن يفهما قصتي مع أبيكما، لن يتفهما أن يظهر لهما شقيقان فجأة، فهل من الممكن أن نؤجّل شرح مثل هذا الأمر لهما إلى وقت مناسب؟

ـ أنتِ محقة يا أمي، وما الغضاضة في هذا؟!

ما إن نطق بسؤاله حتى حدّجته أخته بنظرة قطعت عليه رغبته في الاسترسال في الحديث، ثم قالت:

لا أكاد أفهم! إذن أين سيكونان عندما نزرو منزليهما؟ هل سيتم إبعداهما حتى ننتهي من زيارتنا؟

قالتها بلهجة تحمل شيئًا من التهكم وكثيرًا من المرارة.

ـ لا بالعكس، أنا أرغب في وجودهما ووجودكما في آنٍ واحد.

أردفت الأم وقد داهمها القلق حيال ردّة فعل منتهى:

لقد هداني تفكيري إلى فكرة بعينها، لقاءات متكررة تجمعكم أنتم الأربعة، تتعارفون، ثم في الوقت المناسب أخبرهما أنكم إخوة.

حدّجتها منتهى بنظرة يصعب تجاوزها، بينما قال محمود وفي صوته رنين نشوة:

أراها فكرة لا بأس بها!

بمجرد عودتهما إلى المنزل، وبضيق بَيّن أغلقت منتهى باب غرفتيهما بعدما ظلت صامتة طوال طريق العودة، ثم قالت بانفعال بادٍ:

متى ستفهم أنك لم تعد صغيرًا؟ متى ستعتاد أن تَعقِل كلماتك قبل أن تنطق بها؟!

بعناد ممتزج بنفاد صبر خرج صوته، الذي صار غليظًا متحشرجًا بفعل تلك السن التي بدأت تأخذه من يده لتساعده في أن يبلغ مبلغ الرجال:

لأنني صرت كبيرًا فلا يحق لكِ مصادرة كلماتي وآرائي، أنتِ من يجب عليكِ فهم ذلك ومراعاته!

قالت متجاوزة ما قاله:

كيف تقبل أن تدخل منزلًا ما بصفة غير صفتك، كيف تسمح لنفسك أن يُقال عنك ابن قريب أو صديق، بينما أنت ابن صاحبة المنزل! لا أريد أن أدخل الحزن على قلبك يا أخي، لكن على مدار العام الذي التقيناها فيه لم أرَ منها الشيء الوحيد الذي كنت أنتظره منها، لم أرَ اعترافًا منها بجريمتها في حقنا،

لم أجد محاولة للتكفير عما فعلته بنا، لم أرَ فرط اهتمام بنا، لم أستشعر صدق رغبتها في تعويضنا عما فات من عمرنا، ذلك الذي انقضى دون أن تشاركنا فيه. هل تظن لقاءاتها المتباعدة بنا، وكلماتها الحانية بصوتها الخافت هذا، كافيان؟! هل هذا تفكير لائق؟ لقد فقدناها كأم بينما كانت حية تُرزق، لم تكن طريحة الفراش في إحدى المستشفيات، ولم تفقد ذاكرتها، لكنها آثرت أن تبقى في عداد المفقودين لأنها ترفل في النعيم. إن كنت ترى ما رأيناه منها منذ عودتها يعدّ ندمًا كافيًا وتوبة صادقة؛ فأنا أبدًا لا أراه هكذا، إن كان هذا ما يكفيك منها فهو أبدًا لا يكفيني، وإن كان هذا ما يُرضيك فهو لا يُرضيني!

قال محمود، بينما هو جالس على الكرسي الخشبي العتيق الموضوع قبالة المكتب القديم:

هل من الأفضل أن تكون لنا أم، أم نكون يتيمين؟ أن تظهر أم تظل غائبة؟ أن تأتي فنجدها سيدة راقية ثرية تُعدّ من صفوة المجتمع، أم سيدة سوقية قبيحة أو رثة الحال؟ كان يجب أن تُعلّمك الكتب التي تعكفين على قراءتها بلا توقف أن لا أحد يختار حياته، وأن الرضا كنز، لذا فأنا راضٍ لأنني لا أملك حق الاعتراض. أنتِ وأنا يا منتهى وُلدنا بلا حقوق، وُلدنا ككائنات غريبة متطفلة، في بيت ليس بيتنا، بيت جدتنا، بيت عمتينا، بيت زوجة أب بشعة، ثم بيت زوجة أبينا الأخرى. إذن ظهورها في حياتي هو الأمل الوحيد في غد أفضل!

همت بمقاطعته فلم يعطها فرصة:

وعدتني أمي بأنها ستساعدني كثيرًا، أنها ستقف إلى جواري، ستوفّر لي كل طلباتي، وعندما أتخرج من الجامعة ستجد لي الوظيفة التي أحلم بها، بل وربما تضمنا إلى الحياة معها ذات يوم، فتتغير حياتنا كلها، ونصبح من سكان مصر الجديدة، ويصبح لدينا نادٍ نقضي فيه أوقاتنا، ويكون لدينا سائق وسيارة، و…

قاطعته بلهجة محذّرة:

لا تُفرط في الأحلام يا محمود، لا…

ردّ بانفعال:

منتهى! سأذهب إلى بيت أمي، سألتقي بإخوتي، سأتعرّف بزوجها، سأتركها تقول عني أنني ابن صديقة لها، أمي هي طوق النجاة الوحيد الذي سأتشبث به دون تردد!

فرت من عينيها دمعة، تزامنت مع هدير صفعة الباب التي دوت عقب مغادرة محمود للغرفة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لماذا يُسر رحال بالتحديد؟

سؤال ظل طارق قنديل يسأله لنفسه لعدة أشهر..

عرفها منذ عام مضى، أتت من قبل مكتب للمحاسبة والمراجعة القانونية لمراجعة حسابات فرع البنك الخاص الذي يعمل به، تأتي للفرع بصفة دورية مع أكثر من زميل لها للقيام بأعمال المراجعة، يراها تعمل بهدوء وتركيز شديدين، خفيضة الصوت، أنيقة رغم بساطتها، يُميّزها شعرها الحريري المعقوص دائمًا للخلف، وشخصيتها الجادة التي لا تسمح لأحد باختراق خصوصيتها، ورغم هذا اخترقته بسكونها العاصف.

يعمل طارق بنفس البنك منذ تخرجه، تنقّل في أكثر من فرع، واستقر به الحال في السنوات الثلاث الأخيرة بفرع المعادي، ناجح في عمله ومتفانٍ فيه، يبلغ من العمر سبعة وثلاثين عامًا ورغم هذا ما زال أعزب، بل وكفّ قلبه عن الخفقان منذ سنوات ليست بالقليلة، المرة الوحيدة التي أقدم فيها على فكرة الارتباط كانت منذ سنوات طويلة، من يومها ومنذ أن حدث ما حدث ألزم نفسه بألا يُعيد التجربة، تفرّغ تمامًا للحصول على عدة شهادات هامة في مجال العمل البنكي، مما ساهم في تحسين مركزه الوظيفي وسرعة ترقيته، بل وتميّزه على زملائه. يسّرت له ظروف أسرته ذلك الأمر، الذي كان مكلفًا ماديًا بشكل كبير، فهو ابن وحيد لأب له مركزه الاجتماعي والمادي المتميز، فهو عضو مجلس شعب سابق، ووالدته لا تكفّ عن التباهي به، بوسامته ومآثره ومحاسنه، فاسم طارق يتردّد في حديثها القصير عشرات المرات، فماذا إذن عن أحاديث لها قد تطول!

حاول طارق أكثر من مرة أن يُطيل الحديث مع يُسر، لكن بمجرد وقوفه إلى جوار مكتبها كانت ترفع وجهها الصغير عن كشف الحسابات الذي تعمل عليه، ثم توجّه نظرها إليه، تنصت باهتمام، وتردّ بكلمة أو كلمتين، يتبعهما أحيانًا همهمة وابتسامة صغيرة، وتُعيد تثبيت نظرها على الكشف مرة أخرى وكأن شيئًا لم يحدث.

كانت تمرّ إلى جواره وكأنها لا تراه، بل كان موقنًا بالفعل من أنها لا تراه، بدأ يشعر بالغيرة من زملائها في مكتب المراجعة، فوحدهم الذين تسترسل معهم في الكلام.

لذا لم يكن هناك بُد من وضع خطة للاقتراب منها، اندهش يومها من نفسه كثيرًا، فهو منذ سنوات لا يتحمس لشيء على الاطلاق، يفعل كل شيء بشكل روتيني يخلو من أي حماسة أو متعة، لكن حتى دهشته تلك لم تثنه عن تنفيذ

خطته، فقد قرر التقرب من أحد زملائها ليجمع عنها المعلومات التي تُيسّر له اختراقها، رغم أنه لم يقرر بعد لماذا يرغب في ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«يوم الزيارة الأولى لبيت أمي كان واحدًا من أيام عمري التي لا تُنسى، لم أكن أريد الذهاب، وبرغم ذلك ذهبت، حبي الشديد لمحمود أرغمني أن أفعل، دفعني خوفي عليه من أن يذهب وحيدًا. أعترف أن شبح خوفي على محمود ظلّ يطاردني طويلًا، تعذبت بذلك الخوف منذ صغري، كنت أخاف عليه تسرعه، اندفاعه، ومؤخرًا صرت أخاف عليه طموحه الجارف الذي تزامن مع ظهور السيدة في حياتنا.

لم يعد السائق الخاص بها يأتي ليوصلنا إليها كما كان يفعل خلال الشهور الأولى، «زادت مسئولياته، كما أنكما صرتما أكبر، واعتدتما الطريق، واستخدام الأتوبيس» هكذا برّرت أمي بصوت حانٍ للغاية!

في شارع نهرو بمصر الجديدة، حيث تسكن أمنا، رفعنا رأسينا عاليًا للتطلع إلى بناية مهيبة ذات واجهات رخامية براقة، تأكدنا من الرقم وقام الحارس بمرافقتنا إلى أعلى.

لم يخفِ محمود سعادته، بينما كان قلبي يخفق اضطرابًا وخجلًا، لكم كنت أتمنى أن تكون لي أم ترافقني في ذلك الموقف، حينما سمعت صوت الجرس الذي دقّ عليه محمود في عجالة ألحّت عليَّ صورة جدتي زهيرة، ياليتها كانت معنا.

فتح الباب رجل أسمر البشرة، يرتدي رداءً خاصًا لمن يخدمون في تلك البيوت الراقية، عندما رأيتني قبالته استشعرت وكأنني دخلت لتوي إلى فيلم سينمائي، فمثل هذا الرجل لم أره إلا في الأفلام.

دلفنا إلى طرقة طويلة مفروشة بسجادة طولية متصلة، تتدلى من السقف أكثر من ثريا براقة، ظهرت أمي بلباس الخروج وبكامل أناقتها،كما اعتدنا أن نراها، شعرها مصفّف كأنها خرجت لتوّها من الصالون المخصص لهذا الغرض.

كان محمود يسبقني بخطوات لم أدري ألأن حماسته تقوده، أم لأن قدميه تفوق قدميّ طولًا، أم لأنني كنت وجلة بشدة. تشبثت قدماي بالأرض حينما وقعت عيناي عليه، بخفة بدا يتحرك نحونا، رأيته أخيرًا، رأيت من احتل مكان أبي في قلب أمي بجدارة جعلتها لا تُعيد التفكير في أبي ولا فينا من جديد.

رجل متميز الطلّة، له ابتسامة عريضة، أطول من أمي ببضعة سنتيمترات، أنيق بغير تكلّف، شعره خفيف دون صلع، فاتح البشرة، مستدير الوجه، حليقه، تقدّم نحوي مرحّبًا وصافحني بحرارة لم أتوقعها.

ـ لكم كنت أتوق لرؤيتك، ظننت أنك تحملين فقط اسمها، لكن ها أنا أرى منتهى في عمر لم أعرفها فيه، يبدو الشبه بينكما خياليًا!

ثم أغرق محمود في حضن كبير.

فاجأني في لقائي الأول به، كان رجلًا مختلفًا، لبقًا بجدارة، حلو الحديث. توقعت أن أجلس أمام زوج أم سمج، تصورته مخرجًا متعجرفًا مغرورًا، ينظر إلى عقارب ساعته عقب دقائق من قدومنا، ثم يستأذن في الانصراف متعللًا بأن بعض النجوم في انتظاره بالبلاتوه لتصوير مشهد سينمائي هام، لكنه كان على النقيض من كل ما توقّعته. في ذلك اليوم، ورغم صغر سني، أيقنت أن الحياة لها عدّة وجوه أخرى تُخالف ما نظنه وتكسر توقعاتنا.

أثاث البيت واتساعه وديكوراته واللوحات الزيتية ذهبية الأطر المعلقة على جدرانه، كل شيء كانت تفوح منه رائحة ثراء وفخامة لا تخطئها أنف، رائحة كتلك التي استنشقتها أنفي في أول لقاء لي بأمي.

خرج إلينا سامي وسارة بعد وقت من قدومنا، صافحانا واكتفت أمي بذكر أسمائنا جميعًا دونما تعريف أو ذكر لصفة. جلسا إلينا في تحفظ بادٍ.

حينما حضر (السفرجي) ليخبرنا في أدب جمّ بأن مائدة الطعام قد صارت جاهزة لأداء الغرض، وضع شهاب كفّ يدي في يمينه وكفّ محمود في يساره مصطحبًا إيانا إلى مقاعدنا، مصرًا أن نجلس إلى جواره، كان يضع بنفسه الطعام لنا في طبقينا، وتعمّد طوال جلستنا حول المائدة أن يذيب الجليد، سألني:

بقي عامان لتدخلي الجامعة، أي تخصص ترغبين؟

ـ أرغب في دراسة الإعلام.

ـ تودين أن تكوني مذيعة؟ أنتِ فاتنة وأعلم أنكِ قارئة ممتازة، هذه أمور ستؤهلك لدراسة الإعلام بجدارة.

ـ لا، أرغب في دراسة الصحافة، وأود أن أعمل بها.

ـ ممتاز! هؤلاء الذين يحدّدون أهدافهم مبكرًا غالبا ما يستطيعون تحقيقها بنجاح، لأنهم يوفّرون على أنفسهم السير في طرق لا يرغبونها، ولا يودّون الاستمرار فيها.

ثم بدأ يحكي لنا عن شغفه بالسنيما منذ طفولته، حكي لنا عن حياة نجوم نقرأ عنهم في الصحف، ونراهم فقط على الشاشات، حكى لنا من واقع علاقته بهم منذ طفولته، فقد كان متواجدًا بصفة دائمة في استوديوهات السنيما بصحبة والده.

بعد أن انتهينا من الطعام أصرّ أن نتناول بعض الحلويات في الشرفة الواسعة.

جمعتنا شرفة مليئة بأصص الورد، واللون الأخضر غالب عليها، فبدت كحديقة صغيرة مُطلّة على حديقة أكبر، فقد كانت تطلّ على حديقة المريلاند البديعة، وبدا المنظر منها خلابًا.

وضع السفرجي العديد من الأصناف، منها ما كنت أعرفه ومنها ما خجلت عن السؤال عنه أو محاولة تذوقّه.

قبل أن ننصرف أصرّ شهاب أن يتولى سائقه توصيلنا الى المنزل، وفي نفس المكان في الطرقة، ذلك الذي توقفت عنده أثناء دخولي مترقبة لقاء هذا الرجل؛ التفتُّ إلى يميني، رأيت نفسي في مرآة كبيرة مستطيلة ذات إطار ذهبي فاخر وشهاب إلى جواري، ورأيت في عيني سؤال «هل توصلتِ إلى إجابة لتساؤلك الذي بحثتِ عنه عند دخولك؟» بابتسامة مكسورة رأيت ردّي يدوي داخل نفسي، فلم أكن أحتاج إلى المزيد من اللقاءات بشهاب المعزاوي حتى أعرف الإجابة.

لقائي الأول به بعث في نفسي راحة عجيبة تجاهه، رجل بسيط، ودود، قريب من القلب، ولا يكتفي بتميّز إطلالته التي تفرض قبوله على الجميع، بل يسعى ليكون أكثر قربًا.

ورغم ذلك ظلّ هناك شعور مؤلم نغّص عليَّ هذا اللقاء، إنه شعوري بأنني قد اشتركت في جريمة في حق نفسي عندما قبلت أن تقول أمي عنا أننا ابنيّ صديقة لها، نعم لم تقل هذا لسامي وسارة أمامنا، ولكن كان هذا الاتفاق الذي قبله محمود دون غضاضة، وأكّد حضوري قبوله.

عقب عودتنا إلى المنزل توقعت أن أجد أبي في انتظارنا وبين إصبعيه طرف سيجارة ما زالت مشتعلة، أوشكت على لسعهما، اعتدت على رؤيته في تلك الصورة عقب كل لقاء لنا بأمي، بينما تطلّ من عينيه عشرات الأسئلة. كنت أشعر به وكأنه يريد أن يسألني عنها، وددت لو قلت لها إن من يهتم لأمرها بالتأكيد ليست هي من أراها منذ عام، كنت أتساءل عما جمع بينهما في يوم ما!

سألتني أمي عن أحوال أبي أكثر من مرة، ولم تأتِ المناسبة كي أبلغه بمثل هذا الأمر، لم يكن بيني وبينه الحوار الذي يجعلني أخبره، ولم أدرِ هل أبلغه محمود أم لا!

يومها لم أجده كما توقعت، بل وجدت باب غرفته مغلقًا، وعرفت من زينب أنه بالداخل، كان يعلم أنها المرة الأولى التي نذهب فيها إلى منزلها، بالطبع توقّع لقاءنا بزوجها، أكان لا يريد رؤية آثار لمساته علينا؟ هل رفض أن يرى

انعكاس صورته في أعيننا؟ هل توقّع أنه رجل ذو مواصفات إنسانية خاصة جدًا؟ لا أدري! لكن كل ما أذكره أن أبي لم يغادر غرفته قط في تلك الليلة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس

استمرت لقاءات منتهى التميمي بابنيها، فصار يجمعهم لقاء شهري في منزلها بمصر الجديدة، تذهب إليه الابنة بلا رغبة حقيقية، بينما ينتظره الابن بشوق كبير، بل ويلحّ على أمه لتحديد موعده، بينما يجاهد منصور نفسه في محاولة وأد رغبة تسكنه في معرفة تفاصيله.

أقرب تلك الزيارات إلى نفس منتهى هذه التي يحضرها شهاب، فحضوره يُضفي حميمية ومودّة صادقين، يُشعرانها بأنه الوحيد الذي يدري مدى الوجع الذي يسكنها. كانت ترى في تصرفاته اعتذارًا جمًّا عن جرح يعلمه جيدًا، ويخشى أن يكون أحد المتسببين فيه، وترى في عينيه حرجًا من إخفاء هويّتها وشقيقها عن ابنيه بناء على رغبة أمهما، كانت تستشعر أن صدق حفاوته تحمل بين طياتها كلمات لم تُقل، واعتذارات لم ينطق بها لسانه، بينما لازمها شعور بأن سامي وسارة لا يحبان زياراتهما، ولكنهما يُجبران على حضورها.

إلى أن جاء يوم لا تنساه الفتاتان، يومها كانت الأم جالسة مع محمود في الشرفة الغنَّاء بعد انصراف سامي، الذي تعلّل بأنه على موعد مع أصدقائه، طلبت الأم من سارة أن تأخذ منتهى إلى البيانو الذى يسكن الطرف البعيد من البهو الكبير لتعزف لها آخر مقطوعة تعلمتها على يد معلمتها الروسية، ثم أضافت مبتسمة:

قد يُغري هذا منتهى بتعلم البيانو فتعلمينها أنتِ يا سارة.

لكنها بمجرد أن نطقت جملتها سرت في جسدها قشعريرة لم تدرك كنهها، فقط صعقتها نظرة رمقتها بها منتهى، بينما لسان حالها يقول دون كلمات «أتعلم البيانو!! إنها رفاهية لا تملكها من هن أمثالي يا سيدتي، إنها نفس الحياة التي خبرتيها لمدة عامين فلم تطيقي شظف عيشها!»

انفضّ اشتباك الأعين الأربع عندما سارت الفتاتان نحو البيانو الأسود الشامخ، تقدمتا بين صالونات مذهبة وتحف وأنتيكات وتماثيل نحاسية ولوحات عالمية معلقة على الجدران، الثريات المضاءة تتلألأ أنوارها فوق خصلات شعريهما التي تحملان نفس اللون والملمس.

جلست الصغيرة إلى البيانو بعد أن رفعت الغطاء الخشبي الصغير وفتحت النوتة الموسيقية، ثم اعتدلت في جلستها وفردت ظهرها بشكل بدا احترافيًا، وبدأت أصابعها تضرب أصابع البيانو فترديها صارخة، وحينما صمتت النغمات قالت منتهى:

عزفك ممتاز يا سارة، لقد فاجأتيني.

لكن يبدو أن سارة كانت قد أعدّت قبل عزفها ما ستفاجئ به منتهى بحق.

ـ هل أسمتك والدتك منتهى تيمنًا باسم أمي؟

ـ أبي الذي أسماني، هكذا قالت لي جدتي.

أجابتها منتهى بثبات لم يوقف الصغيرة، التي بدت كنسر يحلّق حول فريسته:

هل فعلًا تركتكما والدتكما لظروف ما، لذا تترددان على أمي لأنها كانت صديقتها، ولأن أمي...؟

لم تُكمل سارة، صمتت متعمدة، تركت استكمال ما بدأته لذكاء منتهى الذي صارت تثق به.

ـ تقصدين أن والدتك تُشفق علينا!

قالتها منتهى وقد تضرجت الدماء في وجهها، وكأن كلمات سارة هي القشّة التي قصمت ظهر البعير.

لم تردّ سارة، استشعرت فجأة أنها قد أخطأت، ولكن قبل أن تحاول تدارك الموقف أردفت منتهى قائلة بمرارة، وغلالة من الدموع لم تنجح في حبسها قد ترقرقت في عينيها:

نحن نأتي إلى هنا لأن أمنا تعيش هنا!

ـ لا، أمكما ليست هنا!

قالتها سارة بانفعال.

ـ بل هي هنا.. اسمها منتهى التميمي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت يُسر على وشك الانصراف من البنك، وعندما بدأت تلملم أوراقها في شنطة جلدية كبيرة؛ اقترب منها طارق قائلًا:

آنسة يُسر، أرغب في التحدث إليكِ.

رفعت رأسها ناظرة إليه، ثم قالت:

خيرًا يا أستاذ طارق؟ هل هناك مشكلة في الميزانية أو...

قاطعها قبل أن تسترسل:

الأمر لا علاقة له بالعمل.

ـ لا علاقة له بالعمل؟!

قالتها وصوتها يحمل رنين دهشة واضحة.

ـ هل نستطيع أن نجلس معًا في مكان عام، الأمر شخصي ولا مجال للحديث هنا، لا أحتاج من وقتك أكثر من نصف ساعة.

نظرت له في ارتباك، وزجّت بخصلات شعرها الحريري خلف أذنها في حركة لا إرادية.

ـ الحقيقة يا أستاذ طارق أنا.. الأمر...

تعثّرت في كلماتها، وهمّت بالاعتذار، لكنها رأت في عينيه شيئًا أرجعها عما عزمت عليه.

وافقت دون أن تعرف لماذا فعلت، أما هو فلم يكن يعلم ماهو هذا الأمر الشخصي الذي يريد أن يُحادثها فيه، كان فقط واثقًا من رغبته في التحدّث إليها.

جلسا في مقهى صغير على الطراز الأوروبي بشارع «٩» في المعادي، تحدّث إليها وكأنها ليست المرة الأولى التي يلتقيها فيها، أخبرها أنه قد خطب مرة من قبل وأنها كانت المرة الأولى والأخيرة، ثم اتخذ بعدها قرارًا أن يبتعد عن كافة العلاقات الشخصية حتى الصداقة، اكتفى بزمالة هؤلاء الذين فرضهم عليه العمل. قال لها إنه لا يدري لماذا ظلّ يُتابعها طوال عام مضى، لأول مرة منذ سنوات طويلة يرى في نفسه اهتمامًا بشخص ما، ظن نفسه قد زهد كل شيء، اهتمامه بها جعله يسأل نفسه أتراه شُفي من كل ما عانى منه، لم تُوجه إليه أي تساؤل، بل أرهفت سمعها له في خشوع، لم يسألها عن أسرتها، كان قد حصل على تفاصيل حياتها العائلية من خلال زملائها، فقط سألها سؤالًا لم تتوقعه، تمامًا كما لم تتوقع اللقاء نفسه:

هل أنتِ مرتبطة بشخص ما؟

ابتسمت في خجل، وعيناها الصغيرتان تحاولان الهروب إلى أبعد نقطة تستطيع النظر إليها:

لم يكن في حياتي أبدًا هذا الشخص.

ـ لكنني علمت أن أكثر من شخص قد حاول التقرّب إليكِ، بل ومنهم من تقدّم لخطبتك بالفعل، وعلمي برفضك لهم هو ما جعلني أسألك هذا السؤال، ظننت أنه ربما تكونين مرتبطة بشخص بعينه.

ـ لم أشعر برغبة في الارتباط بأحدهم، فأن يبقى الإنسان وحيدًا أفضل كثيرًا من أن يحيا بالقرب ممن لا يشعر بالراحة معهم، أنا إنسانة لا تطلعات لي في الحياة يا سيد طارق، لا طموحات كبيرة ولا أحلام غائبة كحال معظم الناس.

تعجبت يُسر من نفسها! كيف تجلس بمثل هذه الأريحية مع أحدهم، والأكثر عجبًا أن يمتدّ اللقاء إلى أكثر من ساعتين، نسيت يُسر خلالهما أن تنظر إلى ساعتها الصغيرة التي تحتضن معصمها، ولم ينتهِ اللقاء إلا وقد أخبرها طارق برغبته الجادة في الزواج منها.

وعندما عقدت المفاجأة لسانها وتدفقت الدماء في وجنتيها، طلب منها أن تُرجئ ردّها إلى يومين قادمين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حسب موعد مسبق حضر طارق مع أمه وأبيه لطلب يد يُسر، كان هناك تعالٍ بادٍ من أمه، قابله رغبة واضحة من الأب في إدخال السرور على قلب ابنه، بل والتعجّل في إتمام الزيجة، فقد أصّر على قراءة الفاتحة في هذه المرة الأولى، وقام بالاتفاق على كافة التفاصيل، وأهمها أن يتم الزواج بعد ثلاثة أشهر على الأكثر، فلا يوجد ما يستدعي التأجيل. لم يخفَ على منصور والدكتور فؤاد تظاهر الأب بعدم الالتفات إلى نظرات الأم الممتعضة.

عندما هاتفت سوسن يُسر تليفونيًا لتهنئها في تلك الليلة، قالت بسعادة:

أخيرًا! هل أحببتيه يا يُسر؟

ـ بل سكنت إليه.

أجابتها يُسر بصوت خفيض..

بعد انصراف طارق مع والديه سألت هداية يُسر:

بينكما عشر سنوات من العمر يا يُسر، أليس ذلك بالفارق الكبير؟

وقبل أن تجيب يُسر، استطردت هداية تقول:

ـ كما أن العريس لا يبتسم أبدًا، ألم يلفت انتباهك هذ الأمر؟ أخشى أن تجديه بعد الزواج ثقيل الظل فتندمين على تسرّعك في القرار.

ضحكت يُسر فبدت عيناها وكأنهما مغمضمتين، وهي تقول:

إنه النصيب، هكذا كانت تقول أمي رحمها اللـه.

توجهت يُسر إلى غرفتها الصغيرة لتخلع فستانها الذي يحمل لون السماء حينما يجتمع صفوها مع صحوها، وقفت أمام المرآة لتجمع خصلات شعرها الأسود، الذي أصّرت هداية ومنتهى أن تتركه ينساب فوق كتفيها، أما هي فكانت تخجل من أن تكون ملفتة، لم تتمنَ يومًا أن تكون في جمال سوسن، كانت تشعر أن شخصيتها لا تناسب أبدًا أن تكون فتاة صارخة الجمال، فكمّ

الخجل الذي يسكنها، وكمّ التوتر الذي يجتاحها عند محاولة أحد الغرباء الاقتراب منها، يتعارضان مع ذلك.

ظلّ سؤال سوسن يتردد في رأسها، «هل أحببتيه يا يُسر؟» رأت في المرآة ابتسامة صغيرة تتهادى فوق شفتيها الرقيقتين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن حفل زفاف يُسر كبيرًا، فقد اتفقت وطارق على حجز طاولة تتسع لثلاثين مدعوًا، تتم دعوتهم على عشاء فاخر في فندق الهيلتون، وكان هناك أكثر من مطرب شهير سيقدمون فقرات في نفس القاعة تلك الليلة.

كان الاحتفال بالزفاف بهذا الشكل الضيق رغبة طارق، الذي فاجأه عدم اعتراض يُسر. اتفقا على السفر بعدها إلى تركيا ثم لبنان لقضاء شهر العسل، ولم تجد هذه الفكرة قبولًا لدى والديّ طارق اللذين كانا يحلمان بإقامة حفل كبير لوحيدهما، لكنه استطاع على غير عادته معهما أن ينتصر لرأيه في النهاية.

بدت يُسر ليلتها عروسًا جميلة، رغم إصرارها على ارتداء فستان زفاف أبيض بسيط وطرحة قصيرة، وبرغم جدالها الطويل مع مصفّف الشعر والماكيير الشهيرين لتصميها أن تكون تسريحتها ومساحيقها بلا تكلّف ولا تزيّد؛ إلا أنها كانت رائعة.

الشيء الذي أثار دهشة منتهى بحق هو قيام يُسر وسوسن ـ التي كانت قد وصلت إلى مصر قبل الزفاف بأسبوع ـ بدعوة أمها للحضور، دون أن يُخفيا ذلك عن منصور، وكان الشيء الذي ضاعف دهشة منتهى أنها لم تستمع إلى صوت زمجرته ولا صياحه ولا اعتراضه!!

«بالتأكيد لن تأتي منتهى التميمي، لن تجرؤ على مواجهته»، هكذا كان تعليقها على الأمر دون أن تُخبر به أحدًا، فقط أبدت عدم اكتراثها بالأمر. ولكن منذ متى وتصرفات أمها تتفق مع توقّعاتها!

أوشكت عقارب الساعة أن تعلن عن انتصاف الليل، بينما تجلس مُنتهى إلى جوار هداية، وإلى جوارها زوجها ممدوح، بدا كلاهما في تمام أناقته، أخذت هداية تختلس النظرات القلقة إلى ساعتها بين الحين والآخر، لقد تركت طفليها بصحبة والدة زوجها، ففي تلك السنوات القليلة التي لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة أنجبت هداية طفلين، في عامين متتاليين، أسمت طفلها الأول فهد، على اسم والد زوجها، وأسمت الأصغر فؤاد كاسم أبيها، حضورها لم يكن مثار اختيار، فلا تستطيع أن تمر الليلة دون أن ترى يُسر في ثياب عرسها.

مع دقات الثانية عشرة نهض ممدوح وهداية للانصراف، طبعت قبلتها فوق وجنة يُسر، وهي تعتذر لها عن اضطرارها للرحيل، وفي نفس لحظة خروجهما، رأت منتهى أمها هناك على مشارف القاعة والأضواء تتراقص حولها وكأنها تحتفي بحضورها، أطلّت ابنة التميمي مرتدية فستانًا أسود ضيقًا يكشف عن كتفيها وصدرها، متشحة بفراء ثعلب ثري لم يخفِ الكثير، شعرها الكستنائي بدا كعادته مصففًا لتوّه.. كانت فاتنة.

انطلق محمود لاستقبالها، بينما ظلّت منتهى في مكانها مصرّة على أن ترقب ردّة فعل أبيها، بدت تلك اللحظة تاريخية في حياتها، لحظة ربما مرّ بها سائر البشر فلم تستوقفهم، لكن وضعها يختلف كثيرًا، لقد كانت المرة الأولى التي تقع عيناها فيها على أمها وأبيها معًا!

انتفض منصور بمجرد أن وقعت عيناه عليها، امتدت أصابعه المتوترة لتعبث في رابطة عنقه في حركة لا إرادية، ثم هبّ واقفًا، تحركت الفاتنة مختالة في خطوات صغيرة، أربكته إطلالتها كما فعلت فيه أول مرة رآها، تعلقت عيناه بابتسامتها الجذابة التي تُزيّن شفتيها المكتنزتين، ونظرة الانكسار الأنثوي التي تسكن عينيها، ما زالت النعومة سمتها، رنت سوسن نحوها لترحب بها بحرارة، ثم أشارت إليه فتقدّم نحوهما، مدّ إليها كفًّا مشتاقة، بدا زمن المصافحة أطول مما ينبغي، بينما همست منتهى لنفسها وهي ما زالت ترقبهما من بعيد «ماذا حلّ بك، كأنك لست أنت! لأول مرة أراكَ ساكنًا كل هذا السكون! ما الذي حلّ بمنصور رحال الذي لم أعهده إلا عاصفًا!»

لم ينطق أحدهما بكلمة.. لكن أعينهما لم تكفّ عن الحديث.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما أغلق منصور باب غرفة نومه بإحكام وأهمد كافة الأنوار، أبدًا لم يتمكن من كبت رغبة عارمة اجتاحته في مضاجعتها، لكم اشتاق إليها، لم تتغير تلك الملعونة، ما زالت تفيض بكل شيء حُرِّم على كل امرأة سواها، اعتصرها بلا رحمة، لم تثنيه آهاتها، لم تُثر شفقته ليفلتها، اعتصرها دون أن يدري هل يعتصر فيها أنوثتها لينهل منها، أم يعتصر رجولته ليُسكرها، كعادته معها انتهى وما يزال ثملًا، داهمه صوت متهدج لا يشبه صوتها.

ـ تبدو مختلفًا تمامًا الليلة يا منصور!

فتح عينيه مشدوهًا.. إنها زينب!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل السابع

«بمجرد التحاقي بالجامعة اكتشفت أنه ينبغي عليّ بذل الكثير من الجهد لألحق بقطار الحياة، كي أكون واحدة ممن هم على خارطة الطريق، متلمسين غدًا حقيقيًا لا مجرد أيام زائفة يطلقون عليها حياة.

كفتاة في مثل هذا السن تطلعت وقتها لأظهر بمظهر لائق، خاصة وأنا طالبة بكلية الإعلام، كنت لا أملك من الملابس إلا القليل، أفضلها ما كان يُصرّ السيد هينز على إرساله لي حتى وإن لم يأتِ لزيارة مصر بصحبة سوسن وآدم كعادتهم كل عام.

هينز، ذلك الرجل الإنجليزي الذي أودع اللـه في قلبه حنانًا عجيبًا، كان يحرص على أن يرسل لي طاقمًا من الملابس مع حذاء إنجليزي راقٍ في كل عيد، ولمحمود مثلهما، يحاول بجدية أن يُدخل الفرحة على قلب يتيمين في العيد، نعم يتيمين مع وجود الأم والأب على قيد الحياة، هذا هو الشعور الذي كان يتملكني دومًا ولم يغادرني لحظة.. وكيف لا ونحن ابنين لمن لم نشعر بأمومتها ولا بأبوته!

كانت أمي قد أهدتني أيضًا قطعًا من الملابس عقب التحاقي بالجامعة، لكنني كنت لا أحبها، هناك شيء ما يحول بيني وبين الاستمتاع بها.

في أوائل السنة الجامعية الثانية توهجت في رأسي فكرة بعينها لم أعدّ لها مسبقًا، حدث ذلك حينما توجّهت مع زميلة لي لتصوير واحدة من المحاضرات التي لم تحضرها وقمت أنا بكتابتها، مضينا سويًا في اتجاه تلك المكاتب المتراصة بلا فواصل أمام جامعة القاهرة، والتي تقع قبالة كلية الإعلام وتمتدّ إلى شوارع كثيرة لتضرب في أعماق منطقة بين السرايات، لفت نظري إعلان مُعلق على الباب الزجاجي للمكتب الذي وقفنا لتصوير المحاضرة فيه: «مطلوب مدخلو بيانات على الكمبيوتر، لا يشترط الخبرة».

كدت أرى عينيّ مفتوحتين عن آخرهما، وكدت أصرخ: وجدتها!! ولكنني بالطبع لم أفعل.

تريثت. انصرفت مع زميلتي، توجهنا إلى قاعة المحاضرات، المُحاضِر يُلقي المحاضرة، أكتب كلماته بقلمي، لكن عقلي في مكان آخر، ما زال هناك معلقًا على نفس الباب الزجاجي.

ظلّ عقلي يحدثني بأن الحل هناك، وبأنني إن كنت أرغب في بداية حقيقية فالبداية قد تكون من هذا الإعلان، هذا إن كنت لا أريد أن يستغرقني الشعور بالسخط على واقع وماضٍ ليس لي فيهما يد، فيُشغلني عما يجب عليَّ فعله، أنا بحاجة لأنشغل ببناء مَنتهى رحالٍ حلمت بها إنسانة جادة مسئولة عن

مستقبلها وليس عن ماضيها، خشيت أن يهدمني شعوري بالغضب نحو ما كان ومن فعلوا دون أن أشعر.

وفي نهاية المحاضرة وجدتني مُصرّة على أن أبدأ خطوات حقيقية نحو ما غرقت في التفكير فيه. توجهت إلى نفس المكتب، مكتب صغير يحتل شقة في الدور الأرضي لمنزل قديم، كان من الواضح أن جدرانه قد تم طلاؤها حديثًا بألوان فاقعة، فبدت غير متناسقة مع قِدم المنزل. في صالة الشقة وجدت عددًا من أجهزة الكمبيوتر وماكينات تصوير، أمام معظم الأجهزة يجلس هؤلاء الذين يُطلقون عليهم «مُدخلي البيانات»، كما عرفت فيما بعد، جميعهم يعملون بهمّة أسمعها جيدًا في صوت طقطقات صادرة عن نقرات جادة لأصابعهم فوق لوحات مفاتيح أجهزة الكمبيوتر.

احتضنت كشكول محاضراتي وكأنني أحتمي به، أو أختفي خلفه كما يختبئ صغير وراء أمه عند لقاء الغرباء.

توقفت أمام الشخص الجالس أمام مكتب صغير في أحد أركان الصالة، التي يتفرع منها عدد من الغرف، كلها تحوي أجهزة كمبيوتر وماكينات تصوير.

ـ أسعد اللـه مساءك يا سيدي.

لم أدرِ هل كانت طبقة صوتي عالية بما يكفي لتصل إلى أذنه، أم إنه ردّ عليّ لمجرد رؤيته لحركة شفتيّ.

لم يُكلّف نفسه عناء ردّ التحية، واكتفى بهزّ رأسه، فاستطردت أقول:

أردت أن أستفسر عن إعلان الوظيفة.

أظن صوتي بدا مرتعشًا، هذا اللعين، لماذا؟ ألا تكفيني برودة أطرافي، التي أشعر بها كقطع ثلج عالقة بي؟!

أجابني وهو يعبث ببعض الأوراق أمامه:

تفضلي.

ربما كان في الثلاثينات من عمره، يرتدي قميصًا بلا لون، يضع فوق عينيه نظارة طبية، له شارب كثّ، ذقنه وشعره يحتاجان منه إلى شيء من التهذيب، وجهه أقرب إلى المربع، ولم أرَ له ابتسامة طوال هذا اللقاء الأول.

ـ أردت الاستفسار عن الإعلان الخاص بالوظيفة، المعلق على الباب الخارجي.

تفحصني من خلف زجاج نظارته وهو يقول:

أنتِ طالبة بجامعة القاهرة؟

ـ نعم، في السنة الثانية بكلية الإعلام.

ـ طبيعة العمل هنا تتلخص في كتابة رسائل علمية على الكمبيوتر، جميع الموظفين لدينا من الشباب، والحساب على العمل يكون بالقطعة.

ـ بالقطعة؟!

لم أفهم مقصده، تصورته لوهلة يتحدث عن إنتاجية نوع من القماش، أو ما شابه، وليس عن كتابة رسائل علمية كما هو معلق على الباب الزجاجي.

تابع حديثه، وبدا متفهمًا تمامًا لجهلي:

القطعة هنا تعني الورقة الواحدة، مدخلو البيانات لا مرتب ثابت لهم، فعمولتك مرتبطة بإنتاجيتك من الورق.

ـ وماذا عن مواعيد العمل؟

ـ هذا الأمر يعود لكِ تمامًا، تعالي في الوقت الذي يُناسبك، إن كان لديَّ أوراق سأسلّمها لكِ، وإن كان عندي ضغط عمل سأهاتفك، الأمر كله يتعلق برغبتك في العمل وقدرتك على الإنجاز، مما سيرفع عمولتك. بالتأكيد مع الوقت، ومع كثرة الكتابة ستزداد سُرعتك، وكلما كتبتِ أسرع كلما زادت إنتاجيتك.

أومأت برأسي معلنة أنني استوعبت تمامًا ما شرحه، فاستطرد يقول:

هناك أيضًا ميزة أخرى، أنكِ تتقاضين عمولتك يوم الخميس من كل أسبوع، وليس في نهاية الشهر.

وجدتني أسأله بحماسة:

متى أستطيع أن أبدأ العمل؟

غدًا إن شئتِ، فنحن لدينا في هذه الأيام الكثير من الرسائل العلمية التي نحتاج للانتهاء منها.

وقبل أن أومئ برأسي بالإيجاب، تذكرت أنني لم أخبر «منصور رحال» بقراري بعد.

ـ سأبدأ السبت القادم بإذن اللـه، سأحضر في الرابعة عصرًا بعد انتهاء محاضراتي مباشرة.

وقبل أن ألتفت لأرحل سألني:

ـ ما اسمك؟

ـ منتهى رحال.

ـ أنا المحاسب حمدي جلال صاحب المكتب.

كلما تذكرت نفسي في هذا الموقف تخالجني مشاعر متباينة، تتراوح بين إحساس بالشفقة على تلك الصغيرة ذات التسعة عشر عامًا، التي انصهرت بمحض إرادتها مبكرًا في معركتي الحياة والعمل، وبين شعور بالفخر تجاهها وهي من تحلت بالقوة والإصرار ففعلت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

منذ زواج يُسر وانتقالها إلى منزل زوجها صرت مضطرة للحديث مباشرة إلى أبي حينما يكون هناك أمر لا مفر من إخباره به. حديثي معه يحمل قدرًا من الصعوبة على نفسي، لكنني صرت مُرغمة على ما كانت تفعله لأجلي جدتي ثم يُسر من بعدها.

ـ هناك أمر أريد أن أتحدث إليك بشأنه!

خيرًا؟!

سمعت صوت زفيره أعلى من صوت الكلمة التي نطق بها، كان حانقًا طوال الوقت، بل طوال العمر، وما الجديد في هذا؟ لكنني، ولا أدري لماذا، لم آخذ يومًا حنقه وضيقه باعتباره أمرًا عاديًا، كنت في كل مرة أجترّ مراراتي الكثيرة بسببه.

ـ لقد قررت أن أعمل في مكتب رسائل علمية أمام الجامعة.

ـ لماذا؟

ـ لأنني بحاجة للاعتماد على نفسي، قررت أن أبدأ الطريق مبكرًا.

ـ ظننت ظهور أمك في حياتك سيعفيك من كثير من المعاناة!

أوجعتني كلماته، لماذا يُصرّ على معاقبتي على اختياراته، على ماضيه، على خطيئتي التي لم أقترفها!

ـ لا رغبة لي في مساعدة أحد، أظنني أستطيع أن أقدّم لنفسي ما لا أنتظره من الآخرين.

ـ ألا تخشين أن يؤثّر عملك على دراستك؟

ـ سأجتهد للتوفيق بينهما، الكثيرون يفعلون.

ـ كم سيعطونك؟

ـ المحاسبة بالعمولة للورقة الواحدة، يدفعون مقابل كل ورقة أقوم بكتابتها، وكلما كتبت أكثر كلما حققت المزيد من العمولة..

لم يُبد رفضًا ولا حماسة، فعلمت أنني أستطيع أن أبدأ العمل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان محمود قد صار طالبًا في السنة الأولى بكلية الحقوق، لم يكن راضيًا بالمرة عن دراسته، لكنه المجموع الذي حتّم عليه ذلك، ألمحت له أمه كثيرًا بأنها تستطيع إلحاقه بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، كنت واثقة أنها لن تفعل، لكنه صدّقها، ورسم آمالًا على ذلك، رأى نفسه هناك يُخالط أبناء الصفوة ويصير واحدًا منهم، ولم لا؟ فأمه منتهى التميمي زوجة واحد من أشهر المخرجين السينمائيين. لكن عندما حصل محمود على الثانوية العامة لم تفِ أمه بوعدها، وتعللت بأنها تصورت أن مصروفات هذه الجامعة أقل، وأنها كانت تنتظر مالًا وعدها به والدها، ولكنها لم تحصل عليه بعد، قالت له إنها تُفضّل أن تدّخر له مالًا ينتفع به بعد تخرجه من الجامعة، ليشتري به شقة أو يبدأ في الإعداد لمستقبله أو... أو... لم تكفَّ عن تصدير وعودها الجوفاء له، ولم يتوقف محمود عن تصديقها!

بدا محمود في تلك الفترة شديد التطلّع، يرغب في الوصول إلى كل شيء بسرعة، هل ظهور أمه في حياته جعله كذلك؟ هل كان لديه الاستعداد؟ لم أستطع أن أجزم بالإجابة.

حينما أخبرت محمود بقرار عملي رمقني بنظرة مستنكرة قائلًا:

لماذا تتعجلين الشقاء يا مُنتهى؟ لماذا لا تنتظرين الانتهاء من دراستك الجامعية، ثم تبدأين العمل والمعاناة؟

ـ لأنك تعلم جيدًا كم نحن بحاجة إلى بعض الملابس، إلى شراء كتبنا الجامعية بدلًا من قضاء ساعات في المكتبة لنقل صفحاتها، تعلم حاجتنا لمصروف يومي يغطّي متطلباتنا البسيطة. سأعمل لأنني بحاجة إلى المال يا محمود! هكذا بوضوح شديد!

قلتها بانفعال لأن السؤال بدا لي مستفزًا.

في الفترة الأخيرة كان إحساسي يهمس لي في مرارة بأن محمود يطلب نقودًا من أمه، ويخشى مصارحتي، لقد كبر محمود وخرج عن طوعي، بل صار يُخفي عني ما يعلم بأنني سأختلف معه بشأنه.

لكم صرت أحمق يا من كنت صغيري!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بينما أقوم بتنظيف المنزل صباح الجمعة، يوم إجازتي الذي أتمكن فيه من مساعدة زينب؛ سمعت رنين الهاتف، فالتقطت السماعة من يد دنيا بصعوبة. أتاني صوت سارة، تبادلنا التحية، وعلمت أن هناك ما تريد قوله لي، فهي في الغالب تهاتفني حينما تريد أن تهمس لي بشيء بعيدًا عن آذان الآخرين. بدا صوتها في ذلك اليوم قلقًا غريبًا:

منتهى، أريد أن أحادثك في أمرين، وبالطبع كأنك لا تعلمين عنهما شيئًا.

ـ بالتأكيد يا سارة، خيرًا؟

ـ حالة أمي الصحية ليست على ما يرُام، لذا ستسافر بعد أيام إلى لندن بصحبة أبي لإجراء بعض الفحوصات، ولن تخبر أحدًا بأمر سفرها.

كدت أقول «بالطبع لن تخبر الغرباء أمثالي»، لكني لم أنطق بما وددت النطق به.

ـ لا تقلقي يا سارة، قد يكون إجهادًا، أو أمرًا بسيطًا إن شاء اللـه.

ـ أنا قلقة بالفعل يا منتهى، لكني رغبت في إخبارك حتى لا تغضبي منها إن لم تتصل بكِ أو تدعوكِ لزيارتنا الفترة القادمة.

ـ لن أغضب يا سارة.

ـ ادعي لها يا منتهى!

قالتها بتأثر كبير، واختنق صوتها بالبكاء، كادت سارة تنطق بها، كادت تقول سامحيها. الفارق بيني وبين سارة كبير في مشاعرنا تجاه أمي، فسارة قد عهدتها أمًا حنونًا رائعة، أما أنا فما زلت أبحث بين قسماتها عن ملامح الأمومة فلا أكاد أرها، كيف يكون لنفس الإنسان شخصيتان، واحدة تحمل القسوة، والأخرى تفيض بالحنان، كيف؟!

ـ لا تبكي يا سارة، أرجوكِ، وسأفعل بالتأكيد.

وددت أن أخرجها من حالتها، فقلت:

وما الموضوع الآخر؟ قلتِ إنك ستحادثينني في أمرين.

تردّد صوتها وهي تقول:

علمت أن جدي قد طلب من أمي أن يراكما، سمعت حديثًا يدور بينها وبين أبي، كانا يتحدّثان دون أسماء كي لا أفهم، لكنني فهمت المضمون دون أن أبدي شيئًا، فقط أردت أن أقول لكِ كي تُعدّي نفسك، ماما ستُفاتحكِ في هذا الأمر قريبًا.

ـ جدك!!

ـ جدنا يوسف يا منتهى!

لا أدري كيف أنهيت تلك المكالمة مع سارة.

ما بال آل تميمي هؤلاء! هل يُعدّون بشرًا كسائر البشر؟ كيف يفكّرون؟ كيف ينظرون إلى من لا يروقون لهم؟ إلى من لا يليق بهم؟ كيف يصنّفون البشر؟ ثم كيف بسهولة يعيدون تصنيفهم وتقييمهم؟ كيف أنكرنا وأسقطنا يوسف التميمي من حساباته لسنين طويلة، ثم ها هو يذكرنا الآن! هل سطوة المال هي التي تمنح أمثاله الجرأة على التصرف هكذا مع البسطاء أمثالنا؟ يتعاملون معنا كقطع شطرنج يحركونها فوق رقعة الحياة كيفما شاءوا؟ أم ماذا؟ لقد كاد رأسي يومها أن ينفجر من فرط الأسئلة التي ظلت تدوي في رأسي، دون أن أجد إجابة واحدة لها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا أستطيع أن أقول إنني وسارة قد صرنا أختين بالمعنى العميق للكلمة، لكن تغيرت العلاقة كثيرًا منذ اليوم الذي لم أُعدّ له مسبقًا، عندما أنبأتها فيه أننا لا نأتي إلي منزلها لنطلب إحسانًا كما تصورت، وأن أمنا هي أمها، وأننا خطأين لم تستطع غفرانهما لنفسها، ولم تستطع الاعتراف بهما أمام الآخرين، وأنني ظللت وأخي لسنوات طويلة بلا أم إلى أن قررت هي أن تظهر فجأة في حياتنا، وأنها من طلبت منا أن نُخفي عليها وعلى شقيقها الأمر. كان وقع الكلمات يومها ثقيلًا بشدّة على سارة التي امتقع وجهها، وشردت بنظرها بعيدًا عني، وبدت وكأنها تُحادث نفسها بصوت عالٍ مرتعش:

الآن فقط تأكّدت، كنت أشعر أن خلفكما يختبئ سر ما، سر كنت أراه في عين أمي وأبي، الآن فهمت لماذا عندما رأيتك لأول مرة شعرت أنني رأيتك من قبل كثيرًا، ثم أفزعني الشبه غير المعقول بينك وبين صور أمي حينما كانت صغيرة، تلك التي تضعها في غرفتها.

ظلت سارة توجّه لي أسئلة متلاحقة بلا توقف، ثم قالت ما فاجأني بحق، وكنا قد دخلنا إلى غرفتها، فلقد رفعت رأسها وفي عينيها الواسعتين رجاء يصل إلى درجة التوسل:

منتهى، يجب ألا تعلم أمي أنني عرفت شيئًا، فأنا من كنت سخيفة وضغطت عليكِ.

ثم أرخت رأسها في حزن، واستطردت قائلة:

لا أريد أن أضع أمي في موقف محرج إن عرفت أنني قد علمت ما تتحرج هي عن مصارحتي به، لذا سيظلّ الأمر سِرًا بيني وبينك دون أن نطلع عليه أحدًا

سوانا، حتى سامي ومحمود لا يجب أن يعلما شيئًا مما دار بيننا اليوم.

تغيرت معاملة سارة لي منذ ذلك اليوم، تغيرت إلى الحد الذي لم أتصوره، صارت ترحب بي وبمحمود أثناء زياراتنا المتباعدة لمنزلهم، صارت تتودّد إلينا تمامًا كما يفعل أبوها، ظنت أمي أننا قد أصبحنا صديقتين أخيرًا. لكم كانت تأخذ الأمور فقط بالظاهر منها، دون أن تُكلّف نفسها عناء الفهم، أو محاولة البحث عن حقيقتها».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في اليوم المتفق عليه بدأت منتهى عملها في ذلك المكتب المتواضع، تعاملت مع الأمر بجدّية شديدة، تنتهي من محاضراتها فتتوجه فورًا إلي عملها، وبمجرد وصولها وبدون كلمات تُذكر يمدّ إليها حمدي جلال صاحب المكتب يديه بمجموعة من الأوراق، كانت تنجزها في غضون ثلاث أو أربع ساعات، ثم تطلب المزيد إن كان لديها سعة من الوقت.

في البداية لم تتعدّ علاقة منتهى بزملائها إلقاء التحية على أقربهم مجلسًا منها، جميعهم شباب مُكافحون مثلها، يأتون في أوقات متفرقة، بعضهم طلبة بالجامعة، وبعضهم يعملون في وظائف حكومية في الصباح، ويأتون إلى المكتب لزيادة دخلهم في الفترة المسائية، تعرفت مُنتهى على زميل لها اسمه «خالد»، تصادف وجوده في نفس وقت تواجدها لمرات عدّة، عرفت منه أنه حاصل على مؤهل تجاري متوسط، ويعمل في الصباح كموظف استقبال في مستشفى حكومي، ويأتي إلى المكتب مساءً.

ـ خالد، أرغب في استخدام جميع أصابعي للكتابة على لوحة المفاتيح كما يفعل معظمكم هنا، أشعر أنني غير متقنة لعملي كمدخلة بيانات، فأنا أستخدم إصبعين فقط بينما أبحث بعيني عن الأحرف.

حرك نظارته الطبية السميكة، وابتسم فأضحت أسنانه الأمامية أكثر بروزًا:

تقصدين أنك تريدين الكتابة بطريقة اللمس؟

أومأت له بالإيجاب بحماسة كبيرة.

ـ كم تدفعين إن قلت لكِ كلمة السر؟

ـ وما السر في هذا يا خالد؟

قالتها ببراءة.

حكّ بأظافره غير جيدة التهذيب جلد رأسه متخللًا شعره المجعد، قائلًا:

ـ هناك برنامج على الكمبيوتر يُعلمك كيف تكتبين على لوحة المفاتيح باللغتين العربية والإنجليزية، دون أن تحتاجي للنظر إلى الحروف، بل ودون أن تغادر عيناكِ الورقة التي تكتبينها.

أطلّت من عينيها نظرات متوسلة. وفي لحظات فتح خالد أمامها البرنامج وبدأ يشرحه لها، فما كان منها في الأيام التالية إلا أن كرست إراداتها الفولاذية لهذا الأمر، إيمانًا منها بمقولة قد قرأتها فسكنت عقلها، «لو كانت لدي ثماني ساعات لأقطع شجرة خلالها، لقضيت ست ساعات في سن فأسي»، نعم يجب أن أسنّ فأسي، وأعدّ نفسي، سأشحذ همّتي، ربما أستطيع أن أكتب في الساعة ثلاثين ورقة بدلًا من خمس، أحتاج المزيد من المال دون أن يؤثر هذا على دراستي، هكذا كانت تُحدّث نفسها وهي تقوم بشحذ عزيمتها.

وفي أقل من أسبوع، فاجأت زملاءها في المكتب ـ الذين كانوا يرقبونها من بعيد بإعجاب شديد ـ بأنها صارت تجيد فن الطقطقة عبر لوحة المفاتيح دون أن تنظر إلى الأحرف ولو نظرة واحدة، فقط تثبّت نظرها على الورقة، وتبدأ العزف على لوحة المفاتيح، وبسرعة تنتهي لتبدأ الورقة التالية التي تنتظر دورها.

جادة، وكأنها عاهدت نفسها على ذلك، فلم لم تلتفت يومًا إلى محاولات بعض الزملاء للتقرب منها، لم تمنح أحدهم الفرصة، بل لم تلتفت يومًا إلى أنها قد أضحت فتاة غضّة مثيرة، تزيدها خصلات شعرها الكستنائي جاذبية حينما تنفلت في تمرد من عقصة (ذيل الحصان)، فتلثم وجنتيها وأنفها الدقيق، وربما تنال من شفتيها المكتنزتين لتجعلها تبدو أكثر إثارة، قبل أن تعيدها بأصابعها الرشيقة الناعمة إلى مسجنها حيث هربت، ورثت جمال أمها ومظهرها الراقي، حملت نفس ملامحها، عينيها الواسعتين ووجهها المستدير وجبينها الصغير وتفاصيل جسدها المثير، مع مسحة من شموخ تلامس قسماتها وشخصيتها.

لم تلحظ نظرات حمدي لها، والتي لاحظها باقي زملائها في المكتب. تلك النظرات التي كان يختلسها من خلف نظارته الطبية، وتحمل انبهارًا بجمالها الفاتن.

بينما ظنت هي أنها تجيد الاختباء تحت بنطال من الجينز وسترات مختلفة الألوان تبدو أغلى من قيمتها الحقيقية، لأن من ترتديها فتاة ذات إطلالة مختلفة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما أبلغت الأم ابنتها برغبة جدها في رؤيتها ومحمود، أخفت منتهى معرفتها المسبقة بالأمر.

ـ ولماذا الآن؟

لم تتعجب الأم ردّة فعلها، فقالت بهدوء:

حبيبتي، يجب أن نعطي الآخرين فرصة لتصحيح الأخطاء، للاعتذار، بالتأكيد لكل شخص مبررات لأفعاله، سواء الصحيح منها أو الخاطئ، غدًا تكبرين وتعلمين أن لا شيء صحيح في المطلق أو خاطئ في المطلق، قد يكون للأمر الواحد عدّة وجوه. ربما نختار يومًا أمرًا ما ونحن مؤمنين به، أو مرغمين أو مخطئين، نختاره دون أن نجد في أنفسنا القدرة على التحوّل عنه، ربما لضعف يسكننا، أو لعدم نضج، وربما لعدم وضوح الرؤية وقتها، أو لأسباب أخرى، وقد نختار أمرًا نعشقه ونؤمن به إلى حين، ثم نغيّر وجهتنا ونختار آخر سواه، ويكون لنا في كل مرة دوافعنا. الأمر أعقد من أن تتمكني من استيعابه الآن، فقط أريدك ألا تحكمي حكمًا مطلقًا على الآخرين أو حتى على الأشياء. أتعلمين يا منتهى؟ لكم أتمنى أن أسمع رأيك في معظم الأمور مرة أخرى، ربما حين تبلغين الأربعين من عمرك.

صمتت لبرهة، ثم قالت دون أن تتخلى عن طبقة صوتها الخفيض وابتسامتها الهادئة:

لن أتعجلك كي تذهبي للقاء جدك، فقط أخبريني حينما تكوني وأخيكِ مستعدّين لذلك.

كانت أذكى من أن تصطدم بابنتها، فقط ألقت بحجر ليتحرك الماء الراكد، ثم وقفت ترقبه من بعيد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن

في أحد شوارع المعادي الهادئة توجّهت منتهى نحو منزل يُسر. كل شيء في حياة يُسر يتسم بالهدوء، ليس فقط الحي الذي تقطنه، ولا الشارع الذي تسكنه، بل حتى الشقة التي تحيا فيها، والتي برغم مرور سنوات على زواجها لم تضم بعد إلاها وزوجها.

سمعت منتهى ذات يوم حديثًا بين زينب وأبيها، قالت الأولى:

مرت أعوام على زواج يُسر ولم تنجب بعد، يجب أن تعرض نفسها على طبيب، أهل زوجها لن يتركوها في حالها، فهو ابن وحيد وليس صغيرًا في السن، يجب أن تنصحها يا منصور!

رمقها بنظرة نارية:

لن أنصحها يا زينب، أنتِ تعلمين أن يُسر شديدة الحساسية، وتتعمد ألا تتدخل في شئون الآخرين حتى لا يتدخل أحد في شئونها، وإياكِ أن تتحدّثي إليها في أمر كهذا،إياكِ!

بُهتت زينب ولم تُعقّب.

في شقتها بسيطة التفاصيل، غير المزدحمة بالأثاث؛ وقفت يُسر تصبّ العصير لمنتهى وتناولها إياه. أخبرتها منتهى برغبة جدها في لقائها وأخيها، ثم أردفت تقول بصوت يفيض وجعًا:

لا أريد الذهاب، لقد نساني عشرين عامًا، جعلني يتيمة الأم وهي على قيد الحياة، كيف تصوّر أننا قد نعتبره جدًا لنا في يوم من الأيام؟!

ـ هو بالفعل جدكما يا منتهى، لا تُلقي باللوم كله عليه، إنه ليس خطؤه وحده.

ـ تقصدين أن أمي هي التي فعلت، هي التي قبلت أن تتخلّى عنا، هي التي...

قاطعتها يُسر وهي تربّت على ساقها:

منتهى، الأمر برمته صار ماضيًا، لن نملك حياله شيئًا، كلما كررتيه على نفسك كنتِ كمن ينبش في جرح غائر، والنبش في الجراح يقتل فرصة شفائها. أليس الأحرى أن تمنحي جراحك فرصة لتلتئم؟

تهدّلت رأس منتهى فوضعتها بين كفّيها، مسندة ذراعيها إلى ساقيها، فاستطردت يُسر:

ـ لو كنت مكانك لذهبت إلى جدي.

تجاوزت يُسر نظرة العتاب التي رمقتها بها منتهى، واستكملت حديثها دون أن تتوقف:

فرغبته هذه لها معانٍ هامة، معناها أنه قرر أخيرًا أن يعترف بوجودكما، وأن يتم الإعلان عنكما في أسرة التميمي على الأقل. لا عاقل يرفض تُصحيح أوضاع خاطئة، كما أنكِ إن لم تذهبي فمحمود سيذهب على كل الأحوال، فستظهرين وكأنكِ في جانب وشقيقك في جانب آخر.. صدّقيني يا منتهى، كل الأمور تدفعك لأن تقبلي دعوة جدك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تعتد منتهى أن تطلب من محمود إخفاء أمر عن أبيهما، لكن ما حكته لها جدتها قبل موتها عن موقف التميمي مع أبيهما جعلها تشعر أن زيارتهما له قد تثير حفيظته، وقد تدفعه ليتعامل معهما بعصبية تربو على عصبيته المعهودة.

قررت منتهى الذهاب ومحمود لزيارة جدهما، الذي كان قد ترك الفيلا الكبيرة التي ظلّ يسكنها لعشرات السنوات حينما ماتت زوجته وتزوّج أبناءه، واختار أن ينتقل إلى شقة بشارع الحجاز في مصر الجديدة. وبناءً على الموعد الذي تم الاتفاق عليه مسبقًا، وجد الحفيدان نفسيهما أمام عمارة شاهقة تصل إلى أربعة عشر طابقًا، تجاور مستشفى هيلوبوليس.

فتحت لهما الخادمة صغيرة السن، غير متينة البنية، باب الشقة التي بدت لهما لا تقل فخامة عن شقة أمهما، تقدمتهما حيث مرا على أكثر من صالون ثم توقفت أمام صالون مذهّب يكتسي بقماش أزرق تُزينه رسومات لروميو وجولييت، ثم أشارت لهما بالجلوس. شردت منتهى في رسومات روميو وجولييت، هل يعترف آل تميمي بروميو وجولييت؟! أم إنهما لا يمثلان لهم سوى صور يزينون بها فرشهم ثم يسحقونها بالجلوس فوقها. هكذا فكّرت، ثم ابتسمت بسخرية من تلك الفكرة التي داهمت رأسها للتو.

مرت اللحظات متثاقلة، كادا فيها يسمعان للصمت دويًا بين أركان الصالون الذي بدا لهما كمتحف أثري، تبادلت وشقيقها النظرات أكثر من مرة، إلى أن سمعا دبيب أقدام تقترب، ووجدت منتهى نفسها وجهًا لوجه مع من ترددت كثيرًا في لقائه. بدا لها رجلًا مهيبًا رغم تقدّم سنه، فاتح البشرة والشعر، له عينان ملونتان لم تتبين لونهما من خلف النظارة سميكة العدسات، يرتدي روبًا بني اللون. بخطوات بطيئة توجّه نحوهما مستندًا على عصا من الأبانوس المزخرف، ثم توقف عن التقدم، فتقدما نحوه وتلاقت أكفّ ظنت منتهى أنها لن تتلامس يومًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«لن أنسى نظراته لنا، تطلعه في وجهي كأنه يبحث فيه عن شيء ما. لا أدري لماذا سألنا عن الكليات التي ندرس بها، أحقًا لم يكن يعلم! أم إنه لم يصدّق أننا التحقنا بمثل هذه الكليات! لقد رأيت بنفسي علامات الدهشة في عينيه بينما يسألني عن سبب اختياري لكلية الأعلام، فأخذت أحادثه عن رغبتي في العمل بالصحافة، وعشقي للقراءة، وعن حبي للأستاذ مصطفى أمين وحكاياته في بلاط صاحبة الجلالة، تلك التي لا أملّ من قراءتها، وعن عمود فكرة، كنت وقتها قد صرت كبيرة بما يكفي لأعبّر عن نفسي. شعرت أنه لم يكن يتوقع أن نكون هكذا، ربما ظننا بالكاد سنحصل على شهادات متوسطة من إحدى المدارس التجارية أو الصناعية، لنخرج للعمل مبكرًا كي نقتل شبح الفقر الذي نزع ابنته من بين فكيه.

في زيارتنا الثانية له التقينا عنده خالي الكبير، مدحت التميمي، اعتقدت وقتها أن جدي أخبره أننا أصبحنا نصلح للإعلان عنا داخل نطاق الأسرة، بالطبع دون أن يعلم الأبناء عنا شيئًا، حتى لا يصل الأمر إلى سامي وسارة، لكن ما علمته بعد سنوات أن مدحت هو من أقنع جدي في الأساس بضرورة لقائنا، فرغم كل شيء نحن أحفاده، وعشرون عامًا تُعدّ عقابًا كافيًا لكل من أخطأ وتجاوز.

ولم أدرِ هل كان رأى خالي نابعًا من أنه كان متزوجًا منذ سنوات طويلة دون أن يُنجب، أم إنها قناعة تولّدت لديه بعد أن صار كهلًا!

في تلك الزيارة الثانية وعدنا جدي دون مقدمات تُذكر أنه سيفتح لكل واحد منا دفتر توفير، وسيضع لنا مبلغًا «محترمًا» من المال، هكذا أسماه، ابتسم محمود يومها ابتسامة عريضة، وشكره بحرارة وامتنان، بينما طأطأت رأسي ولم أعقّب.

لم ألتقِ جدي في حياتي سوى ثلاث مرات قبل أن ينتقل إلى الحياة الأخرى. حدث ذلك حينما أصاب جسد بلادي زلزالًا كبيرًا، فارتجف رجفة لم يرجفها من قبل. رحل جدي في يوم من هوله ظننته يوم القيامة، يوم غُرست أظافره بعنف في ذاكرة بلادي، مات الكثيرون في ذلك اليوم، كما مات جدي تحت هدم تلك العمارة التي انتقل إليها منذ سنوات قليلة، وظلت حكايتها هي الأشهر بين كل أحداث وانهيارات ذلك الزلزال العاصف، وجدوا جثته وجثة خادمته، وجثثًا أخرى كثيرة، تحت الركام الذي وارى بقسوة أشخاصًا وقصصًا.

حزن محمود حزنًا شديدًا لأنه مات قبل أن يفي بوعده فيضع له المبلغ «المحترم» الذي وعده به، والذي لم أتوقع أنا أن يفعل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد وفاة جدي بأقل من شهر، وعند عودتي مساءً من المكتب الذي أعمل به، إذا بزينب في انتظاري تخبرني في لهفة:

سامي المعزاوي اتصل بكِ مرتين يا منتهى!

ـ سامي!!

قلتها في دهشة.

ـ في المرة الثانية أخبرني أنه سيعاود الاتصال بك لأنه يحادثك من لندن.

انتابني قلق شديد، فسامي لم يتصل بي قبلًا، ورغم لقاءاتنا عبر السنوات الخالية، فعلاقتنا لم تتعدّ يومًا تبادل التحية، والقليل من الكلمات التي يفرضها عليه وجودنا في منزلهم، فكرت لوهلة أن أهاتف سارة، لكن حدسي أسرّ لي بأنها ربما لا تعلم عن اتصال أخيها شيئًا.

انتظرت اتصاله وأنا أحاول أن أتلهى بأشياء لم تلهني بالفعل، حتى دقّ جرس الهاتف أخيرًا.

ـ أهلًا سامي، أنا...

قاطعني:

منتهى!

صوته بدا غريبًا، به شرخ ما.

ـ ماذا حدث يا سامي؟

ـ لا أدري ماذا أقول لكِ!

سمعته يبكي فانقبض قلبي، وعجز عقلي عن توقع شيء، لكنه شعور بالانقباض داهم قلبي.

ـ أمي أخبرتني لتوها أنك ومحمود أخواي، صدقيني لا أدري ماذا أقول، لا أدري كيف أعتذر عن... لا أنا...

جاءت كلماته متقطّعة.. مصحوبة بدموع ومرارة، ورغم مفاجأتي الكبيرة إلا أنني أشفقت عليه من الحالة التي هو عليها، وحاولت تهدئة روعه:

لا تقل شيئًا يا سامي، أرجوك لا تقل شيئًا، فأنت وأنا ومحمود وسارة لا ذنب لنا في شيء، نحن لم نفعل ما نعتذر عنه.

أرجوكِ ادعي لها يا منتهى، هي الآن في غرفة العمليات لإجراء جراحة في القلب، كانت قد أتت إلى هنا منذ عدّة أشهر لإجراء بعض الفحوصات، وقتها أخبرها الأطباء بأن لديها قدرًا من الانسداد في شريان رئيسي في القلب، حاولوا العلاج بالأدوية طوال الأشهر الماضية، لكن حالتها ساءت بشدة بعد

حادثة موت جدي، فعدنا إلى لندن هذه المرة بعد أن قرر الأطباء ضرورة إجراء الجراحة، أمي هي من أخبرتني في الصباح بكل شيء، سارة أيضًا كانت لا تعلم يا منتهى، لكنني حدثتها وأخبرتها، قلت لها إننا إخوة، لقد ألجمتها المفاجأة فلزمت الصمت تمامًا، ستحادثك بالتأكيد، أريد أن أتحدّث إلى محمود.

كان الأمر برمته مفاجأة لي، بداية من اعتراف أمي لسامي وردّة فعله، إلى الجراحة التي تجريها، والتي دفعتها للإقدام على هذا الاعتراف الذي أحجمت عنه عمرًا بأكمله حتى خلتها لن تفعل.

على الفور أخبرت زينب التي كانت تقف على بضع خطوات من أبي. كان يرقد وقتها في غرفته لمشاهدة التلفاز الصغير الذي اشتراه مؤخرًا ليزداد تقوقعًا على ذاته.

بعدها بساعات سمعته ينادي محمود ليسأله عما حدث، فأخبره الأخير بتفاصيل مكالمة سامي مرة أخرى، فقال أبي:

وماذا عن عملية أمك؟

قالها في كلمات قطعتها أنفاس متتابعة يلتقطها من سيجارته، فأجابه محمود بما لم يُضف إليه جديدًا.

في الحقيقة لم أعلم لماذا بدا أبي قلقًا متوترًا في تلك الليلة، كنت أيضًا في صراع مع النوم الذي عاندني رافضًا أن يلبي ندائي، سمعت وقع أقدام أبي في الصالة عدّة مرات، وحينما خرجت من غرفتي قبيل الفجر وجدته جالسًا وأمامه الكثير من أعقاب السجائر، فتظاهرت بأنني لم أنتبه له.

هل هذا يُعقل!! هل هو قلق بشأن حبيبته السابقة، هل انتابه خوف عليها؟ هل يخشى أن ترحل عن العالم؟ هل ما زال يحبها برغم كل ما ألحقت به من أذى؟ أيحبها رغم أنها دمرت فيه روح شاب واعد لم ألتقيه أبدًا لكن سمعت عنه، وأودعت جسده روحًا أخرى شديدة الهمجية والعناد والانعزال؟!

لم أشعر بنفسي ليلتها إلا وأنا في فراشي أجرّ بغيط على أسناني، وألعن الحب ألف مرة، ذلك الشيء الذي يلهو بمن يملك عليه قلبه، فلا يتركه إلا وهو كائن هشّ يسكن الخواء أرجاء روحه. دعوت اللـه مع ارتفاع صوت المؤذن لصلاة الفجر ألا يحتلني ذلك الشيء، فأنالا أريد لنفسي مصير أبي، وأيضًا لا أريد مصيرها وهي التي دفعها الحب إلى حافة الجرأة والجنون واللامسؤولية، دفعها إلى قمة اللامبالاة، خلق منها شخصية ظالمة لابنين دون أن تستشعر لحظة جرم فعلتها.

«اللهم لا تبتليني بالحب يومًا، اللهم ولا تجعلني مثلهما أبدًا»، دعوته وأغمضت عيني المسهدتين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في اليوم التالي تلقيت اتصالًا هاتفيًا جديدًا من سامي، أخبرني فيه أن أمه قد كتب اللـه لها السلامة، لكنها ستظلّ لأيام في غرفة الرعاية المركزة.

وبعد شهر عادت أمي إلى مصر وقد استقرت حالتها الصحية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تعاظمت توقعات محمود بعد اكتشاف سارة وسامي بحقيقة صلتهما بنا، يبدو أنه كان كأمه في مثل هذا العمر؛ يؤمن بما يشاهده في أفلام السينما القديمة الحالمة، فيصوّر له خياله المتطلع أن أمه ستضمنا إليها فور عودتها لمصر، تصوّر أنه سيرفل أخيرًا في حياة النعيم التي يستحقها، والتي ستجعله مساويًا لأصدقائه، فلقد أصبح لا يُصادق إلا هؤلاء الذين يبدو عليهم أثر النعمة والثراء.

بعد شفاء أمنا وعودتها للقاهرة، وعقب لقائه المؤثّر بسامي، وزياراته المتتالية لمنزلهم دون أن يُغيّر هذا من واقعه شيئًا؛ أشفقت عليه كثيرًا عندما رأيت خيبة الأمل وقد خيّمت على روحه بوضوح، رأيت أخي المسكين منهزمًا يقاوم بشدّة إظهار ما يبطنه لي، متكوّمًا في فراشه لأوقات طويلة، كارهًا أن يخرج ولو للذهاب إلى جامعته إلا بعد لعنات يكيلها أبوه له، ومحاولات متذللة مني كي لا يعطي أبانا فرصة إطلاق صراخاته وتهديداته وتوعداته التي تنشر التوتر والكآبة فوق رؤوسنا جميعًا. وبقى الحال هكذا إلى أن حدث ما أخرج محمود من حالته التي كدّرت أيامنا.

فبعد وفاة جدي يوسف التميمي بشهور، فوجئنا بخالي مدحت يخبرنا أن جدي قبل وفاته كان قد فتح لكل واحد منا دفتر توفير في البريد، وقام بوضع بضعة آلاف من الجنيهات فيهما، طلب منا خالي يومها أن ندعو لجدي قدر استطاعتنا.

ما علمته بعد ذلك بسنوات لم يفاجئني كثيرًا، فلقد عرفت أن خالي مدحت هو من وضع لنا هذا المال بعد وفاة أبيه، دون أن يفعل ما وعدنا به، فأدركت وقتها أن إحساسي كان صادقًا عندما توقّعت ألا يفعل».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتهت السنة الجامعية الثانية، استطاعت منتهى أن تفي من خلال عملها الشهور الماضية بمتطلباتها المحدودة، كتبها الجامعية، مصروفاتها الشخصية، ملابسها، وإقراض محمود بعض المبالغ الصغيرة.

أما محمود فقد فعل ما رأته منتهى تهورًا، اشترى بكامل المبلغ الذي في دفتر التوفير سيارة مستعملة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مع بداية الأجازة الصيفية طلب حمدي من منتهى أن تحلّ محله في إدراة المكتب، لأنه أنشأ مع صديق له شركة لاستيراد أجهزة الكمبيوتر، ولم يعد متفرغًا لإدراته، أخبرها أن وجودها هو الدافع وراء المشروع الجديد، بعد أن تأكد خلال الفترة التي قضتها في العمل معه أنها الأكفأ لتحمل تلك المسئولية، لقدرتها العجيبة على تنظيم العمل وإرضاء العملاء.

كان الراتب الذي عرضه عليها مرضيًا للغاية، ولم يكن لديها خطط لفترة الأجازة الصيفية، فوافقت على العمل لساعات طويلة في المكتب الذي خبرت موظفيه ونوعية عملائه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدت الأجواء غائمة في ذلك المساء في منزل الدكتور فؤاد، فقد هاتفت هداية أمها وهي في حالة قلق شديد، فقد تأخر ممدوح عن موعد عودته للمنزل ما يزيد عن ساعتين، وعندما اتصلت بمكتبه في الشركة التي يعمل بها علمت أنه قد غادره في الموعد المعتاد. انتقل القلق إلى أبويها، حتى عاودت مهاتفتهما بعد قليل لتخبرهما وقد ازداد توترها بأن ممدوح حادثها لتوّه من استقبال إحدى المستشفيات، بعدما اصطدمت سيارته بسيارة أخرى تقودها سيدة، وأنه عندما توقفت السيارتان وترجّل ممدوح من سيارته ليتفقد الأمر، تجمّع المارة بعدما توقفت حركة الشارع، فإذا بالمرأة قد انكفأت على عجلة القيادة فاقدة الوعي، فقام بنقلها إلى المستشفى وقد بدا من حجم بطنها أنها حامل، مما قد يؤدي إلى ازدياد الأمر سوءًا.

هرع حسين، الذي كان عائدًا لتوّه من كليته بالقصر العيني، إلى المستشفى التي ذكرتها شقيقته، فمن الصعب أن تذهب هداية لزوجها، فمعها طفلان لم يتعدّ عمر أكبرهما الثالثة بعد.

عندما استعادت المرأة وعيها أكّد لها ممدوح أنه سيبقى معها حتى يتمّ عمل كافة الأشعات للاطمئنان على حالة الجنين وعليها، وإصلاح ما أصاب سيارتها، إلا أنها فاجأته بأنها لا تنكر خطأها أيضًا، فهو ليس المتسبب الوحيد في الحادث. عرض عليها أن يُحادث زوجها أو أحد أقاربها، لكنها رفضت قائلة إنها تشعر أنها بخير، ولا ترغب في إثارة قلقهم عليها لأنها حامل في الشهر السابع، وتخشى ألا يستطع زوجها تفهّم الأمور مما قد يُعقّدها.

ظن الجميع أن ذلك اليوم قد انتهى، بعد أن بدا وكأنه أطول أيامهم؛ عند عودة ممدوح الذي أخبرهم بأنه قام بقيادة سيارة المرأة وتوصيلها إلى منزلها، بعد

أن أكّدت الأشعة أن الجنين بخير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان أحد أيام الصيف، حيث يقلّ حجم العمل بالمكتب مقارنة بالأوقات الأخرى من العام، وقد جلست منتهى أمام مكتبها تقرأ بتركيز مجموعة قصصية لنجيب محفوظ بعنوان «خمارة القط الأسود».

كان حمدي قد أعفاها من وظيفة إدخال البيانات، لتتفرغ للإدراة وتوزيع المهام بين الموظفين، ثم متابعة الانتهاء منها، وتسليمها إلى العملاء، وتسجيل الإيرادات والمصروفات.

لم تنتبه إلا على صوت صليل، بدا قريبًا للغاية من أذنيها، رفعت رأسها لتقع عيناها على رجل قد تجاوز الخمسين من عمره، يتداخل الشعر الأبيض فوق رأسه مع مثيله الأسود في هيئة مجعّدة، سلسلة مفاتيحه تهتزّ بين إصبعيه هزّات متتالية، فابتسمت له ابتسامة واسعة.

ـ آسفة، لم أنتبه لدخول سيادتك.

ـ بدوتِ منهمكة في القراءة أيتها الفاتنة الصغيرة، معي خمس ورقات أريد أن أكتبهم على عجل، هل هذا ممكن؟

مدت إليه أصابعها وما زالت نظراتها متعلقة بتقاطيع وجهه الكبيرة، ثم ألقت نظرة سريعة على الورقات الخمس:

اممم، الخط غير واضح، وبعض الكلمات تنقصها أحرف.

ـ خطي سيء، أعلم ذلك، سكرتيرتي الخاصة فاجأتني بغيابها اليوم، وهي الوحيدة التي تستطيع حلّ طلاسم خطي.

قالها مبتسمًا ابتسامة متوترة وهو ينفث دخان سيجارته.

ـ إن بقيتَ هنا سأنجزهم لك في بضع دقائق.

استعانت به في توضيح بعض الكلمات التي استعصت عليها قراءتها، فأبدى إعجابه بسرعتها في الكتابة وإنجاز المهمة.

ـ تبدين لي كملاك نزل من السماء خصيصًا لطباعة مقالي.

ـ لي الشرف أستاذي أن أكتب مقال سيادتك قبل نشره.

ـ أنتِ تعرفينني إذن؟!

ـ بالتأكيد، أستاذ ياسين وهبة، الكاتب الصحفي ورئيس تحرير جريدة الحياة المصرية، لا أظن أن هناك من لا يعرفك.

قال مداعبًا:

الآن تأكدت أنكِ لا تقرأين لنجيب محفوظ صدفة، أنتِ إذن مثقفة محترفة ولستِ هاوية، الغالبية يعرفون أسماء الكتّاب والصحفيين، لكن المثقفين بحق هم من يعرفون صورهم.

بدأ معها حوارًا لم يكن قصيرًا ـ مقارنة بأنه كان على عجالة ـ حول دراستها، وقراءاتها، وزاد إعجابه بها عندما علم أنها طالبة بكلية الإعلام قسم الصحافة.

كانت تعرفه جيدًا، فهو صحفي ذو مكانة متميزة، وصاحب العديد من الآراء التي تُقابل بالكثير من المعارضة وتُثير حوله اللغط.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حينما أوشك العام الدراسي الجامعي الجديد على البدء، أبدت منتهى لحمدي رغبتها في معاودة العمل كمدخلة بيانات كما كانت تعمل من قبل ،لأنها لن تستطع العمل بنظام اليوم الكامل كما كانت تفعل فترة الإجازة، إلا أنه طلب منها أن تستمر في إدارة المكتب، فقد استطاعت تحقيق إيرادات جيدة في الفترة الصيفية، وتمكنت من تنظيم العمل بكفاءة، «يبدو أن لديكِ شيئًا ساحرًا يمنح العملاء الثقة فيكِ»، حينما نطق حمدي بجملته الأخيرة تعجبت مُنتهى، فلم تكن من عادته مدح شيء على الإطلاق، كان شخصًا لا ينفعل ولا يتفاعل، لم تستطع حتى أن تحدّد إن كان يحب الآخرين أم يكرههم، فقط عرفته منعزلًا.

بعد نقاش لم يطل اتفق معها حمدي على أن تبقى مديرة للمكتب، تعمل في اليوم ستة ساعات تختارهم حسب جدول دراستها، وسيعطيها ثلثي المبلغ الذي كانت تتقاضاه في الصيف عن العمل بدوام كامل. بدا الاتفاق مرضيًا لمنتهى، كل ما في الأمر أن ساعات نومها يجب أن يتم تقليصها إلى الحد الأدني حتى يتوفر لها وقت للعمل ومذاكرة دروسها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ازدادت أعباء محمود منذ أن اشترى السيارة، لما لها من احتياجات بنزين وصيانة وغيرها، بينما استنفد في شرائها كل ما انطوى عليه دفتر توفيره، لذا قرر أخيرًا أن يعمل، فحصل على وظيفة في قسم التسويق بشركة سياحة، رشحه للعمل بها شهاب المعزاوي، لمعرفته المسبقة برئيس مجلس إدارتها. لم تُؤهّل محمود شهادته سوى للعمل كموظف صغير في قسم السياحة الداخلية، كان عمله يتلخص في التسويق للبرامج السياحية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة مساءً بينما تجلس منتهى في الميكروباص ذي الحركة الدودية، وقد أسندت رأسها المتعب إلى زجاج نافذته في طريق عودتها إلى المنزل، عندما شاهدت محمود يقود سيارته الصغيرة بينما تجلس إلى جواره امرأة لم تتبين ملامحها. ألصقت رأسها بالنافذة المغلقة لتراهما بوضوح، لكن سيارة أخرى حالت بينها وبين سيارة محمود الذي رأته يضحك ملء شدقيه، فانقبضت دون أن تدري السبب.

بعد عودتها للمنزل جلست فوق مكتبها العتيق تنظر في كتاب أمامها، بينما النقرات المتتابعة تصدر عن القلم بيمينها لتُنبّئ عن انشغالها بأمر ما، عندما عاد محمود ألقى عليها تحية المساء، ثم طلب منها أن تغادر الغرفة حتى يقوم بتغيير ملابسه، فتعاود الدخول بعد أن ينتهي.

ـ ألن تستذكر دروسك يا محمود؟ لقد شارف العام الدراسي على الانتهاء دون أن أرى منك مجهودًا يُبذل في المذاكرة!

ـ سأبدأ.

قالها دون اهتمام، بل ودون أن ينظر إليها.

ـ شاهدتك منذ قليل في سيارتك بينما امرأة إلى جوارك!

عقد محمود حاجبيه، وتشاغل بوضع ملابسه في خزانة الملابس العتيقة. عدم رغبته في الحديث زادت من إحساس منتهى بالتوتر.

ـ من كانت يا محمود؟

ـ عميلة.

ـ هل تواجدك مع عميلة يكون في الشركة أم في السيارة؟!

ـ كانت في مشكلة وكنت أحاول مساعدتها.

قالها وهو يزفر، أرخت رأسها، وحاولت أن تُبرّر:

ليس لي سواك يا محمود، أنت ابني الذي أكبره بأحد عشر شهرًا، وصديقي الذي أحمله داخل قلبي، أنا لا أسألك تطفلًا ولا تدخلًا، ولكني ما زلت أحتاج أن أكون قريبة منك، ما زال بيننا حبل سُرّي لم ينفصل بعد، فلماذا تتعجل قطعه؟!

قالتها بصوت أنهكه التأثّر.

ـ دومًا تُشعرينني بأنني ما زلت صغيرًا، بينما لم أعد كذلك يا منتهى! لديك دومًا مصادرة مسبقة لكافة أفكاري، تصرفاتي، وربما أحلامي، أعلم أنكِ أكثر

من يحبني في الحياة، لكنّ الحب وحده لا يكفي!

ظلت تنظر إليه بعينين معاتبتين، فاستطرد يقول:ـ

لكم أشعر أنني ممزق! فلي أم تُجيد دور القريبة، ولي شقيقة مصرّة على أنها أمي، فلا أجد عند الأولى بُنوّتي، ولا أجد لدى الثانية شقيقتي التي أحتاج إليها، ورغم هذا سأخبرك من هي العميلة التي كانت تجلس إلى جواري.

ظلت منتهى منصتة، بينما ذكر لها محمود أن من كانت تجلس إلى جواره هي ماتيلدا التي تعرّف عليها صباح اليوم فقط، في زيارة تسويقية كلفته بها الشركة لأحد المراكز المتخصصة لتعليم اللغات، حيث تقوم هي بإدارة المركز، وهي إيطالية مصرية، أمها مصرية وأبوها إيطالي، وبرغم أنها لم تتعرّف إليه سوى منذ ساعات لكنه فوجىء بها تهاتفه في المكتب لأنها تعرضت لمشكلة وتنشد مساعدته. ـ تعرفك فقط صباح اليوم، وتطلب منك المساعدة في المساء؟! أليس هذا بالأمر العجيب؟

رمقها بنظرة حادّة، ثم قال:

لن تتغيري يا منتهى! لا تستطيعين تقمص دور الصديقة أو الشقيقة ولو لبعض الوقت.

كان قد استلقى على فراشه بينما سحب غطاءه واختفى تحته بعد أن تمتم بكلمات لم يهتم بأن تكون واضحة.

ـ تصبحين على خير!

ظلت منتهى تحملق في رسومات مبهمة تفترش ذلك الغطاء كالح الألوان، الذي اختبأ تحته صغيرها مدّعيًا النوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بمجرد عودة منتهى إلى المنزل ذات مساء، ألقت التحية على أبيها وزوجته، بينما همّت أن تنادي على دنيا ودينا لتمنحهما قطع الحلوى التي اعتادت أن تأتيهما بها، ناداها أبوها بعد أن أشار إلى زينب لتخفض صوت التلفاز، ثم قال:

الأستاذ حمدي كان هنا منذ قليل.

نظرت إليه واجمة وقد بلغت الدهشة من تعبيرات وجهها مبلغًا.

حمدي من؟!

ـ صاحب المكتب الذي تعملين به!

رأت أبوها يتبادل نظرات غير مفهومة مع زينب، التي كانت تحاول كتمان ابتسامتها.

ـ لقد رأيته اليوم، ولم يحدّثني أبدًا أنه سيأتي إلى منزلي، لماذا أتى؟ هل هناك مشكلة ما؟ ثم من أين أتى بعنواني؟!

امتقع وجهها وهي تنطق جملتها الأخيرة.

ـ الأمر بسيط، اجلسي.

جلست وقد بدا عليها الاضطراب، سادت لحظات من الصمت تنحنح فيها أبوها ثم قال:

رقم هاتف البيت كان مسجلًا عنده.

تذكرت منتهى فعلًا أن حمدي طلب منها في أول يوم لاستلام العمل رقم الهاتف المنزلي، وصورة بطاقتها، مع بعض البيانات الأخرى التي يطلبها دومًا من كل من يعمل في المكتب.

ـ حدّثني هاتفيًا بالأمس وطلب مقابلتي.

ـ لماذا؟ وإن كان الأمر يتعلق بتقصيري في العمل فلماذا يُشيد بعملي، و...

قاطعها منصور:

الأمر بعيد عن العمل.

ـ بعيد عن العمل؟! وهل يجمعني به أي شيء بخلاف العمل؟

قالتها مستنكرة.

ـ جاء الرجل من أجل خطبتك.

للحظات تجمّد كل شيء فيها؛ تفكيرها، أطرافها، نظرات عينيها العسليتين.

ـ من يخطب من؟!

قالتها ذاهلة، فتدخلت زينب قائلة:

لم تعودي صغيرة يا منتهى، صرتِ عروسًا جميلة، وها هم الخُطّاب يدقّون الأبواب.

قاطعتها منتهى:

أنا طالبة في الجامعة ولست عروسًا، ثم إن الأستاذ حمدي لم يفاتحني يومًا في شيء من هذا القبيل، وإن فعل لوفّر على نفسه وعليّ هذا الموقف

العجيب، فأنا أذهب إلى مكتبه لأعمل لا لأتزوج.

قالتها وكأنها تدرأ عن نفسها تُهمة.

ـ الرجل لم يقل سوى هذا، قال إن ما لفت نظره إليكِ هو جديتك وحسن خلقك، كما أنه لم يفعل سوى دخول البيت من بابه.

قالها أبوها دون أن يخفى عليه التوتر والضيق البادیان على ابنته.

ـ لا داعي للتسرع بالرفض، أراه رجلًا ممتازًا.

ـ ممتاز؟!!

اتسعت حدقتاها وهي تقولها باستهزاء، بينما استطرد أبوها متجاهلًا استنكارها:

شاب محترم أنهى دراسته الجامعية يبلغ من العمر ثلاثين عامًا، الابن الوحيد لأمه التي أفنت عمرها في تربيته وشقيقه بعد وفاة والديهما، كما أن لديه عمله الخاص الناجح، ويعلم مدى تمسكك بدراستك الجامعية، لذا فهو مستعد لأن تتمّ الخطبة الآن، ثم لا يتمّ الزواج إلا بعد انتهاء دراستك.

ـ لم أدخل الجامعة لأُخطب وأتزوج بمجرد انتهائي منها، أنا لا أُفكّر بهذه الطريقة!

قاطعها منصور، وقد نفد صبره الذي لا يملك منه إلا اليسير:

لقد قلت له إنني لن أرد عليه قبل أسبوع، فلا تتعجلي الرد!

نهضت في رغبة منها لإنهاء موقف لا تريد الاستمرار فيه:

سأذهب لأنام!

قالت زينب:

سآتي إليكِ بعد أن تقومي بتغيير ملابسك.

تحركت منتهى إلى غرفتها، تهاوت فوق كرسي المكتب، وضعت وجهها بين كفّيها وأجهشت في البكاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع

علا نحيبها، بينما هجمت عليها الأفكار تكاد تأكل رأسها أكلًا بلا هوادة، لماذا كلما ظنت نفسها هربت من مأساتها تجد نفسها وجهًا لوجه أمامها، تلك المأساة التي ترفض الإفصاح عنها، تتكاتف الظروف عليها لتؤكّد لها كم تحتاج إليها حتى وإن أنكرت، احتياجها لها يختلف كثيرًا عن احتياجها لجدتها أو يسر، لماذا تحاصرها ظروف بعينها تضغط عليها لتصرخ «أحتاج إلى أمي!»

تفتقدها اليوم كافتقادها لها وهي طفلة صغيرة تنتفض فوق سرير متهالك يرتجّ بها، بينما تصطك أسنانها من فرط برودة تدغدغ جسدها الواهن، وتسمع الدكتور فؤاد يقول إن حرارتها قد تعدّت الأربعين، وصوت محمود المرتعش يخترقها، تسمعه دون أن تستطيع فتح عينيها المثقلتين.

ـ لماذا تبكين يا منتهى؟ لماذا تسيل دموعك؟ ستتحسنين يا شقيقتي!

يقول هذا ثم ينفجر في البكاء، لم تخبره وقتها أنها لا تبكي من فرط المرض لكنها تبكي احتياجًا لأم لم تعرفها ولم ترها.

لم تستطع تجاوز احتياجها إليها في يوم بعينه، عندما تجاوزت الثانية عشرة من عمرها بقليل، حينما دخلت إلى حمام المدرسة فصُعقت لرؤية بقع حمراء في لباسها الداخلي الأبيض، ارتجف يومها جسدها كله حينما حدّقت في تلك البقع وتأكدت أنها قطرات من الدماء، علمت فيما بعد أنها تُنبّأها بانتقالها من طور الطفولة إلى مرحلة الأنوثة.

تمنت أيضًا لو كانت إلى جوارها لتسألها عن التوقيت المناسب لها كفتاة لإزالة الزغب الصغير الذي صار ظهوره في أنحاء متفرقة من جسدها يبعث في نفسها خجلًا.

كان إحساسها بالاحتياج إليها في أحيان كثيرة يدوي في روحها بنداءات لها صدى مخيف، لكن لم تجد أبدًا من يُسكتها أو يجيبها.

حينما كانت ترى أمهات زميلاتها يأتين لمقابلة المدرسين للاطمئنان على مستوى بناتهن الدراسي، فتنتشي بعض الفتيات لقدومهن، بينما يضيق صدر معظمهن لنفس الأمر؛ كانت ترقب ذلك في حسرة، وإحساسها بالفقد والاحتياج يتضاعف.

ذات مرة حكت لها إحدى صديقاتها في المدرسة بتأثّر بالغ عن أبيها الذي ضربها بالأمس، ولولا أمها التي وقفت بينهما كحاجز منيع، وتلقت كل الضربات التي كالها أبوها لها لرقدت في البيت لأيام طويلة، سالت دموع منتهى في صمت، فسألتها صديقتها محدّقة فيها:

هل أفزعك أن أتعرض للضرب؟ ألم تتعرضي له يومًا؟ لكم أنتِ مُرفّهة يا منتهى!!

لم تسمع أنين دموع منتهى، كأنها تقول كم من الرائع أن يكون لديك درع واقٍ في صورة أم، وتجسّدت أمامها صورة عنايات وهي تجري خلف محمود لتكوي مؤخرته، تجلت أمام عينيها كمشهد سينمائي يتحرك ببطء شديد على شاشة سنيما عملاقة، فقالت:

نعم عشت ومحمود طفولة مرفّهة جدًا، الحمد للـه!

بلغ شعورها بالاحتياج لأمها ذروته حينما حدث ما لم تتصّور تعرضها له، كانت وقتها طالبة في نهاية المرحلة الإعدادية، واحتاجت لدرس في مادة الرياضيات، مجرد بضعة حصص قليلة للمراجعة قبيل الامتحانات، كانت المرة الأولى والأخيرة التي تقرّر فيها اللجوء للدروس الخصوصية. اختارت أستاذها في المدرسة، زميلاتها يأخذن عنده درسًا خصوصيًا، فقررت أن تنضمّ إليهن. تذكر ذلك اليوم جيدًا، انتهى وقت الدرس في منزل الأستاذ، وعندما حان موعد انصرافهن غادرت مع زميلاتها، لكن أستاذها ناداها بينما كانت تنزل الدرج لتعود، عندما صعدت أخبرها أنه يريد أن يعطيها بعض الأوراق التي تحوي المزيد من المسائل الهامة، مدّ إليها يده بالأوراق وطلب منها أن تنظر فيها، استشعرت أنفاسه تلفح وجهها، رفعت عينيها من فوق الأوراق فوجدته أقرب مما تتصوّر، وشعرت بأصابعه تلمس جسدها. سقطت الأوارق من يدها، قفزت الدرج قفزات سريعة هربًا وفزعًا واشمئزازًا من كل شيء، وحينما وصلت إلى المنزل تكوّرت في سريرها ودفنت نفسها تحت الغطاء، شعرت يومها بأنها تكره نفسها، تكره كونها فتاة، تمنت لو أن لها أمًا لتسألها عن الخطأ الذي ارتكبته ليفعل مدرسها ما فعله، تمنت لو تخبرها لماذا اختارها هي دون سائر زميلاتها، تمنت لو تُعلّمها كيف تحمي نفسها، ظلت في فراشها وقد لزمها مغص شديد منعها من تناول أي طعام لأيام.

إنها تحتاجها اليوم بقدر حاجتها لها في كل المرات السابقة، تحتاج لمن لم تجدها يومًا كأم حتى بعد ظهورها على مسرح الحياة بعدما اختارت البقاء بعيدة طويلًا، عادت لا لتُلبّي احتياجات ابنين يفيضان بالحرمان، بل عادت مكتفية بنظرات تمثيلية مصطنعة، مدّعية أنها تفيض بالشفقة وقلة الحيلة، هكذا شعرت بها منتهى.

الليلة أيضًا يسحقها نفس الإحساس بالاحتياج، تريد فقط لو تعلم منها شيئًا عن ماهية ذلك الشعور الخانق الذي يجثم فوق صدرها، تتمنى لو استطاعت أن تسألها أسئلة لا يمكنها أن تهمس به لشخص سواها، هل أنا فتاة طبيعية؟ هل كل فتاة يتقدم إليها خاطب لأول مرة يغتالها هذا الشعور بالضيق

والحزن؟ هل أنا مادة خام للفتاة المعقّدة؟ هل نجحت ظروف حياتي في أن تصنع مني فتاة ليست كالفتيات؟ ظلت دموعها تأبى أن تتوقف، بينما يعلو صدرها وينخفض متهدّجًا.

سمعت وقع خطوات زينب، فشلت محاولتها لتجفيف دموعها وإخفائها.

اتسعت حدقتا زينب حينما وقعت عيناها على منتهى، وقالت في فزع وهي تضرب صدرها بكفّها:

بسم اللـه! خيرًا اللهم اجعله خيرًا، ماذا حدث يا منتهى؟! ما الذي أصابك، عيناكِ تبدوان كجمرتي نار!

شهقات من صدر منتهى تخونها رغم محاولاتها لكتمانها، خصلات شعرها تلتصق بوجنتيها مختلطة بدموعها.

ـ هل أنتِ على علاقة بزميل لكِ في الجامعة، لذا أفزعكِ تقدّم هذا العريس لخطبتك؟

ألهبت كلماتها مشاعر منتهى من جديد.

ـ لا أكاد أُصدّق ما تقولين!! هل تتصورين أن حياة كل الفتيات كما تشاهدونها في الأفلام الخائبة التي تجلسون أمامها ليل نهار؟! هل تظنين أن كل الفتيات تتلخص حياتهن في غرام وحصان أبيض يمتطيه فارس مصطنع، وحلم أجوف بحياة مترفة، ألا توجد فتيات يبحثن فقط عن مجرد حياة؟!

لم تفهم زينب كلمات منتهى، بدت لها وكأنها طلاسم، «إن كنتَ ترغب في قول شيء لزينب، بسّط كلماتك، وقله مباشرة، ألبس كلماتك ثوب البراءة كي تصل إلى عقلها بسلام»، كانت تلك وصفة محمود لمخاطبة زينب، يقولها محاولًا كتم ضحكة ودّت لو تخرج عالية لولا نظرة زاجرة من منتهى.

جلست زينب على طرف السرير، وقالت في كلمات خرجت بطيئة كعادتها:

ـ لا أدري ما الذي يزعجك في خبر تقدّم الأستاذ حمدي لخطبتكِ، هل شهدتِ من أخلاقه أو سلوكه ما يثير غضبك؟

حرّكت منتهى رأسها يمنة ويسرة بالنفي.

ـ وتقولين أنكِ لستِ على علاقة بآخر!

ـ الأمر لا يتعلق به ولا بسواه!

بمن يتعلق الأمر إذن؟ يا منتهى لقد دخل الرجل البيت من بابه، يبدو أنه مفتون بكِ، مستعد لكافة طلباتك، وأبوك يراه فرصة مناسبة للغاية، كما أنكِ

في سن مناسب للخطبة، فأنتِ تجاوزتِ العشرين من عمرك، والرجل يوافق على إتمامك لدراستك الجامعية، إذن أين المشكلة؟ أبوكِ حمله ثقيل، دينا ودنيا ما زالتا صغيرتين، زواجك سيبعث في نفسه شيئًا من الراحة والاطمئنان، فكّري ولا تُضيّعي على نفسك فرصة ممتازة ظنًا منك أن أخرى سوف تأتي!

ـ أريد أن أنام!

خرجت زينب من الغرفة مستسلمة، بينما فتحت منتهى دفتر مذكراتها وكتبت بأنامل مرتعشة:

«يطمئن عليَّ أم يتخلّص مني، دومًا أنا حمل ثقيل مهما حاولت تحمّل أعبائي وحدي، ربما أرعبتني فكرة الزواج لأن الجميع يقول إنني صورة منها، وأنا لا أريد أن أكونها، ربما أخشى أن أتزوج وأنجب ثم أكتشف فجأة أن تلك لم تكن رغبتي، أو أن هذا الرجل لم يكن حلمي، فأقرر أن أفرغ حمولتي على قارعة الطريق وأذهب، حمولتي التي قد تتمثل في ابن أو ابنة ليس لهما ذنب لأسلبهما متعة البنوة، ورجلًا أتركه محطمًا لأن ذنبه كان قراره بمنحي اسمه ذات يوم، لا أريد أن أكونها. هل صرت معقّدة؟ لا أدري! لكنه الاحتمال الأكبر».

ثم أغلقت مذكراتها ونامت في كمد شديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في صباح اليوم التالي اتصلت هاتفيًا بالمكتب، تمنت ألا يجيبها حمدي، تمنت لو يقوم آخر بالرد على الهاتف، لكن جاءها صوته، أبلغته بكلمات مقتضبة اعتذارها عن الحضور اليوم.

بدا صوته متوترًا على غير عادته:

ـ هل هناك خطب ما؟

ـ متعبة قليلًا.

ـ هل.. هل.. هذا بسبب زيارتي لكم بالأمس؟ هل تصرفت بطريقة أزعجتك؟!

ارتبكت منتهى، فلم تكن مستعدة لمناقشة الأمر.

ـ فقط أنا متعبة.

ستأتين غدًا، أليس كذلك؟

ـ بإذن اللـه.

تمنت يومها ألا تذهب إلى ذلك المكتب ثانية، تمنت ألا تلتقي حمدي، تمنت لو بقيت قابعة في البيت، لكن أنى لها أن تفعل! فزينب لن تكفّ عن الثرثرة، ومنصور لن يتركها لحالها، سيجلدها بسوط نقده وكلماته الحارقة، إذن فلتذهب غدًا إلى الجامعة، ثم إلى المكتب، لتواجه ما تكره مواجهته.

حينما توجهت إلى المكتب تنفست الصعداء حينما لم تجده هناك.

انخرطت في متابعة ما تم إنجازه من العمل في اليوم السابق، واتصلت بأكثر من أستاذ جامعي للحضور لاستلام أوراقه التي تم الانتهاء منها.

حينما وقعت عيناها على حمدي متقدّمًا نحوها، حاولت التشاغل بفحص الدفتر الذي أمامها، لكنها سمعت صوته يحييها، فردّت تحيته، وقد رفعت عينيها نحوه للحظة، ثم أعادتها بين طيات الدفتر من جديد.

مشّط بعينيه خصلات شعرها الكستنائي التي تلامس خدّها الحريري قبل أن تُلامس سترتها الوردية، فتعكس ضيّها على بشرتها وتزيدها جمالًا، ثم طلب منها أن تسمح له بالقليل من وقتها ليتحادثا.

لم يتبادلا يومًا حديثًا خارج حدود العمل، كان منغلقًا على نفسه، توطدت علاقتها ببعض زملائها، لكنها لم تكن يومًا قريبة منه، فهو دومًا في منأى عن الجميع.

ـ لماذا أنتِ يا منتهى؟ بالتأكيد هذا هو السؤال الذي ترغبين في طرحه عليَّ.

نظرت إليه ولم ترد، فاستطرد وهو يحرّك نظارته الطبية مربعة الإطار:

أنا نفسي لا أدري لماذا أنتِ، لا أنكر أنني فكّرت في الزواج منذ سنوات، لكن في كل مرة يتم ترشيح عروس ذات مواصفات ممتازة من وجهة نظر المرشِّح، أذهب لرؤيتها لكن بمجرد انتهائي من المقابلة الأولى لا أجد في نفسي رغبة للعودة من جديد.

طلب منها أن يتوجها سويًا إلى غرفة كانت تخلو وقتها من الموظفين، تقدمها بينما سارت خلفه في خطى متثاقلة، شعرت بنفسها وكأنها تسير في طريق مجهول موحش تخشاه.

وفي غرفة تم طلاء جدرانها بلون أصفر فاقع ترك حمدي بابها المطلي بالأزرق الصارخ نصف مفتوح. جلسا متقابلين، رفعت عينيها إليه فالتقت بعينين زائغتين، رأت حمدي في ذلك اليوم مختلفًا كثيرًا، ملامحه تلك التي بدت لها طوال الفترة السابقة جامدة وخالية من التعبيرات، ها هي يكسوها مسحة غريبة من الحزن، وها هو صوته الذي لم تسمع له سوى طبقة واحدة

يحمل بين طياته قلقًا لم يستطع إخفاءه، بدا لها مسترسلًا في حديث لا تدري متى ستنضب كلماته، كان يتحدّث من خلال نظرة رجاء لم تستطع تجاهلها.

ـ لا أدري لماذا شعرت نحوك بما لم أشعر به تجاه أحد من قبل، شعرت بشيء من الثقة فيكِ، والرغبة في أن تبقي معي، أنا رجل ليس لي أصدقاء، لقد فقدت أبي صغيرًا، فزعت أمي بغيابه المفاجئ عنا، فأغلقت كل الأبواب على ثلاثتنا، هي وأنا وأخي الصغير علي، كانت تخشى علينا من كل شيء، ربما ظنت أنها عندما ستفعل لن يستطيع الموت أن يتسرب إلينا فيلتقط أحدنا كما التقط أبي الذي لا أذكر منه سوى صورًا باهتة بعيدة، مات أبي حينما كنت في السادسة من عمري وكان أخي ما يزال جنينًا في الشهر الخامس يسكن رحم أمي، لا أدري هل كان هذا الخوف العملاق يسكن أمي طوال عمرها أم إنه وحش انقضّ عليها بسبب فقدان أبي، حقًا لا أدري! لكن ما أنا موقن منه أن الخوف كان رابعنا. ذكرت لي أمي فيما بعد أنها تردّدت طويلًا في إلحاقي بالمدرسة، فكّرت ما الذي سيُضيرني إن لم أذهب إليها! فلقد ترك لها أبي هذا المنزل، الذي عشنا على عائد إيجاره، ثم صار لنا ميراث عندما تُوفي جدي لأبي، وكان نصيبنا قطعة أرض تدرّ مبلغًا هزيلًا لكنه كان يصنع الكثير لتلك الأسرة الساكنة بين جنبات الخوف، بعدما قررت أمي أن تحتفظ بي في البيت لتحميني من...

صمت لبرهة، قلب شفته السفلى وقطّب عن جبينه قائلًا:

تصوري إلى الآن لا أدري ما الذي كانت تريد أمي حمايتي منه، لكنها بالفعل احتفظت بي في البيت عامين كان من المفترض أن أكون خلالهما في المدرسة، ظللت حتى الثامنة من عمري أقف في شرفة المنزل، أشاهد بحسرة الأطفال يذهبون ويأتون، يحملون حقائبهم المدرسية الثقيلة فوق ظهورهم الضعيفة فأحسدهم، كنت أراهم يلعبون ويتشاجرون، حتى بكاءهم تمنيته، تمنيت أن أشعر بأية مشاعر، كنت لا أعرف من الحياة سوى صوت أمي وتحذيراتها وبكاء أخي الصغير. إذا طلبتُ منها أن ألعب مع أبناء الجيران تؤكد لي أن جارنا رجل مجنون يصرخ في زوجته وأبنائه طيلة اليوم، وربما ألحق بي الأذي، ربما ضربني، ربما ألقاني من النافذة، ربما... فأصرخ فزعًا وأقول لها كفى.. كفى! أذكر تهوّري في طلبي كي ألعب مع الأطفال في الشارع، ظلت وقتها تحكي لي عن الولد الذي كان يسكن بعد منزلنا بمنزلين فقط وكان يلعب أمام المنزل، لكنه اختفى، فجأة! لقد خطفه المجرمون حرموه من أمه، بالتأكيد قطعوا يده، وربما قدمه حتى يجبروه على التسول. كانت أمي تحكي بينما أنظر إليها مشدوهًا مرتعبًا. ظلت تزرع خوفها بين جنبات نفسي حتى سكنني الفزع بحق، بدأت تهاجمني نوبات مخيفة وأنا في الثامنة من عمري، نوبات ظنتها أمي مسًا من الجن، فذهبت بي مفزوعة إلى

من قالت عنه شيخًا لكن أظنه كان دجالًا، لم تفلح وصفاته العجيبة أحيانًا والمثيرة للاشمئزاز أحيانًا أخرى في أن تُذهِب عني تلك النوبات الملعونة. طافت بي أمي المسكينة على كل المقامات، زرنا آل البيت وأولياء اللـه الصالحين، ذهبنا إلى مساجد وموالد وأضرحة، إلى أن التقينا ذات يوم شيخًا عرف أنها أرملة وأنني يتيم، نصحها أن تذهب بي إلى مستشفى المبرة، نعم في هذه المرة كان شيخًا بحق ولم يكن دجالًا، أتعلمين. ما زلت أذكر ملامح وجهه ولحيته وحتى جلبابه، أذكرها إلى اليوم، كانت أمي تطوف بي هذه الأماكن، وهي تمسك بكفّي جيدًا خشية أن أضيع منها، وتحمل علي فوق كتفها وقد توسد رأسها بينما يشاهد العالم، كملك من فوق العرش أو كقرد من فوق شجرة.

حكاية حمدي ونبرة صوته أيقظت في منتهى فضولها، صارت تُصغي إليه باهتمام، بينما أسندت وجهها إلى قبضة يدها ومرفقها إلى المكتب، إصغاؤها إليه ورغبته في جعلها أقرب، وهباه شعورًا بالاسترسال في الحديث.

ـ نصحها الطبيب ـ الذي سألني عن عمري وعن صفي الدراسي، ربما ليتأكد من سلامة قواي العقلية ـ بأن تتركني أذهب الي المدرسة، وأعيش حياة طبيعية، فهو يعتقد أن ذلك سيأتي بفائدة، قال لها إن هذه النوبات سببها نفسي وليس عضويًا. على مضض قررت أمي الخائفة إلحاقي بالمدرسة. في اليوم الذي سبق ذهابي الي المدرسة حدث شيء عجيب، كنت كعادتي أقف في الشرفة التي كانت متنفسي الوحيد في محبسي، رأيت ولدًا في مثل عمري يعبر الشارع على عجل بينما سيارة مسرعة تصدمه بجنون، رأيته يطير عاليًا، شهقت، شعرت أن قلبي قفز من حنجرتي بلا عودة، رأيت الولد غارقًا في دمائه فوق غطاء السيارة الأمامي، سمعت صرخات المارة، ورأيت انهيار قائد السيارة ولطماته المتتالية على وجهه. هرعت إلى الداخل وأغلقت باب الشرفة بإحكام، أغلقت الزجاج، كنت أنتفض انتفاضات متتالية من هول المنظر، لكنني كنت حريصًا كل الحرص على ألا تعلم أمي بأمر هذه الحادثة، فلو أطلّت برأسها ورأت ما رأيته ما تركتني أذهب في الغد إلى المدرسة، بل ما تركتني أذهب اليها أبدًا. ظلت أمي لفترة طويلة تقوم بتوصيلي إلى مدرستي، التي لا تبعد عن المنزل سوى دقائق قليلة، حيث نصل إليها سيرًا على الأقدام، لكنها كانت تحمل علي شقيقي فوق كتفها، رغم أنه صار يجيد المشي! وتحمل كيس طعام له، وتنتظر منذ الصباح أمام المدرسة حتى يأتي موعد خروجي، وكأنه سيهبط كائن فضائي لينتشلني أنا وحدي من بين مئات الطلاب ليذهب بي إلى حيث لا تستطيع أمي الوصول إليَّ مرة أخرى. أربكني كثيرًا خروجي المفاجئ من عالمي الضيق للغاية إلى عالم أكبر وأوسع كثيرًا مما تصورته، وبرغم كوني أكبر زملائي في الفصل بأعوام، إلا أن هذا لم يمنحني شعورًا بالتميّز، فقد كنت أشعر دومًا أنني مختلف عنهم، وأن هناك

فجوة في العلاقة بيني وبينهم، معظمهم لا يستريح لوجودي، ربما لأني أفوقهم طولًا وبنيانًا. ظلت حكايات أمي المفزعة، وصوتها الذي يُنبئ دومًا بخطر قادم؛ يسكن عقلي الصغير فأزداد تقوقعًا، وبرغم عدم اندماجي في عالمي الجديد، إلا أن النوبات لم تزرني بعد التحاقي بالمدرسة.

الاهتمام والتعاطف والإنصات العميق الذي ارتسم فوق ملامح منتهى جعل حمدي يستفيض دون توقف.

ـ يبدو أن أمي خافت على أخي الصغير مما أصابني، فألحقته بالمدرسة بمجرد بلوغه السادسة من عمره. كان علي يختلف عني كثيرًا، كان جميلًا، خفيف الظل، متمردًا، مشاغبًا، قويًا ـ رغم طيبته التي أعلمها عنه ـ إلى تلك الدرجة التي كانت تُذهلني وتجعلني أتساءل من أين أتى أخي الصغير بكل هذه القوة والجرأة، سَبّب علي لأمي الكثير من الإحباطات، كانت كل تصرفاته تُعانِد خوفها عليه لكنها لم تقتله، بل على العكس كانت تزيده اشتعالًا. كبر أخي، وكبرت طموحاته، كبرت احتياجاته، وكنت قد بدأت العمل كموظف في الضرائب، فبدأت أحوالنا المادية تتحسن بعض الشيء، لكن ذلك لم يكن مُرضيًا لعلي، فبدأ يحدّثنا عن رغبته في السفر للخارج للعمل، أو للهجرة أو للحياة على حد قوله، بينما كانت أمي تصرخ من كلماته، تدعو له بالهداية وجسدها ينتفض كطائر مذعور. عندما اقترب علي من الحادية والعشرين من عمره، صار أكثر تودّدًا إلى أمه، وبدأ يستقطع من وقته الكثير ليقضيه معها، بل ومعي أيضًا، فظنت أمي أن اللـه قد استجاب لدعواتها فهداه. وقتها أخبرني علي لأول مرة أنه لطالما تمنى أن يكون مثلي، أن يحيا راضيًا أو مستسلمًا لأقداره، لكنه أبدًا لم يستطع أن يكونني، قال لي إنه حاول أن يَقنع بتلك الحياة التي لا أرى فيها أية غضاضة، لكنه ذلك الطموح اللعين الذي يسكن داخله، ويجذبه للتطلع إلى حياة أخرى أكثر حرية وسعادة. وبعد حديثنا الطويل هذا بإسبوع حدث ما زلزل حياتنا ودمرها، لقد تأخر علي عن موعد عودته للمنزل، فزعت أمي بينما حاولت أنا الاتصال بأصدقائه فلم أصل إلى شيء، صرخات أمي وفزعها كانا يبعثان في تفكيري شللًا مفاجئًا. هممت بالتوجّه إلى قسم الشرطة للإبلاغ عن اختفائه، لكن بمجرد خروجي من باب شقتنا قفزت فكرة إلى رأسي، فإذا بي أجري نحو غرفته، أقلّب بين أوراقه، وصدق حدسي. لقد وجدت خطابًا منه، تركه في درج مكتبه، رجاني فيه أن أسامحه، وأشفع له عند أمه، لقد سافر إلى إيطاليا ليبحث عن الحياة الأخرى التي يحلم بها، وبمجرد أن تستقر أحواله، سيرسل لنا لنذهب لزيارته وربما للحياة معه. ماحدث بعد ذلك كان هو الأسوأ على الإطلاق، ففي صباح أحد الأيام تسلمت استدعاء من قسم الشرطة، هرعت إلى هناك فطلبوا مني التوجّه للمشرحة، مادت بي الأرض، وتحركت السماء من فوقي، أظنها قد همّت بالانطباق عليّ. وهناك رأيته، كانوا قد انتشلوا جثته الغارقة مع بعض

الشباب في محاولة هجرة غير شرعية. أستطيع أن أخبرك أن حياتي يومها انتهت تمامًا.

انتفض جسد حمدي عندما رأى عينا منتهى مغرورقتان بالدموع وخدّيها الناعمين وقد تضرجتا بالدماء، تقطّع صوته قائلًا:

عندما فقدت علي أيقنت يومها أنني فقدت حلم الأسرة للأبد، لكم حلمت بأسرتين كبيرتين نصنعهما أنا وعلي، تصوّرت كلًا منا قد تزوج لينجب ما لا يقل عن خمسة أطفال ليكونوا نواة لقبيلتنا الكبيرة. بموته أيقنت أن غول الخوف الذي يسكن أمي سيتلهمها بلا هوادة. حاولت أن أخلّصها من بين أنيابه ففشلت، لكم تمنيت أن أحتفظ بها، أن أُبقيها معي، حاولت أن أتشبث بها، فلم يبقَ لي سواها، لكن هيهات أن يتركها الغول لي. أصيبت بجلطة في المخ، ثم بدأ شبح الملعون المسمى ألزهايمر يزحف نحوها رويدًا رويدًا، في البداية نسيت موت علي، ثم نسيت كل ما هو قريب، كانت تسألني هل جاء علي؟ فأضع صوره إلى جوارها فتبستم وتهدأ، ثم بدأت تسألني هل عاد ابنيَّ الصغيران من المدرسة؟! ثم بدأت تسألني عن اسمي، وكيف أسمح لنفسي أن أدخل إلى غرفة نومها؟ ثم نسيت كل شيء حتى مضغ الطعام! منذ سنوات أحضرت إلى منزلنا امرأة ريفيه بسيطة لتلازمها وتقوم بكافة شئونها، تقلبها حتى لا تنهشها القرح، وتقوم بأدق شئونها حتى تبقى نظيفة حلوة الرائحة كما كانت تفعل بنا، أما أنا فأنتظر حتى تنام لأذهب إليها أُقبّل يدها ورأسها وأحتضن صورة علي، وأضع رأسي فوق صدرها فأسمع دقات قلبها الذي لا يكفّ عن الانتفاض.

سالت دموع منتهى التي غالبتها منذ بداية حديثه.

ـ هل تصدقينني لو قلت لكِ إن مجرد ظهورك في أيامي خلال العام ونصف الماضيين كان تطبيبًا لجراحي؟ لا أجيد فن الكلمات حتى أصف ما أشعر به حقًا نحوك. عندما أخبرني والدك أنه انفصل عن والدتك وأنتِ صغيرة، وأنكِ تربيتِ بعيدًا عنها، لا أدري لماذا فرحت، أتظنينني مجنونًا؟! لقد شعرت وقتها أنك ستتفهمين إن ذكرت لكِ ما حكيته الآن، شعرت أنك ستتفهمين مرارات الفقد يا منتهى!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أصرت منتهى على أن تكون الخطبة في المنزل في إطار ضيق، ارتدت فستانًا أرجواني اللون، أهدته لها يُسر، بينما تعجبت زينب رفضها الذهاب إلى محل «الكوافير»، ذلك الذي يقع في البناية المقابلة لهم، وآثرت تصفيف شعرها بنفسها ووضع أقل قدر من المساحيق، قائلة:

إنه بمثابة اجتماع عائلي بسيط وليس حفل زفاف يا زينب!

ظلت عينا منصور معلقتان بالباب، لقد قضى يومه يسأل نفسه هل ستأتي منتهاه الأولى حقًا كما أكّد له محمود!

كملكة متوّجة اخترقت الباب، بدا كل شيء حولها صغيرًا، وبدت أكبر من كل الأشياء، في فستانها الأزرق الأنيق بدت في مثل عمر ابنتها العروس، وأجمل من ابنتها الصغرى التي جاءت بصحبتها.

هرع منصور لاستقبالها رغم أنه كان قد عاهد نفسه على أن يستقبلها ببرود، ولكن نفسه اللعينة نقضت العهد، حينما صافحها غضّت بصرها وابتسامة صغيرة ساحرة بدت خجلى على شفتيها المكتنزتين، هكذا فسّر منصور ابتسامتها.

أرخت عينيها عن عمد، أمرتهما ألا تجوبا تلك الدار التي عاشت فيها عامين من عمرها كي لا يستدعيا ذكريات حرصت على محوها من ذاكرتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«ما زلتِ هنا ولم ترحلي يومًا واحدًا، ما زلت أراكِ في أركان هذا البيت بفستانك القصير البسيط وصوتك الناعم الخافت وذلك الضعف الأنثوي الذي عشقتك لأجله، ونظرة الانكسار تلك التي سكنت عينيك اللتين فشلت في أن أعشق سواهما، ما زلتِ يا منتهى تسكنين هنا، مازلتِ ترقدين كل ليلة إلى جواري في الفراش، تسحقني أنوثتك، ما زلت أعجز عن النوم إن لم أرَ وجهك وإن لم يلتحم جسدي بجسدك، لقد تمثلت كل أحلامي فيكِ وحدك، كنتِ البدء والمنتهى، كنتِ الأزل!

عندما هربتِ مني ورحلتِ عني رحل معكِ منصور رحال الذي أعرفه، قتلتِ يومها بهروبك كل معالم الحياة في نفسي، قتلتِ فيَّ الحلم والأمل بل قتلتِ فيّ مجرد الرغبة في الحياة، لقد قتلتِ منصور الذي أعدّه طه رحال وحلم به ليكون أستاذًا جامعيًا، أو فيلسوفًا، لكن عشقي لكِ وأد أحلامه وأحلامي.

من بعدك ظللت شهورًا أرفض تصديق أنكِ قد خططتِ للهروب مني، رفضت تصديق أنك خدعتيني، وأن ملاكي الضعيف تحوّل فجأة إلى تلك الساحرة الشريرة التي قرأنا عنها طويلًا في قصصنا القديمة الصغيرة، لم أصدّق أنكِ صرتِ تلك الساحرة التي سحرتني وأخضعت عقلي بمفعول كلماتها، ثم عندما تأكدت من أنكِ فعلتِ، استسلمت تمامًا لبحر الحياة، تركت نفسي لتتقاذفني أمواجه كيفما تشاء، كان بداخلي رغبة وحيدة، أن تُغرقني تلك الأمواج، استسلمت للموت، لكن حتى تلك الأمنية رفضت أن تتحقق، ظلت الأمواج العالية تلاطمني، تسحقني بمنتهى القسوة، مثلما فعلتِ أنتِ بي تمامًا، بينما ضنت عليّ بالموت.

كانت أمي وسوسن في قمة السذاجة عندما ظنتا أنني لا أعلم عنكِ شيئًا، لقد كنت أموت كل يوم لأنني أعرف عنكِ كل شيء، لقد سخّرت ما بقي لي من قوة لتتبع أخبارك، نسيت نفسي، نسيت وقتي وعمري، حتى الطفلين نسيتهما لأراقبك، سحقتني خطواتك على البعد، كنتِ الكبوة التي لم أنجح أبدًا في تجاوزها، فانتهت حياتي قبل أن تبدأ وذهب منصور رحال بسببك قبل أن يكون.

كنتِ الحب الذي قتلني يا منتهى، أتريدين أن تعرفي كيف صرتُ اليوم؟ لقد صرت أحيا وبداخلي صدر يمتلأ بقمة العشق لكِ ومنتهى الكراهية أيضًا، وعندما يسكن الحب والكره بكل هذا الحجم ذات النفس البشرية يتحول حاملهما إلى مسخ، نعم هكذا صرت من بعدك يا منتهى مجرد مسخ!»

لكم تمنى منصور لو واتته فرصة في تلك الليلة لينتحي بها جانبًا، ويصرخ تحت عرشها بذلك الاعتراف الذي تئن روحه به منذ عشرين عامًا، لكن لم تطاوعه كرامته، وظلّ البركان المحموم يسحق روحه دون أدنى فرصة في التنفيس! ظلت عيناه معلقتان بها، تتوسلان بلا مُجيب.

بمجرد دخولها استقبلتها يُسر بترحاب كبير، وبالغ محمود في الاحتفاء بها وبسارة.

قدّمت وسارة التهنئة للخطيبين، ثم أخرجت من حقيبتها علبة صغيرة أنيقة قدّمتها لمنتهى، واقتربت منها لتقول في ودّ واضح وابتسامة ناعمة:

سلسلة ذهبية، إنها هدية شهاب لكِ يا مُنتهى، طلب مني إبلاغك بتهنئته، وكذلك سامي، لكنهما في فرنسا لحضور مهرجان سنيمائي.

ثم استطردت تقول:

في حفل الزفاف سنكون جميعًا حولك.

بعد ساعة من حضورها، نظرت منتهى في ساعتها الماسية الأنيقة التي تحتضن معصمها، ثم رفعت ساقها من فوق الأخرى، سارت في خطوات صغيرة نحو الخطيبين وتبعتها سارة، أودعت قبلة رقيقة على وجنة ابنتها العروس، وقالت:

يجب أن نغادر، مبروك حبيبتي.

صافحتها وحمدي، ثم التقت عينا المنتهيين ولسان حال صغراهما يقول «ستظلين مجرد ضيفة! إنه دورك الذي اخترتيه في حياتنا، واخترتيه لنا في حياتك، وترفضين التنازل عنه».

استبدلت منتهى بكلماتها ابتسامة بدت باهتة، وإيماءة فهمتها الأم أنها تتفهّم رحيلهما المبكر.

بتحفظ شديد صافحهما منصور، محاولًا ألا يُبدي شيئًا مما يجيش في صدره.

بمجرد خروج منتهى وسارة بصحبة محمود؛ مالت آمال على زينب التي لم تغادر نظراتها غريمتها منذ وصولها إلى أن رحلت، وقالت بعينين ضاحكتين:

أكاد أسمعك تتنفسين الصعداء عقب مغادرتها!

قالت زينب:

ـ هل يمكن للسماء أن تختار السقوط على الأرض يا آمال؟ أنا لست قلقة على الإطلاق، منتهى هربت منذ عشرين عامًا بلا رجعة!

رأت منتهى ليلتها حمدي منفرج الأسارير للمرة الأولى بعد أن ألبسها قطع الذهب التي تسمى بالشبكة، ووضع الدبلة في إصبع يدها اليُمنى، ثم ضغط على كفّها الغضّ ضغطة خفيفة، وهمس في أذنها قائلًا:

لا أكاد أصدّق أنكِ قد صرتِ لي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العاشر

في الصباح الذي تلا ليلة الخطبة، سمعت منتهى صوت محمود يخترق أذنيها بينما تحاول فتح عينيها بصعوبة، جفناها المثقلان لا يقويان على الارتفاع عن حدقتيها الزائغتين، ورأسها خائر القوى.

ـ منتهى! منتهى! ماذا بكِ؟!

أخيرًا فتحت عينيها، أنفاسها متلاحقة، ضربات قلبها سريعة، وكأنها عدّاءة في سباق طويل.

ـ أكنتُ نائمة؟!

جاءت كلماتها بطيئة هامسة.

ـ أكان منامًا أم كابوسًا أم تخاريف عروس؟

قالها محمود الذي كان يجلس على الفراش المجاور، حاولت رفع جسدها لتُغيّر وضعيتها من الرقود إلى الجلوس، ثم أسندت ظهرها وضمّت ركبتيها إلى صدرها، ودفنت وجهها بين كفّيها.

إنه نفس المنام من جديد، الغرفة المغلقة، المرآة، البخار، تنظر إلى نفسها، تتبينها بصعوبة، تحملق في المرآة، تلك الأخرى ما زالت تقف خلفها تشبهها تمامًا، لم تعد الأخرى صغيرة، كبرت مثلما كبرت منتهى، تنظر إليها بينما تُحرّك منتهى يديها، تقربهما من المرآة، الأخرى لا تفعل مثلها، تقف بثبات، تنفرج شفتيها عن ابتسامة صغيرة، لم تتبين منتهى كُنه ابتسامتها، عاد البخار يتكاثف من جديد هذه المرة. حركات كفّها فوق سطح المرآة تبدو عديمة الجدوى، الرؤية تضيع والأخرى ما زالت خلفها، واثقة هي من ذلك وإن لم تعد تستطع رؤيتها، فالإحساس بوجودها غالب عليها، جاثم فوق صدرها، صوت محمود أخذها، أنقذها، أعادها إلى الحياة.

تذكّرت جدتها، فهي لم تُسرّ بهذا المنام لأحد سواها، ولا تظن أنها ستفعل يومًا.

لماذا هذا المنام في تلك الليلة؟ شعرت بانقباضة في صدرها، وغصّة في حلقها، ولم تقل لمحمود ـ الذي كان ينظر إليها في انتظار التفسير ـ سوى كلمتين:

مجرد منام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما هاتف الدكتور فؤاد ابنته أبدى لها رغبته في لقائها بعيدًا عن منزليهما. همس لها عبر الأثير عن رغبته في أن يجلسا منفردين بعيدًا عن أمها وزوجها وضجيج الصغيرين رغم عشقه لهما.

التقيا أمام قصر محمد علي في المنيل، حيث يقبع كازينو قديم له إطلالة خاصة على النيل، صار متواضعًا لكنه لم يفقد جماله بعد. اختيار أبيها لم يُفاجئها لكنه أوجعها.

لطالما أتت مع أبيها إلى هذا الكازينو، كانا يفعلان كلما رغبا في الحديث منفردين، بعيدًا عن تدخل أمها بأفكارها الريفية العتيقة التي لا تستطيع هداية الاتفاق معها تمامًا، أو الاختلاف عنها كليًا، في هذا الكازينو أيضًا كانت ذكرياتها مع ممدوح، ذكريات ما زالت متشبثة بقلبها الذي لم يهوَ يومًا سواه.

هنا كان حديثها الأول مع أبيها عن ممدوح، لم تجد سواه لتفضفض له بما فاضت به مشاعر تراها دخيلة على قلبها، لم تقل له سوى أنه فجأة ترقّى من زميل إلى صديق، يومها فهم الدكتور فؤاد كل شيء.

إذن ماذا حدث في السنوات الأخيرة؟

سؤال وجهه لها أبوها بمجرد جلوسهما، كانت تعلم أنها ستبوح في هذا اللقاء، قالت دون أن تستطيع إخفاء حزن سكن ملامحها الهادئة:

لا أريد أن أثقل كاهلك بمشكلاتي، إن هذا يخالف رغبتي في أن أهديك السعادة وراحة البال اللتين وهبتهما لي طيلة حياتي، فأنا أتمنى ألا أرهق قلبك الذي يسكن بين أضلع نالت منها أصابع الجراح حينما أجرى لك عملية القلب المفتوح!

من خلف نظارتة الطبية السميكة نظر إليها بتأثر واضح، بينما قال بنبرات صوت تدغدغه أبوة فجّة:

ليس مبررًا يا هداية، يجب أن تكوني واثقة أنني هنا لأجلك، اعلمي أن دور الأب في حياة ابنته لا يقتصر عند مرحلة أو سن، ولا يتوقف عند حالة صحية تخصّه مهما بلغ سوءها، بل ربما يكون احتياج الابنة لأبيها هو كلمة السر الوحيدة التي تنفث فيه الرغبة في البقاء.

لامست عيناها صفحة النهر الذي تغيّر لونه، من الأزرق الصافي إلى الرمادي، لماذا تتغيّر أشياء ظنناها من الثوابت وأنها أبدًا لن تزول؟!

قلقه الواضح، ونبرات صوته، حتى لون شعره الذي تحوّل إلى لون الثلج، وملابسه التي صارت أكثر اتساعًا، أشياء قتلت فيها مقاومتها في الاحتفاظ بأسرارها وأزمتها، فلم يعد أمامها إلا البوح، فباحت..

لا تفهم لماذا حدث ما حدث في مثل هذا التوقيت، لم تتصوّر أن يأتي يوم يخرج فيه الألم من نفس رحم السعادة، هو أول حب لها، هو الحبيب ثم الخطيب ثم الزوج، هو أبو الابنين، ففي الوقت الذي ظنت فيه أن كل شيء قد وصل إلى تمامه مثلما يكتمل القمر؛ بدأت الأزمة في الظهور، كان ذلك في السنة الخامسة من الزواج، لم يكن هناك مقدّمات تسبق الأزمة، وربما كان ذلك هو الأمر الصادم!

بدأ الأمر بتغيّر مفاجئ أصاب ممدوح، تغيّر استشعرته بحاسة الأنثي، لقد غاب ممدوح فجأة برغم حضوره، صار شاردًا على الدوام وكأنه يفكّر في شيء بعيد، عزوفه عنها، خجله أحيانًا من التطلع في عينيها، رغبته في البقاء وحيدًا، تأخّره في العمل، واتصالها به، وملاحظتها بأن تليفونه المباشر مشغول لفترات طويلة بعد موعد العمل، مما بعث الشكّ في قلبها.

ما زالت عيناها فوق صفحة النهر بينما تبوح:

طال الأمر لشهور حدّثني فيها إحساسي بأن هناك أخرى في حياة زوجي الشاب، صارحته فأنكر تمامًا، إصراره على الإنكار ترك لدي شعورًا بأن الأمر قد يتعلق بمصيبة وليس بامرأة، فسألته ألم تقل لي إن موضوع الحادث الذي وقع منذ عدة شهور قد انتهى تمامًا، وأن الأمر لم يتحوّل إلى محضر أو إلى قضية، هل كنت تكذب عليَّ؟! هل قامت المرأة أو زوجها بتصعيد الأمر ولكنك أخفيته عني؟ طمأنني بأن لا شيء من هذا حدث، قال لي إنني يجب أن أتفهم أن الحياة من حولنا قد تغيّرت وأننا لم نعد ذلك الفتى وتلك الفتاة طالبي الهندسة المتحابين، وأننا صرنا أكثر نضجًا، وأن مسئوليات البيت والأبناء قد غيّرتنا شئنا أم أبينا، قال كلامًا مقنعًا متعقلًا كثيرًا، لكنني لم أقتنع به البتة، زوجي قد تغيّر، كانت هذه هي الخلاصة.

إلى أن تحولت شكوكي في يوم ما إلى واقع مرير، والفارق بين الشك واليقين دامٍ. من قال إن الشك حين يتحول إلى يقين يمنح الإنسان راحة هو شخص لم يجرب ذلك أبدًا. يا ليت شكّي ظلّ شكًا، يا ليتني متّ قبل أن يصير يقينًا، يا ليت الحقيقة ظلت غائبة بينما ظلّ الوهم حاضرًا يترنح بين دفات الأمل، يشرق حينًا ويخبو آخر، لقد أيقنت أن بين أحضان الشك تكمن أشياء كثيرة رائعة، وأن في شكّي كمُنَت راحتي، وأن اليقين قد قتلني.

ففي ذلك اليوم هاتفوني من حضانة فؤاد، أخبروني بأن حرارته قد ارتفعت فجأة، وأنني يجب أن أحضر لاصطحابه إلى المنزل، كانت الساعة العاشرة صباحًا، استأذنت من عملي واصطحبت صغيري، وعدت به إلى المنزل، كان نائمًا على كتفي بعد أن أعطيته للتو خافض للحرارة ومسكنًا.

بمجرد أن دلفت إلى الشقة وأغلقت الباب تسمّرت في مكاني حينما سمعت صوتًا في الداخل. لا أحد في الشقة! ممدوح في عمله! لا أملك خادمة! أسرة ممدوح الذين يسكنون نفس المبنى ولديهم مفتاح الشقة لم يستخدموه يومًا دون إخباري! بالتأكيد صعد أحدهم إلى شقتي لكن من؟ هل حماي؟ فالصوت لرجل، اقتربت وكُلّي يرتعش، إن مصدر الصوت قادم من غرفة نومي، اقتربت أكثر، إنه صوت ممدوح، لماذا لم يذهب إلى عمله؟ من معه في غرفة نومي؟ إنها امرأة، أسمعه يحادثها، صوته مُستريح تمامًا، صوت لم أسمعه يخرج من حنجرته منذ فترة طويلة، صوت لا يخرج إلا من حنجرة يدغدغ العشق صاحبها، كتمت أنفاسي، بل حتى أكون أدقّ وصفًا أظن رئتيّ توقفتا ساعتها عن العمل، وأظن قلبي أيضًا قد توقف عن الخفقان، ولم يتبقَ مني على قيد الحياة سوى أذنان ترهفان السمع، ألصقتهما بالباب.

طال الوقت ولم ينتهِ الحديث الذي كان من طرف واحد، تأكدت من كونها ليست معه في الغرفة، صوتها يأتيه عبر الأثير، تحركت بحذر شديد بعد أن خلعت حذائي كي أضع فؤاد في سريره، مفعول المسكن تركه في سبات، كل الأشياء تتآمر كي أعرف، كي يتحول الشك إلى يقين وأتحوّل من حيّة إلى ميّتة.

عُدت دون أن أدري كيف يتحرك الأموات، لكنني تحركت، سمعت كل شيء بوضوح، عرفت الكثير من مكالمة هاتفيه طويلة أسمع فيها طرفًا واحدًا وأخمّن ردود الطرف الآخر، عرفت أنها ليست المرة الأولى التي يأخذ فيها أجازة من عمله كي يُحادثها، كي يلتقيها، العلاقة بينهما ليست مجرد علاقة عابرة أو جديدة، الأمر أعمق.

وكانت الصدمة التي جعلتني أُصدر شهقة وضعت على أثرها كفّي على فمي عندما نطق اسمها! مُستحيل أن تكون هي!

مستحيل!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يتبقَ على تخرّج منتهى من كلية الإعلام سوى شهور قليلة، انخراطها ونهمها في تحصيل دروسها والاستمتاع بمحتواها يستولي عليها، كثيرًا ما طلب منها حمدي أن يذهبا سويًا كأي خطيبين للتنزه، للوقوف فوق كوبري الجامعة كما يفعل الكثيرون، كان يدعوها للذهاب إلى أحد المطاعم ليتناولا وجبة معًا، إلا انها رأت أن يومها لا يتسع لمثل هذه الأمور، فوقتها مستنفد ما بين محاضراتها وتحضيرها لمشروع تخرجها، وعملها في المكتب، بالإضافة إلى نسخ كُتب الأستاذ ياسين وهبة على الكمبيوتر قبيل نشرها، فهو صار يعتبرها «أمين سره»، كان يقولها وهو يضحك، فتظهر أسنانه المصفرّة من فرط

التدخين. صار لا يأتمن سوى تلك الصغيرة على كل ما لا يرغب أن يُطلع أحدًا عليه قبل نشره.

إلا أن الأمر لم يخلُ من مرات متفرقة يُلحّ عليها حمدي، وتخبرها زينب بأن ما تفعله مع الرجل لا يجوز ولا يقبله خاطب، فيكفي أن لا شيء يمنعه من الزواج سوى وعد قطعه على نفسه أمامهم بأنه سينتظرها حتى تنتهي من عامها الجامعي الأخير، عند هذا الحدّ كانت منتهى تشعر أن رأسها لا يكاد يحتمل المزيد من الصخب فيما يخص أمرًا ليس ببالغ الأهمية، فتُبلغ حمدي أخيرًا موافقتها على الخروج سويًا.

وفي كل مرة كانت جلستهما عبارة عن حديث طويل لحمدي، بينما هي منصتة في اهتمام، تردّ عليه بكلمات متعقلة إن رغب في ردّها، ثم ينتهي اللقاء عندما تنظر في ساعتها وتخبره بأنهما اتفقا ألا يأخذهما الوقت فينسيا أن لديها الكثير ترغب في الانتهاء منه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلست منتهى أمام رزمة كبيرة من الأوراق، أسندت واحدة منها إلى حامل معدني مخصص لهذا الغرض، لم تُفسّر لنفسها ابتسامة أطلّت على شفتيها! أتبتسم لأنها صارت محترفة في قراءة خطّه المُبعثر كثيرًا، المعقّد كأفكاره التي يغلب عليها الطابع الفلسفي؟ أم إن سبب ابتسامتها كونها صارت متمكنة من العزف على لوحة المفاتيح مثل سارة في تمكنها من فعل نفس الشيء على البيانو؟

كانت أناملها تعمل بهمّة وحماس شديدين دون أن تغادر عيناها الورقة التي تقف بشموخ أمامها، صارت تحفظ مواقع الأحرف عن ظهر قلب، صارت تكتب على لوحة مفاتيح طُمست من فوقها الأحرف من فرط ملامسة الأنامل لها. سمعت وقع أقدامه وصليل ميدالية مفاتيحه، صارت تحفظ كل شيء يخصّه.

رفعت عيناها إلى صفحة وجهه، ثم وقفت لمصافحته وابتسامة عذبة على وجهها:

أستاذي تفضّل، أنهيت جزءًا لا بأس به سيأخذ منك وقتًا لمراجعته.

ـ هل سيسامحني بقية العملاء أنني قد استحوذت على كل وقت عملك لي وحدي؟

قالها مبتسمًا وهو يهمّ بالجلوس، بينما تعطي منتهى أمرًا للطابعة حتى تلد أوراقًا ترقد فوقها كلماته.

ـ العملاء هنا يختلفون عنك، هم فقط يريدون أوراقهم مكتوبة في أسرع وقت دون أن يعنيهم من سيفعل.

ـ منتهى، ما رأيك في مجموعة المقالات التي يضمها كتابي الذي تقومين بنسخه الآن؟

ـ هل ستغضب من رأيي؟

ـ بالتأكيد لا! لو أنني واثق من أنه سيكون مديحًا لما سألتك.

ـ الأمر له عدّة جوانب، فأنا كلما قرأت مقالاتك شعرت بخطورةٍ ما تكتب، كتاباتك تدور كلها في ذات الفلك، إيمانك التام بفكرة تراها سبيلًا للخلاص، فكرة فصل الدولة عن الدين، وإصرارك على أن الدولة المدنية لا شأن لها بالدين، إنها قضية شائكة كثيرًا أستاذي، قضية صنعت لك الكثير من المهاجمين والمعارضين، وبرغم هذا أنت مستمر.

صمتت كي يُعقّب، شعرت أنها قالت أكثر مما يجب، لكنه أشار إليها بيده، بينما السيجارة بين شفتيه، أن استكملي ما بدأتِ.

ـ الأمر الثاني أن كتاباتك موجهة لطبقة بعينها من المثقفين و...

توقفت من جديد، ترغب في مراجعة كلماتها.

ـ منتهى رجاءً، تحدّثي بأريحية أكثر.

ـ أنا أُفضّل الكتابة لعامة الناس، أُفضّل أن ألمس أوجاعهم، اهتماماتهم، أن أكتب لهم عنهم، ربما لذا أحبه!

قهقه عاليًا:

سيظل هو أستاذك الحقيقي مهما قدّمتُ لكِ من إغراءات، ومهما زادت عدد المرات التي تناديني فيها بأستاذي!

احمرت وجنتاها، بينما حاولت التشاغل في ترتيب أوراقه التي نُسخت لتوها.

ـ لكنك أيضًا أستاذي بحق، أن أنال شرف ثقتك فيّ، فرصة وجودي على مقربة منك على مدار ما يقرب من عامين، نسخي لكتبك ومقالاتك وحديثي معك، كل هذه أمور كانت فارقة في حياتي.

من بين دخان كثيف خرجت كلماته:

وأنا على مدار نفس العامين تأكّدت من أن مكانك ليس هنا يا منتهى.

ضيّقت عيناها وكأنها تقول لا أفهم، فاستطرد يقول:

هل فعلتِ ما حدثتيني عنه بخصوص مشروع تخرجك؟

ابتسمت وهي تتلفّت حولها، كأنها تتأكد من أن لا أحد يستمع إلى سرها الذي لم تُطلع عليه سواه.

ـ نعم، حادثته.

قالتها وصوتها يقترب إلى الهمس، ثم أردفت قائلة في نشوة:

لا أدري كيف ضيّعت على نفسي كل هذا العمر وأنا أتصوّر أن لقاءه مستحيل! منذ أيام اتصلت بجريدة الأخبار، نفس الرقم المكتوب في صفحتهم الأولى، طلبت منهم أن يقوموا بتوصيلي بمكتب الأستاذ مصطفى أمين، تصوّرت أن يقوم أحدهم بالرد عليَّ، ربما سكرتيره الخاص أو مديرة مكتبه، لكنها كانت المفاجأة، لقد جاءني صوته شخصيًا، أعرف صوته جيدًا، أعرفه من خلال لقاءاته التليفزيونية التي أنتظرها كالأعياد، لم أصدّق أنه هناك، يمسك بطرف خط أنا على طرفه الآخر، قلت له إنني طالبة في السنة النهائية بكلية الإعلام وأتمنى أن يكون حديثي الصحفي معه هو مشروع تخرجي، لا أكاد أصدّق كمّ التواضع والود اللذين فاض بهما صوته. طلب مني أن أحادثه بعد أسبوع حتى يتسنى له مراجعة مواعيده، باقٍ من الأسبوع يومان وثلاث ساعات، وعندها سأحادثه من جديد.

ـ إذن كنتِ أنتِ بحق!! أنتِ من فاجأتيني قبل أن أفاجأك!

هزّت رأسها:

آسفة، لا أفهم!

ـ لقد هاتفت بالأمس الأستاذ مصطفى أمين لأفاجئك بأنني رتبت لكِ موعدًا معه، لكن حينما قلت له اسمك والسبب الذي جعلك ترغبين في زيارته، قال لي يبدو أنها نفس الفتاة، أظنها هي من حادثتني منذ أيام.

أخذت منتهى تشكره بحرارة، قالت له يومها كل كلمات الشكر التي عرفها قاموسها، لم تتصوّر أنه كان يُعدّ لها مفاجأة بهذا الحجم، وأنه يهتم بشأنها إلى هذا المدى، لم تتصوّر أن الأيام أخيرًا بدأت تعترف بوجودها على خارطة الحياة. انتهى اللقاء بأن أعطاها ياسين وهبة الموعد الذي حدّده الأستاذ مصطفى أمين للقائها، ثم قال لها وهو يصافحها قبل أن يُغادر:

إن قطعتِ عليَّ الطريق في مفاجأتي الأولى، فلقد أعددت لك مفاجأة أخرى لن تتمكني من إبطال مفعولها، لكن سأقوم بتأجيلها إلى أن تنتهي من امتحاناتك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«ماتيلدا، اسم صار يزعجني كثيرًا، يقضّ مضجعي، كابوسًا لا أفهم له سببًا، أشعر إنها تقف وراء إهمال محمود لدراسته، وأنها سر اهتمامه المبالغ فيه بنفسه، وإلا فلماذا يهتم محمود بأن يمتلك شاربًا كثًّا ولحية قد تمّ تهذيبها بشكل مُعين، لقد قلت له أكثر من مرة أن فكرة أن يكون شاب في مثل عمره بشارب ولحية هو أمر عجيب، كما أنه يبدو أكبر من عمره الحقيقي بكثير. حتى ذوقه في اختيار ملابسه تغيّر، صار يختار ما يجعله يبدو أكبر عمرًا. إحساس خفي بداخلي لا يكفّ عن إخباري بأن صديقته الملعونة ماتيلدا وراء كل ذلك. ذات يوم، وبينما هو واقف أمام تلك المرآة المشروخة منذ سنوات، يحلق ويُحدّد ملامح لحية دخيلة على وجهه حلو القسمات، باغتته بسؤالي:

أتعجب! ألا تعترض صديقتك الأوروبية الصغيرة على هيئتك التي لا تليق بجامعي في أوائل العشرينيات من عمره؟!

رمقني بنظرة ساخرة، لم أفهم وقتها ممَّ كان يسخر! ثم رفع ماكينة الحلاقة عن وجهه ونظر إليّ قائلًا:

منتهى.. ماتيلدا ليست صديقتي الصغيرة، ماتيلدا أم لطفلة في العاشرة من عمرها!

أذهلتني كلماته، لكن هل ظنّ هكذا أنه قتل الشكّ الذي بداخلي حول العلاقة التي تربطه بهذه الماتيلدا؟ بالعكس، لقد روى بكلماته هذه بذور الشكّ التي تسكنني، فكبرت وأورقت! إذن هو يريد أن يبدو أكبر من سنه ليليق بها. ماتيلدا أيتها اللغز، لامفر من لقاء يجمعني بكِ، يجب أن أفكّ شفراتك بنفسي، يجب أن أعلم حقيقة دورك في أيام صغيري، واثقة أنا من أن لك دورًا يستحقّ التوقف أمامه والقلق بشأنه!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ربما كانت هذه المرة الأولى التي حدّثت منتهى فيها نفسها بأنها سعيدة، كادت تتحسس شفتيها بلسانها فتجد طعم السعادة فوقهما، فعلت هذا بينما كانت تقف داخل المصعد بمبنى جريدة الأخبار عندما انفتح فجأة من خلفها باب لم تره أثناء دخولها، لم تكن تتصوّر أن هناك مصعدًا له بابان. أشار لها عامل المصعد أن تفضلي، وقفت للحظات عقب خروجها من المصعد ذي الأبواب الخفية، ثم ابتسمت وهمست لنفسها «أنا سعيدة، أعيش الآن مغامرة عمري التي طالما تقت إليها».

«بمجرد أن تقدّمتُ داخل غرفة مكتب الأستاذ، حيث الحوائط مغلّفة جميعها بالخشب، حتى داهمني إحساس بين الدفء والفخامة، خطوت فوق الأرضية المغطاة بالموكيت، حاصرني شعور لم أتصوّر أن يخالجني يومًا. شعرت فجأة بإحساس النجوم وهم يخطون بأقدامهم فوق السجادة الحمراء لمهرجان

«الأوسكار»، ليس إحساس كل النجوم، لكن فقط من حضروا ويقين يملؤهم بأنهم الفائزون بالجائزة، شعور بالنشوة والزهو لم يعرف طريقه إلى نفسي من قبل.

مكتبه ليس في مواجهة الباب، لم أره بعدـ لكن ها أنا اقترب، ها هو يشرق من خلف مكتبه، يقف، يبتسم، يمد يده إليّ، يصافحني، ها أنا في مواجهة حلم ظننته من فرط غبائي مستحيلًا، أستاذي عملاق، هذا ما رأته عيناي، فهو طويل القامة، ضخم البنية، الأستاذ مصطفى أمين هو أطول رجل رأته عيناي على الإطلاق، يقولون لي أنه ليس بكل هذا الطول الذي أتحدّث عنه، لا يهم ما يقولونه، المهم كيف رأيته أنا. تذكّرت فجأة مغامرات جاليفر، نعم شعرت أنني جاليفر وأن عملاقًا أمامي.

دعاني للجلوس، وطلب لي عصيرًا. بدأنا حديثنا، حينما أدرت المسجل الصغير الذي كنت اشتريته منذ أيام قليلة لهذا الغرض، فالأمر يستحق أن أقوم بحفره وليس فقط تسجيله.

بأت الحوار بقراءة كلمات له تركت أثرها في نفسي: «لقد كان هذا القلم صديقي وحبيبي، أعطيته وأعطاني، عشقته، وأخلص لي، وعندما أموت أرجو أن يضعوه بجواري في قبري، فقد أحتاج إليه إذا كتبت تحقيقًا صحفيًا عن يوم القيامة»، انطلقنا من هذه الكلمات، من كلماته الخالدة، بدأت أسأله وبدأ يحكي لي ببساطة واسترسال رائعين عن كل شيء، حدّثني عن عشقه للصحافة هو وتوأمه الراحل علي أمين، عن أفكاره التي يضعها في عموده (فكرة)، قال لي إن تلك المقالات تعبّر عن مشاكل وهموم الوطن، وأنه يناقش فى هذه المقالات أهم القضايا التي تشغل بال مواطن الشارع البسيط الذي استطاع هو أن يعبّر عنه وعن مشاكله وأفكاره.

نظرت إليه مليًا، إلى ثباته، إلى إيمانه بأفكاره، وددت لو قلت لي إن أفكارك أيها القدير هي أفكار ضد الصدأ، سألته عن السبب الذي دفعه لابتكار عيد للحب في الرابع من نوفمبر، قال لي إن الحكاية بدأت عندما كان في طريقه إلى منزله بينما يقود سيارته عبر أحد الأحياء الشعبية الشهيرة في مصر، وهو حي السيدة زينب، ليجد جنازة تسير في الطريق، ويسير خلفها ثلاثة أفراد فقط، مما أذهله، فقام بصفّ سيارته جانبًا، ونزل ليسير في الجنازة، وعندما عاد إلى منزله ظلّ يفكر كيف يحدث هذا في حي شعبي مثل السيدة زينب، حي يتصف أهله بالشهامة وحميمية العلاقات والمجاملة والحب؟

فكتب مقالًا دعا فيه للحب، دعا لأن تعود فيه مشاعر الحب بين الناس، الحب بكل أشكاله وبين كل الناس، وليس الحب بين المرأة والرجل فقط. سألته عن أعياد أخرى كان هو السبب فيها، أعياد مثل عيد الأم في ٢١ مارس، وعيد

الأب في ١٢ يناير، لم أنهِ حواري الصحفي قبل أن أسأله عن مشروع «ليلة القدر»، ذلك المشروع أو المبادرة العظيمة التي كنت أعشق متابعتها على صفحات الأخبار، فقال لي إن الأمر بدأ بمقال له في أخبار اليوم، كتب فيه «في قلب كل إنسان أمنية صغيرة تطارده في حياته وهو يهرب منها، إما لسخافتها أو لارتفاع تكاليفها، فما هي أمنيتك المكبوتة؟ اكتب لي ما هي أمنيتك وسأحاول أن أحققها لك، أو سأحاول أن أدلك على أقصر الطرق لتحقيقها، بشرط ألا تطلب مني تذكرة ذهاب وإياب إلى القمر!».

حقّق هذا المشروع الكثير من النجاح، حيث انهالت على الجريدة العديد من الخطابات، وتمّ تحقيق الكثير من الأحلام، بل وتوسع هذا المشروع بعد ذلك وتفرعت أنشطته.

لم يكن لقائي الذي حدث في مبنى جريدة الأخبار بالأستاذ مصطفى أمين هو مجرد لقاء صحفي يجمع بين طالبة بكلية الإعلام وكاتب عظيم. ولم يكن مشروعًا للتخرج، ولكنه كان بمثابة دفعة كبيرة لي نحو الأمام. كان أمرًا جللًا ترك لدي انطباعًا سحريًا بأنني ليس فقط من حقي أن أحلم، ولكنني أستطيع أيضًا تحقيق ما أتمناه، جعلني أثق في نفسي، أكتشفني، فأنا لا أحلم، أنا أضع أهدافًا. وهنا يكمن الفرق بين الحلم والهدف، فالحلم إن لم تضع له خطة لتحقيقه سيتحوّل إلى مجرد أمنية تذروها الرياح، ولكن إن وضعت له خطة وسعيت لتحقيقه صار هدفًا، صار درجة سلم يمكنك الصعود عليها لترتقي بنفسك، ولتتمكن من تحقيق هدف أكبر ثم هدف تالٍ، حيث لا تنتهي درجات سلم الناجحين، بل تنتهي أعمارهم أولًا.

أستطيع أن أُجزِم أن من خرجت من مبنى جريدة الأخبار عقب هذا اللقاء هي منتهى أخرى غير التي دخلته.

حصد مشروع تخرجي المركز الأول، وحصدت أنا ما هو أثمن من ذلك بكثير».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في اليوم التالي لانتهاء امتحانات عامها الجامعي الأخير؛ هاتفها حمدي يرغب في لقائها للضرورة، كانت قد طلبت منه منذ ثلاثة أسابيع أجازة من العمل في المكتب للتفرغ لامتحاناتها.

ـ منتهى، لم نلتقِ منذ ثلاثة أسابيع!

ـ أنت تعلم مدي انشغالي بالامتحانات يا حمدي.

ـ لكنكِ لم تحاولي الاتصال بي طوال تلك الفترة على الإطلاق، هل يُعدّ هذا أمرًا طبيعيًا؟!

خالجها شعور بالحرج والارتباك، بينما تخللت أصابعها خصلات شعرها في حركة لا إرادية وهي تحاول مراجعة نفسها، شردت وكأنها تسأل نفسها هل فعلتِ ذلك حقًا؟

ـ سامحني، لم أنتبه لذلك، يبدو أن تركيزي في دراستي استغرقني تمامًا.

قالتها مبتسمة وهي تحاول أن تمتصّ نبرة غضب سمعتها بوضوح في صوته، بالتأكيد محق، هكذا همست لنفسها.

ـ إذن سنلتقي غدًا ولا أرغب في أن يكون اللقاء في المكتب، أريد محادثتك في عدة أمور هامة.

ـ هل أستميحك عذرًا أن نؤجل اللقاء لبعد الغد؟

ـ لماذا؟!

قالها بعصبية لم ينجح في درأها.

ـ لدي في الغد مقابلتان هامتان مؤجلتان منذ فترة.

ـ تتحدّثين بالألغاز يا منتهى!!

ـ أبدًا، سأحكي لك عنهما بمجرد أن نلتقي.

ـ هذا الأسلوب في الحياة لا يروق لي، بل ولا يناسبني!

على مضض وافق حمدي على رغبتها، واتفقا على اللقاء في كازينو قريب من كوبري الجامعة بعد غد.

بمجرد أن وضعت سماعة الهاتف شعرت بغصّة في حلقها، لماذا يبدو حمدي مختلفًا في حديثه اليوم، ما الذي تغيّر؟!

تذكّرت أن هناك لقاءً ثالثًا يجب أن تقوم به في الغد، لقاء هي بحاجة إليه، إنه لقاء يسر. رفعت السماعة وهاتفتها، بثّتها أشواقها، اتفقتا على أن تذهب إليها في الغد لتناول الغذاء معها، لأنها بحاجة لأن تقضي بصحبتها بعضًا من الوقت، ولأسباب لن يتسع لها الحديث في الهاتف.

اندهشت من نفسها، لماذا فعلت ما فعلته لتوّها؟! فما رفضته دون شعور من حمدي ها هي تعرضه على يُسر بلهفة! وهل طلب حمدي سوى مقابلة للغذاء ووقتًا للحديث؟

بدت منتهى شاردة حينما قطع شرودها صوت دنيا:

منتهى.. منتهى...

شعرت بيد صغيرة تهزّها هزًا..

ـ نعم يا دنيا؟

قالتها بتوتر.

أحادثكِ ولا تسمعينني!، لقد انتهيتِ من امتحاناتك، سنذهب اليوم للأستاذ سيد للحصول على بعض القصص كما وعدتيني.

ابتسمت منتهى وهي تستعيد ذكريات قديمة وتقول:

يبدو أنني كبرت بالفعل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شعرت منتهى بالأرق في تلك الليلة، حاولت أن تنام لكنّ رأسها كان يعمل بلا هوداة، كانت تشعر أن الغد سيكون يومًا فارقًا في أيامها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادي عشر

أمام مركز شهير لتعليم الإيطالية بالزمالك، وقفت منتهى حسب موعدها الأول في جدولها لهذا اليوم. لم يكن موعدًا بالمعنى المتعارف عليه، فلم يتم الاتفاق عليه من قبل طرفين، فقط واعدت نفسها لإنجازه. لم يكن من الصعب عليها كصحفية، وإن كانت تتحسس طريقها المهني، أن تعرف أين تعمل ماتيلدا، فهي ما زالت تذكر جيدًا اسم المركز الذي ذكره لها محمود مرة واحدة، وبرغم فروعه المتعدّدة إلا أنها استطاعت أن تعلم بقليل من المجهود أن ماتيلدا هي مديرة فرع الزمالك.

أيضًا لم تكن مقابلة ماتيلدا أمرًا شاقًا، فبمجرد أن طلبت من موظفة الاستقبال النحيفة ذات الأسنان الأمامية البارزة، والوجه النحيف الجاد الخالي من المساحيق، مقابلة مديرة الفرع للاستفسار منها عن دورات بعينها متخصصة في الترجمة الفورية؛ إلا وطلبت منها الموظفة الانتظار بضع دقائق لإبلاغ السيدة ماتيلدا، ثم عادت لتدعوها لمقابلتها.

وجدت منتهى نفسها وجهًا لوجه أمام ماتيلدا، التي كانت قد تحركت من مكانها خلف مكتبها لمقابلتها. سكنت غصّة قلب منتهى بمجرد أن وقعت عيناها عليها، لقد شعرت أن محمود قد سقط في شباك صائد من طراز خاص جدًا.

جميلة كانت، رشيقة طويلة ذات عينين زرقاوين خاليتين من أية انفعالات، الدقة هي الوصف المناسب لسائر تفاصيل وجهها، أنف دقيق وذقن دقيق أيضًا، ذات شعر بني ناعم قصير، لا يكاد يصل إلى منتصف عنقها الطويل، لكنه يمنحها المزيد من التميّز، ويعكس شعورًا عن ثقتها بنفسها.

امرأة مكتملة الأنوثة والنضج، بالتأكيد قد قطعت في الثلاثينات عدد سنوات ليست بالقليلة، إذن ما الذي لوى عنقها وثبّت نظرها على محمود؟ هكذا همست منتهى لنفسها في غيظ.

عندما مدّت ماتيلدا كفها ذي الأنامل الطويلة إليها لمصافحتها قدّمت نفسها قائلة في لهجة عربية ركيكة:

ـ ماتيلدا ألبيرتو.

ـ منتهى رحال.

ازدادت عينا ماتيلدا الزرقاوان اتساعًا في ردّة فعل لم تتفاجأ بها منتهى، بالتأكيد الاسم أندر من أن يتم تجاوزه بسهولة، لقد عرفت ماتيلدا من هي ضيفتها.

ـ شقيقة محمود رحال، أليس كذلك؟

قالتها بسرعة.

ـ هل تعرفينه؟ لم أكن أعلم أن شقيقي الأصغر شهير إلى هذا الحد!

قالتها وفوق شفتيها الورديتين ابتسامة مطاطية، ودهشة مصطنعة على وجهها.

ـ محمود أكثر من صديق. أنا ماتيلدا، ألم يُحدّثك عني؟!

ـ ربما! لست متأكدة. يالها من مصادفة عجيبة، فلقد أتيت الى هنا للسؤال عن دورات الترجمة الفورية، فها أنا أجد أن مديرة المركز صديقة لأخي.

حاولت ماتيلدا أن تُظهر ودّها لمنتهى، حدّثتها عن تفاصيل دورات الترجمة الفورية، وأبلغتها عن خصم خاص لها، أبدت منتهى اهتمامًا زائفًا بالتفاصيل والعرض الخاص.

انتهى لقاؤهما الأول، والذي ترك في حلق منتهى مرارة ويقينًا بأن هذه المرأة إن كانت لديها رغبة حقيقية في محمود، فلن يفلح أبدًا في الفكاك من بين فكي رغبتها تلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استطاع الموعد الثاني أن يخفّف عنها كم الكدر الذي سكنها عقب مقابلة الصائدة الإيطالية، كان موعدًا مع ياسين وهبه في مكتبه بجريدة الحياة المصرية، أمر سكرتيرته بإحضار الأوراق التي تمّ إعدادها مسبقًا، فجاءت السكرتيرة تحمل ملفًا بين أصابعها، أخرجت منه بعض الأوراق، أمرها ياسين وهبة أن تعطيها لمنتهى التي هزّت رأسها غير فاهمة، فقال:

مبروك يا منتهى، عقد تدريب هنا بالجريدة.

تراقصت الفرحة بين كل ملامح وجهها، وقالت:

لا أكاد أصدّق، أنا أحلم!! لكن حتى أحلامي لم تكن بمثل هذه الروعة يومًا ما، إنها فرصة عمري التي لم أتخيل أن أجدها في انتظاري اليوم.

ـ أنتِ تستحقينها، فأنتِ صحفية بالسليقة، تملكين الثقافة والاطلاع والمثابرة، تملكين الكفاح والإيمان بهدفك والتصميم عليه، تملكين أدوات لا يملكها إلا صحفي حقيقي، كما إنك إنسانة من طراز خاص، وإن كنت أخشى عليكِ أن يسرقك عشقك للصحافة وتفانيكِ في عملك من استمتاعك بحياتك.

ـ على العكس، فأنا سأستمتع بحياتي من اليوم، مع فرصتي الحقيقية للعمل في الصحافة، من هنا سأضع قدمي على أول درجة في سلم أحلامي يا

أستاذي، فهل هناك متعة أعظم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تذهب منتهى إلى يسر في الموعد الذي اتفقتا عليه، بل طارت إلي المعادي محلقة فوق أجنحة الأمل في غد يبدو أنه سيكون أفضل.

في بيتها الهادئ الذي يغلّف أثاثه اللون الأبيض فيترك أثرًا بالراحة على نفس منتهى، قطعت أصوات أدوات المائدة السكون، بينما جلست يُسر ومنتهى لتناول المكرونة وشرائح اللحم الساخنة وبعض السلاطة. زفّت إليها منتهى خبر عقد العمل الذي أهداها إياه ياسين وهبة لتوه. حدّثتها عن ماتيلدا ومحمود، وأسرّت إليها بقلقها بشأنهما، فقالت يُسر دون أن تتخلى عن هدوئها المعتاد:

ـ ربما لا يكون الأمر كما تظنين يا منتهى، ربما خوفك عليه هو من صوّر لكِ هذا، ليس بمثل تلك السهولة يقع محمود في حب امرأة تكبره بما يقترب من خمسة عشر عامًا، يكاد عمرها يقترب من عمر أمه، كما أن وصفك لها بكل هذا الجمال والأنوثة يجعلني أستبعد أن تُعجب هى بشاب جامعي ما زال في مقتبل كل شيء.

ـ لا يا يُسر، أنا لست واهمة، فمحمود يُحادثها في الهاتف كثيرًا على الرغم من وجوده في المنزل قليلًا. قبل ظهورها كان يحيا كمراهق طائش غرير، كل شهر أو اثنين يعيش قصة لا معنى لها مع زميلة له، أو فتاة تسكن في الجوار، وأحيانًا مع صديقة لحبيبة أحد أصدقائه لمجرد أن يؤنس صديقه وحبيبته في خروجاتهما، لكن شيئًا جوهريًا قد تغيّر فيه منذ أكثر من عام، هذا الانقلاب الجوهري الذي أصابه يتعلق بتلك التي رأيتها، لا أحد سواها. لكن السؤال الذي يكاد يطير بصوابي هو ما الذي جذبها إلى محمود؟! أنا أعلم ما الذي يريده أخي منها، لكن هي؟ ما الذي تريده منه؟!

كانتا قد انتهيتا من تناول الطعام، فوقفت يُسر أمام حوض المطبخ تغسل الأطباق، وشارفت منتهى على الانتهاء من تنظيف طاولة الطعام وإعادة المفرش إلى مكانه تحت المزهرية ذات الزهور البيضاء.

دق جرس الهاتف، فقامت يُسر بالرد. تبادلت تحية المساء مع الطرف الآخر، وسمعتها منتهى تقول:

قد يصعب عليَّ الحصول على إجازة، هل سنذهب إلى هناك في نهاية كل إسبوع ككل صيف؟ يكاد يكون الأمر شديد الإرهاق بالنسبة لكلينا يا طارق، فأن نسافر يوم الخميس بعد انتهاء مواعيد البنك ثم نعود مساء السبت أمر شاق للغاية، يُمكنك أن تذهب أنت.

ظلت صامتة تستمع إليه، ثم هزّت رأسها وقالت باستسلام:

لا بأس يا طارق، سأحصل على أجازة، حاول ألا تتأخر، سنتناول العشاء سويًا.

كانت منتهى قد انتهت من غسل آخر طبقين لم تنته منهما يُسر قبل ردّها على الهاتف، وعندما جلستا على الأريكة البيضاء المتمددة بأريحية أمام مكتبة تحتضن تلفاز كبير يحيط به بعض الأرفف التي تحتوي عددًا من الكتب وبعض التماثيل الصغيرة، سألتها:

هل أنتِ سعيدة يا يُسر؟

لقد تحوّلت علاقتهما منذ سنوات إلى صداقة، لم تعد مجرد علاقة تربط ابنة أخ بعمتها التي قضت حياتها معها، ولم يعد شعور منتهى بأن يُسر في منزلة أختها الكبرى وحسب.

ـ طارق زوج رائع يا مُنتهى، لا أتصور نفسي مع رجل سواه.

ـ لكن أكاد أكون موقنة أن تدخّل والديه في حياتكما يسلب منكِ متعة الإحساس بالخصوصية، وبالتأكيد يطعن في إحساسك بالسعادة.

ـ عندما يراودني هذا الإحساس أزجره، أقول له اذهب بعيدًا عن حياتي، فطارق وحيدهما، وهما أب وأم مسنان، أشعر أنني إن أبديت ضجرًا أو تذمرًا سيكون في ذلك جرح لشعور طارق، وهو إنسان شديد الحساسية، كما أن السعادة لا تكمن عند الجميع في نفس النواحي من الحياة، السعادة تملك عدّة وجوه، فمجرد إحساسي بالسكن والطمأنينة لوجود طارق إلى جواري يمنحني الكثير من السعادة، في تلك الناحية تكمن سعادتي أنا، بينما قد يرى البعض ذلك الأمر ثانويًا لا يمثّل لهم الكثير، أتدرين يا منتهى؟ ليس تدخّل والديه في حياتنا هو ما يطعن في سعادتي، وليس عدم إنجابنا لأطفال هو ما يفعل، لكن ما يؤرقني هو إحساس خفي لا أدري له سببًا بالخوف من الغد.

برغم إحساسها بالقرب من يُسر لم تجرؤ منتهى يومًا على سؤالها عن السبب في عدم إنجابها؟ تعلم أكثر من أي شخص كمّ الحنان الذي تحمله يُسر بين جنبات قلبها. بالتأكيد تحلم بطفل، ظنت منتهى أن طارق قد يكون السبب في عدم الإنجاب، وبالتأكيد حب يُسر له جعلها ترضى بحياة جافة بعيدًا عن حلم الأمومة. كانت منتهى تعلم أن الأمر يحمل بين جنباته الكثير من الحساسية، لذا لم تستطع الإشارة إليه ولو من بعيد خوفًا من المساس بإحساس يُسر الحريري.

عندما همّت يُسر بتوديع مُنتهى نقرت فجأة بإصبعها على رأسها عدّة نقرات خفيفة، وكأنها تذكّرت لتوّها شيئًا فاتها.

ـ ماذا عن حمدي يا منتهى؟ لم تتطرقي للحديث عنه؟ ماذا عنكما؟

ـ حمدي! لا جديد، لم نلتقِ منذ فترة طويلة، لكننا سنلتقى في الغد.

قالتها واجمة، وودّعت يُسر بقبلة سريعة على خدّها، ثم جذبت الباب لتغلقه خلفها بهدوء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حسب الموعد المتفق عليه في أحد الكازينوهات القريبة من كوبري الجامعة؛ جلس حمدي في انتظارها، رآها آتية من بعيد لكنه آثر ألا يتحرك، فضّل البقاء ليملأ عينيه بالقادمة نحوه تتبختر في بلوزة بيضاء شفافة وبنطال أسود، تحزم شعرها الكستنائي المثير في شكل ذيل حصان. تصوّر نفسه وهو يمدّ أصابعه بهدوء إلى رأسها الصغير بينما هي في حالة استسلام تام بين ذراعيه، فينزع رابطة شعرها ويلقيها بعيدًا بينما تبدأ أنامله بالعبث في الخصلات الماجنة، ثم يضمّها بجنون إلى صدره، ويفعل بها كل ما يمنع نفسه قسرًا عن فعله منذ أن التقاها، وحتى بعد أن صارت خطيبته، لقد نجح كثيرًا في السيطرة على نفسه، لم تُدرك أبدًا كم هي مثيرة بالنسبة له!

عندما أصبحت على بُعد خطوات منه لم يكن قد انتهى بعد من افتراسها بعينيه، لكنه اضطر لأن ينهض متقدمًا نحوها، مدّت كفّها الناعم لمصافحته وابتسامة اشتاق إليها تُزيّن شفتيها اللتين يحلم باعتصارهما بين شفتيه والضغط عليهما بأسنانه، في هذه المرة لم يستطع أن يتركها تسحب كفّها سريعًا كما تفعل في كل مرة، بل أبقى كفّها بين كفّه ثم وضع كفّه الآخر فوقه، وضغط عليه وكأنه يتوسّل إليها أن تبقيه، ليبثّها من خلاله شوقًا محمومًا يسري في جسده بلا هوادة، سحبت كفّها باضطراب فبدا عليه الضيق. وضعت حقيبتها وتشاغلت بجذب كرسي، ففعل بدلًا عنها، ثم أشار إليها لتجلس.

ـ ألم يراودك الشوق إليّ طوال ثلاثة أسابيع مضت؟

ابتسمت ابتسامة صغيرة بينما تحركت أهدابها في حركة سريعة أنبأت عن ارتباكها، وقالت:

أتيت إليك بمفاجأة كبيرة!

تهللت أساريره:

إذن لدينا اليوم مفاجأتان، فلنسميها أمسية المفاجآت، يبدو أنه مساء يليق بطول الغياب وفرط الشوق.

ـ إذن من سيبدأ بإلقاء قنبلته، أقصد مفاجأته!

قالتها ضاحكة بينما همست لنفسها «ما بال حمدي يبدو عجيبًا الليلة، ما هذه الكلمات التي يقولها، وماذا عن طريقة المصافحة الغريبة التي صافحني بها!»

ـ علمونا أن النساء أولًا.

ـ هي مفاجأة لكن ما قبلها قد يغضبك، فدعنا نبدأ به، ثم أُلقي على أسماعك بما يسرّك.

ظلّ محملقًا فيها، فاستطردت تقول:

هل ستغضب مني إن قلت لك إنني لن أستطيع العودة للعمل في المكتب مجددًا؟

حاولت إخفاء وجهها بكفّيها في حركة تمثيلية طفولية، ثم نظرت إليه من خلفهما، لترى ردّة فعله.

ضحك وهو يقول:

إنها جزء من مفاجأتي.

ـ حقًا؟! إذن فلأنتقل سريعًا إلى المفاجأة قبل أن تعاود نفسك وتعترض.

ثم استطردت تقول في لهجة تمثيلية:

حمدي، تستطيع الآن أن تقول لي مبروك يا منتهى!

ـ أنا أعترض، أنتِ قد أحرقتِ كل مفاجآتي الليلة، لم تتركي لي ما أفاجأكِ به!

ضيّقت عينيها العسليتين في محاولة للفهم، فأردف يقول:

طلبت منه ألا يُخبرك!

ـ لا أفهم، هل التقيت ياسين وهبة؟!

ـ ياسين وهبة؟! بالطبع لا، أنا أتحدّث عن أبيكِ!

شعرت أن هناك خلطًا ما، فقالت:

حمدي، قل أنت المفاجأة!

ـ هي نفسها المفاجأة التي تتحدّثين عنها، فأنتِ لن تستطيعي العمل في المكتب بعد الآن لأن أباكِ أخبركِ أنني اتفقت معه أن نعقد قراننا خلال الأسبوعين القادمين لنُعدّ لزفافنا بعد شهرين على الأكثر، فها أنا قد وفّيت بوعدي وانتظرتك حتى ملَّ مني الانتظار، و...

لم تسمع منتهى كلمات حمدي التالية، فقط رأت شفتاه تتحركان بكلمات كثيرة على غير عادته بينما ذهبت بتفكيرها إلى مكان آخر، إلى مكان بعيد، عقد قران وزفاف وأشواق و... هذا ما لم تفكر فيه رغمًا عن خاتم الخطبة الذي ترتديه في يمينها!

فجأة شعرت بكفّ حمدي فوق كفّها، إنه يقترب منها كثيرًا، وهج أنفاسه الساخنة تلفح وجهها، مستمر هو في الاقتراب، ربما ساعده ذلك الظلام الذي خيّم على المكان وتلك الأضواء الخافتة، واختياره لمكان منزوٍ في الكازينو الهادئ.

ـ لا أستطيع الانتظار أكثر من هذا يا منتهى، فكُلي رغبة فيكِ!

ارتجف جسدها فجأة، وداهمها شعور بالقشعريرة والغثيان عندما اقترب بخدّه من خدّها، ابتعدت في عصبية، فقال بانفعال:

ـ أنتِ لستِ حمقاء فقط، ولكنكِ باردة أيضًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

احتلّ فؤاد شعورٌ بالوجع والقلق على ابنته ، استولى عليه إحساس بخذلان ممدوح له. كيف يفعل هذا بهداية التي لا تشبه سائر البنات، إنها كائن مختلف، تحمل صفات لا تحملها مثيلاتها. كيف هانت عليه، كيف زهدها وفُتن بغيرها وهما ما زالا في سنوات زواجهما الأولى؟! عندما تأكد أن آمال ليست في المنزل، وأن حسين في كليته، سمح لنفسه للمرة الأولى أن يصرخ، خرجت منه صرخة شقّت سكون المنزل. شعر أن كل أوجاع هداية تكتلت في داخله فأنهكت روحه ونالت من قلبه المتعب.

هاتف ممدوح وطلب منه مقابلته لأنه يريده في أمر خاص، وطلب منه ألا يُخبر هداية بأمر ذلك اللقاء.

انعكست صورة ممدوح في مرآة سيارته بينما يقودها متوجهًا إلى لقاء حميه، أخفت نظارة الشمس السوداء التي يرتديها هالات غامقة أحاطت مؤخرًا بعينيه فجعلتهما مجهدتين.

ارتجّت به السيارة حينما ضغط على مزوّد السرعة بقوة، وارتجّت معها كل الأفكار في رأسه. ما هو ذلك الأمر الخاص الذي يطلبه لأجله الدكتور فؤاد، يستبعد أن تكون هداية قد اشتكت له فجوة في علاقتهما، فليست الشكوى من طبيعتها. كما أنها منذ أكثر من شهرين توقفت عن تأكيدها له بأن ثمة شيء ما صار يباعد بينهما. لقد صارت صامتة تمامًا.

مرات كثيرة قبل أن تلتزم الصمت قال لها إنها مخطئة وواهمة، وأن أفكارها ليست سوى تُرهات. لكنه حينما يجلس وحيدًا ويخلع عنه قناع الزوج المِتعقّل

والمهندس الناجح المنخرط للغاية في عمله، يجد نفسه بالفعل متورطًا في علاقة لم يسعَ إليها يومًا، ولم يستطع التخلص منها منذ أن تورط فيها. يعرف جيدًا كيف بدأت، لكنه يكاد يُقسم أنه لم يتصور أن تلك البداية الأقل من العادية قد تقذف به إلى حيث وجد نفسه سائرًا في درب شائك لا يكاد يتبين ملامح نهايته، وتكمن ذروة الأزمة في أنه حينما ينظر إلى الخلف لا يجد في نفسه القدرة على العودة والتوقف حيث نقطة البداية.

حادث تصادم بين سيارته وسيارة امرأة حامل في شهرها السابع، من منهما المخطئ، لم يكن هذا ما شغله وقتها، شعور بالذنب تملكه، خشى أن يتسبب الحادث في إلحاق ضرر بها وبجنينها، لذا فقد كان من الطبيعي أن يطمئن عليها في الأيام التالية من خلال مكالمات هاتفية على رقم منزلها، كانت في أجازة من عملها، وفي أول يوم توقّف فيه عن الاتصال بها بعد أن اطمئن عليها تمامًا فوجئ بمكالمة منها في عمله، إذا بها تشكره على ما بذله من أجلها وتبلغه على استحياء ندمها على إخبارها له بالأمس أنها قد صارت في أحسن حال، فلقد اعتادت تلقّي مكالمته التي اعادت استقبالها. دون أن يشعر أو يسعى أو يخطّط صارت بينهما مهاتفات يومية، ربما يكون الأمر بدأ بالتعوّد، لا يستطيع أن يُجزم لكن هذا ما حدث. بعد أن وضعت طفلتها بثلاثة أشهر كان لقاؤهما الثاني. التقاها في الفندق الذي تعمل به في قسم التسويق، حرصت على دعوته إلى معرض هندسي مقام به، ألحّت عليه للحضور، لم تغادره طوال وقت تواجده في المعرض، عرف الكثير عن حياتها خلال الفترة السابقة، تزوجت عقب حصولها على الثانوية العامة من رجل يكبرها بخمسة عشر عامًا، واستكملت دراستها وهي زوجة وأم، طفلتها الأولى تبلغ الآن عشر سنوات.

لا يستطيع أن ينكر أن الأمر تحوّل من تعوّد إلى صداقة ثم إلى علاقة غير مفهومة، حاول أكثر من مرة أن يقطع صلته بلبنى، يأخذ القرار، ثم لا يلبث أن يتراجع عنه. يبدو أنها صارت أكثر من صديقة، الأمر تعدّى مراحل الارتياح والتعوّد. ما زال ما بينهما يسكن تحت قناع الصداقة. هكذا أطلقا عليه، المسمى الذي لا يمت له بصلة.

بعد أن أشار عسكري المرور لصفّ السيارات الطويل التي ينتظر ممدوح فيه، ومع حركة يد العسكري الذي يتصبب عرقًا؛ استمرت الأفكار في التدفق داخل رأس ممدوح مثل حبات العرق الغزيرة الحارة.

عندما وصل إلى الكازينو المطلّ على قصر محمد علي، رأى الدكتور فؤاد يجلس وحيدًا مطأطئ الرأس عاقدًا كفّيه، ناظرًا إليهما، بدا منحني الظهر في جلسته لا يتأمل النيل كعادته حينما يتواجد على إحدى ضفّتيه.

طريقة سلامه وترحيبه لم يكونا المقدمة المناسبة للمفاجأة التي فجّرها على سمع ممدوح الذي نظر إليه مشدوهًا. شعر فجأة أنه يجلس عاريًا تمامًا أمام حميه.

ـ الأمر لا يتعدى الصداقة.

بمجرد أن نطق بها ممدوح سدّد إليه فؤاد نظرة تفيض لومًا، استكمل بعدها حديثه وكأنه لم يسمع ما قاله:

كانت حاملًا حينما صدمتها بسيارتك، إذن هي في عصمة رجل؟

ـ وهل هناك ما يمنع الصداقة بين المتزوجين؟

ـ لا ولكنني موقن بأن الأمر خرج من بين يديك، وتعدّى مرحلة الصداقة. أية صداقة تلك التي ينجم عنها حواجز بينك وبين زوجتك؟ أية صداقة التي تجعلك لا تستشعر التغيّر الذي اجتاحها وقلب كيانها رأسًا على عقب؟ هل تدفعك الصداقة لتحصل على إجازة من عملك دون أن تخبر زوجتك لتتحدّث إلى امرأة في الهاتف لساعات، الحقيقة أنا لا أستطيع أن أصنّف تلك العلاقة تحت بند الصداقة!

بقى ممدوح واجمًا لا ينبس ببنت شفّة، فاستطرد حماه قائلًا:

ممدوح، أنت لست زوج ابنتي فقط، بل أنت من تملك بين يديك أغلى إنسانة في حياتي، فبطاقتها الشخصية تحمل اسمينا معًا. هداية لم تخترك وحدها، بل أنا مشترك معها في منحك كل الحب والثقة والموافقة عليك كصديق ثم خطيب ثم زوج، أنا لا أتحدّث معك اليوم لأوجّه إليك أصابع الاتهام، ولا لأصرخ في وجهك أو ألومك، بل أنا هنا لأقول لك إن ما تمرّ به من الطبيعي أن يمرّ به رجل في أية مرحلة من مراحل حياته، فأن تظهر امرأة مختلفة فجأة، وتهبك من الاهتمام والحنان ما لا تجده عند سواها، فتظن نفسك لا تستطيع الاستغناء عنها، وربما تجرفك أمواج علاقتكما الهادرة لتصوّر لك أن حياتك الحالية لا تناسبك وأنك بحاجة ماسة إلى تلك الأخرى.. كل الرجال أو معظمهم تعرضوا لمثل هذا الأمر ولو لمرة واحدة في العمر.

نظر ممدوح باهتمام كبير إلى الدكتور فؤاد الذي كان يتحدث بتأثر بالغ، بينما ينفث دخان سيجارته التى مُنع بأمر الأطباء من لمسها.

ـ نزوة.. مجرد نزوة، إن لم تُدرك هذا في بداية الأمر فقد تخسر ما لا تستطيع تعويضه، هل أنت مُستعد لخسارة هداية يا ممدوح؟

ـ بالطبع لا.

المخصصة للعيادة، بعد أن أحكم إغلاق بابها، تهاوى على كرسي المكتب، ثم فتح أحد الأدراج بمفتاح صغير يتدلى من ميداليته، وأخرج أجندة جلدية خضراء قديمة كان قد توقف عن كتابة مذكراته بين ضفتيها منذ سنوات، فتح صفحة بعينها، بدأ في قراءة كلمات لم ينسها منذ أن خطّها قلمه.

«ربما كنت دون أن أدري في مرحلة احتياج لها، كنت في تلك المرحلة التي صار فيها كل شيء روتينيًا وربما مملًا، علاقتي بآمال، هداية وحسين اللذين كبرا فجأة، فلم يعد لي ذلك الدور القوي في حياتهما، أضحى دوري ثانويًا للغاية، أما هي فكانت امرأة مختلفة، بالتأكيد لا تشبه الأخريات وإلا لماذا رأيتها ولم أرَ سواها؟ تصغرني بعامين، من أسرة محترمة، والدها طبيب مشهود له، كان وكيل أول وزارة الصحة في وقت سابق.

حصلت على الطلاق قبل أن التقيها بفترة قصيرة عقب تجربة زواج مريرة، لديها ثلاثة أبناء. اعتدت وجودها بين ثنايا أيامي وصار وجودي هو الأهم بالنسبة لها. استمرت علاقتنا لسنوات، الأمر لم يتعدّ لقاءنا في المستشفى كل صباح نتبادل الحديث، وأحيانًا نتناول سويًا إفطارًا خفيفًا، وفي المساء تتلقى مني مكالمة هاتفية أطمئن فيها عليها وأتفقد أحوال أبنائها، وفي كل خميس يجمعنا لقاء في الكازينو المطل على النيل، لقاء لا يتعدى الساعة، كانت علاقة متزنة للغاية، تصورت أن استمرار الحياة على هذا النحو هو السعادة بعينها، وكيف لا؟ فلدي بيت وأبناء ولدي توأم روح، نعم هذا هو الإحساس الذي لازمني نحوها. فإذا بها فجأة وبدون مقدمات تغيب عن أيامي، علمت أنها قد تقدمت بطلب أجازة طويلة من العمل، ظللت أحاول الاتصال بها بلا طائل، لا تجيب على اتصالاتي.

شعرت وقتها أن حياتي قد انقلبت رأسًا على عقب، فما أحدثه غيابها المفاجئ عني كان أضعاف ما أحدثه وجودها. أخيرًا رقّ قلبها وأجابتني، قالت لي بحزن أوجعني إنها تأكدت بعد كل هذا الوقت أنني أرغب في تجميد علاقتنا عند هذا الحد، وأن هذه العلاقة التي ترضيني كل الرضا تُشعرها هي بالحرمان التام، أخبرتني في تلك المكالمة ما لم ألتفت إليه يومًا، قالت إنها ظلت تنتظر مني أن أتقدم في علاقتنا ولو لخطوة واحدة فلم يحدث، وعندما أيقنت أنه لن يحدث آثرت الرحيل.

تأملت يومها تجمدي الذي تتحدث هي عنه، فوجدتها مُحقة، فلدى ابنان لا أستطيع إيذاء مشاعرهما بالزواج من أخرى، ولدي زوجة من لحمي ودمي لا ذنب لها في أنني اكتشفت في مرحلة نضجي أننا مختلفان في طريقة تفكيرنا، وأن مشاعري لم تكن معها يومًا ما.

آثرت توثيق تجمدي، فلم أتحرك خطوة واحدة تراجعًا أو اقترابًا، فتمادت هي في رحيل بلا عودة».

قلّب الدكتور فؤاد صفحات مذكراته، وبدا يُقلّب معها صفحات من عمره لم يُطلع عليها أحدًا، فتوقف عند صفحة كتب فيها: «لم أتوقف أمام هذا المعنى قبل معرفتك، توأم الروح، لقد عرفت تمامًا ماذا يعني توأم الروح، إنه ذلك الشخص الذي قد يكون في النصف الآخر من الكرة الأرضية، وربما يكون قريبًا جدًا منك، قد تلتقيه فيهبك حياة، وربما لا تعثر عليه أبدًا، قد تلقاه في الوقت المناسب وقد يكون لقاؤكما في الخريف، على أية حال، فبمجرد لقائه ستعلم أنه هو، توأم روحك، فوجوده سيبعث في نفسك سعادة وفي أيامك راحة، وفي معجمك أروع المعاني، وغيابه سيعني لك الفقد بقسوته، توأم روحك هو ذلك الشخص الذي تذوب بينكما معاني المسافات وإن طالت، فمهما ابتعد فهو القريب. هو من لا تحتاج معه للشرح أو للتبرير أو للتفسير، ربما لا تحتاجان للكلمات. وآهِ إن رحل من بعد لقياه، حينها ستصبح الحياة موتًا من جديد.

آه لو تعلمين أنني مِتُّ من بعدك ألف مرة!»

أسند رأسه فوق قبضة يده المستندة إلى المكتب، ثم قلّب في صفحاته من جديد إلى أن توقف عند إحداها.

«إنه لقائي الأول بها بعد سنوات مؤلمة منذ قررت الرحيل، رفضت أي محاولة مني لأن أظل بين طيات أيامها ولو كصديق. كان لقاءً حمله لنا القدر دون ترتيب من كلينا، جاءت لإنهاء بعض الأوراق في شئون العاملين بالمستشفى، وذهبت أنا إلى هناك لنفس الغرض. لم أصدّق أنها أمامي، بمجرد أن دخلت الغرفة المزدحمة بالأطباء والموظفين نهضت واقفًا لأرحب بها، لألمس كفّها، لأسمع صوتها الحاني الذي حرمتني منه، لأقول لها أنني برغم مرور السنوات ما زلت أفتقدها، وأنني لم أنسها لحظة، لأعترف لها أنني ما زلت أتفقد أخبارها. لكنها عندما صارت أمامي تمامًا رفعت رأسها إليَّ، وحدّجتني بنظرة تحمل أسوأ الاتهامات، سمعتها تقول دون كلمات «أنت جبان، نادمة على سنوات من عمري صدّقت فيها أنك رجل ذو طراز فريد كما كنت أقول لك وعنك، لقد صدّقتك عندما قلت لي إنك تحبني وإنك تملك لي من المشاعر ما لا تسمح لك علاقتنا بالتعبير عنها، نعم صدّقتك وكذّبت إحساسي بأنك لست سوى مجرد رجل كسائر الرجال، ترى أن امرأة مطلقة هي الأسهل لإقامة علاقة، نادمة لأنني وثقت فيك أنت تحديدًا بعد سنوات أغلقت خلالها بابي على نفسي وأبنائي وعملي، ورفضت كل المحاولات من بعضهم لاختراقي. يا فؤاد أنت لم تكن تستحق!»

مددت كفي نحوها، وددت لو صرخت، لو قلت لها لا تفعلي هذا، لا تظلميني، بل كنتِ لي أعظم مما تظنين، فأنا ما زلت رغم السنوات أعاني من تبعات رحيلك، أنا...

لكنها لم تمنحني الفرصة لأقول، فقط مدت لي أطراف أصابعها ثم سحبتها سريعًا.

ـ أهلا يا دكتور، تبدو في أفضل أحوالك.

أعطتني ظهرها وسارت في خطى متعجلة، هربت مني من بين زحام الغرفة نحو زحام الحياة، وتركتني وحيدًا دون أن تكترث لحالي، سمعت صوت الموظف الذي كنت أجلس أمام مكتبه يناديني، وكأن صوته قادم من مكان بعيد، أو كأنني أنا الذي غادرت المكان وذهبت إلى مكان آخر.

ـ تم اعتماد الأجازة يا دكتور.. ربنا يتم شفاؤك على خير.

كانت هذه أجازة عملية القلب المفتوح التي أجريتها منذ فترة وجيزة!»

أغلق مذكراته، واضعًا رأسه بين كفّين مرتعشين هامسًا لنفسه «هي تراني تخليت عنها بسهولة، لم تدر أنني لم أتخلَّ عنها لكنني تخليت وقتها مجبرًا عن راحتي وسعادتي، تخليت عن أمل بدا وحيدًا في أيامي، لقد كانت هي كل هؤلاء بالنسبة لي. أنا لم أتخلَّ عنها ولكن تخليت عن نفسي، فعلت ذلك من أجل هداية وحسين، أو ربما ظننت ذلك دون أن أدري هل أصبت أم أخطأت.

أثناء حديثي اليوم مع ممدوح قلت في نفسي لقد دفعت سعادتي خوفًا من يوم كهذا الذي تأتي فيه ابنتي تشكو لي من ظهور أخرى في حياة زوجها، فأرى في عينيها نظرة اتهام لي بأنني السبب لأنني منذ سنوات تزوجت من امرأة أخرى، أتمنى أن تكون تضحيتي ثمنًا مناسبًا لسعادتك يا هداية!

آه! لو لم يتراجع ممدوح عن علاقته بتلك الأخرى، سأتأكد وقتها أنني ضحيت بكل شيء من أجل لا شيء!»

طرقات على باب الغرفة المظلمة إلا من ضوء أباجورة تعلو المكتب.

ـ أبي، هل هناك شيء؟ هل أنت بخير؟

جاءه صوت حسين يصاحبه همهمات آمال، صوتهما يخترق سكونه، فيردّ بعصبية لم تكن يومًا من سماته:

لا شيء، لا أرغب في رؤية أحد، اتركوني وحيدًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الثاني عشر

«عدت في تلك الليلة إلى المنزل واجمة، دون أن أدري كيف عدت، كل ما أذكره أنني التقطت حقيبة يدي في حركة خاطفة، واندفعت بقوة ما، هل كانت قوة غضب، خوف، أم كانت قوة رغبة في الهروب؟ حقيقة لا أدري! سمعت صوت حمدي في الخلف يُناديني، لم أرد ولم ألتفت، صار صوته أبعد، سمعته ينادي النادل لدفع فاتورة الحساب.

في لحظات كنت أقف خارج الكازينو أشير بيد مرتعشة إلى تاكسي أرسله لي القدر ليُساعدني على الرحيل سريعًا، داهمني شعور بأنني أهرب بأقصى سرعة من شبح يُطاردني.

بمجرد أن دلفت إلى المنزل سمعت صوت التلفاز عاليًا صادرًا من غرفة أبي، خطفت الهاتف الذي سمعت رنينه لحظة دخولي، دون أن أرفع سماعته لأُجيب المتصل، توجهت إلى غرفتي، كنت أعلم من المتصل، إنه حمدي.

عندما كفّ الهاتف عن الرنين، رفعت السماعة وتركتها مرفوعة كي يسمع المتصل رسالة آلية مسجلة بصوت امرأة تبدو آلية أيضًا، صوتها يخلو من أية مشاعر أو انفعالات، تُخبره بأن الهاتف مرفوع مؤقتًا من الخدمة، تمنيت يومها لو تغيرت رسالتها فتقول إن هذا الهاتف مرفوع نهائيًا من الخدمة.

دقات زينب على الباب جاءت متوافقة مع دقات قلبي المتسارعة، كعادتها وقبل أن أسمح لها بالدخول فتحت الباب وابتسامة كبيرة لم أفهمها على وجهها.

ـ مبروك!

استفزتني الكلمة بشدة، فحالتي لا تسمح لي بتلقي أية مباركة على الإطلاق.

ـ لا أفهمك!!

ـ ألم تكوني مع حمدي؟!

أظنني حدّجتها بنظرة لا ذنب لها في تلقيها، فاستطردت تقول:

ألم تتفقا على موعد عقد القران؟

ـ لا لم نتفق!

أعلم أنني قلتها بعصبية.

ـ لماذا؟!

ـ أريد أن أنام، فأنا متعبة!

ـ ولكن...

ـ أريد أن أبدّل ملابسي لأنام!

قلتها بحدّة مضاعفة.

ووسط غمار الظلامين اللذين اختبئت داخلهما، ظلام الغرفة وظلام يُحيط بي من تحت الغطاء حيث أدّعي النوم، وكأنني تصورت يومها أنني هكذا قد هربت نحو الأقصى؛ سمعت بعد دقائق صوت دينا يناديني:

منتهى اذهبي إلى غرفة أبي فهو يريدك حالًا.

ـ أنا نائمة

لم تصمت:

لكنه يريدك!

لم أرد..

يأست ومضت مبتعدة..

تراءت أمامي مشاهد كثيرة لسنوات قليلة خلت قُبيل خطبتي، رأيتني جالسة أمام حمدي في المكتب، وأنا مستعدة للصراخ في وجهه لأخبره بأنني لا أوافق على خطبتي له، ولا لآخر سواه، فإذا به يحكي لي عن حياته، عن طفولته، عن مأساته التي من الطبيعي أن يكون نتاجها حمدي الذي عرفته، حمدي هذا الجامد المنغلق على نفسه، حمدي الذي لا يتأثر بأحد ولا يؤثر فيه أحد، حمدي الذي إن لم أره أمامي لا يخطر على بالي ولا أكاد أتذكره. عندما تعرّى أمامي يومها كاشفًا عن وجع طفولته وقسوة أيامه رأيت لديه وجعًا يشبه أوجاعي وإن اختلفت التفاصيل وتباعدت، ورغم تعاطفي معه يومها إلا أنني لم أعلن موافقتي، كنت بحاجة ماسة لأسمع آراء من حولي، لماذا احتجت لرأيهم؟! أدركت اليوم لماذا، لأن القرار لم ينبع من قرارة نفسي.

أتذكّر كلماتهم جميعًا..

كعادته أبلغني أبي بواسطة زينب، والتي تكرر كلماته دومًا بكل اقتناع، بأن حمدي فرصة عمري، وأن الفرص لا تأتي للبنات إلا في هذه السن، فإن أنهيت دراستي الجامعية وتجاوزت الثانية والعشرين ستختفي فرصي، ربما سيطرق بابي عرسان لكنهم لن يمثّلوا الفرصة المنشودة، بينما إن وصلت إلى السابعة والعشرين من عمري ستموت الفرص موتًا غير رحيم، وسيتقدّم لي عرسان من نوع آخر، رجل كبير في السن، مطلق أو أرمل أو معيل.

ـ حمدي فرصتك الحقيقية يا مُنتهى، سيكون لكِ وحدك، ستكونين كل أهله وعائلته ومستقبله الذي يحلم به!

قالتها زينب بحسرة وهي تمصمص شفتيها وكأنها تقول لي محظوظة أنتِ يا ابنة منصور، يا ليت حالي كان كحالك، يا ليتني تزوجت رجلًا لي وحدي، بلا ابنين يشاركاني كل تفصيلة في حياتي، يشاركاني حتى بيتي، يا ليتني تزوجت رجلًا بلا ماضٍ ثقيل يحمله خلفه.

جاء رأي محمود متوافقًا مع رأيهما تمامًا، أتذكّر كلماته يومها لي:

اذكري لي سببًا واحدًا يجعلك ترفضينه وتفضّلين البقاء هنا في هذا المنزل الذي لم يكن لنا يومًا مكان فيه، فنحن هنا لأننا ابنا منصور رحال، ومنصور رحال هذا لم يحبنا يومًا، نحن خطأ عمره، نحن ماضيه الأسود، هل شعرتِ يومًا بخلاف ذلك؟! هل شعرتِ يومًا بحبه لكِ أو لي؟! هل رأيتيه يومًا سعيدًا لأنه أنجبنا أو حتى لأنه أنجب سوانا؟! حمدي فرصتك يا منتهى، رجل ناضج مسئول، تقدّم لكِ بعد أن عرفكِ عن قرب ودرس شخصيتك، فصار أمرك بالنسبة له أكبر من الإعجاب، لقد أبدى موافقته على استكمالك لدراستك وعلى عملك بعد ذلك إن ظلت تلك رغبتك، فهو يُقدّر أحلامك ويضع طموحك في اعتباره، فلا تكوني مجنونة وتتركي خيالك يصوّر لكِ أن النتاج الطبيعي لتفوّقك في دراستك والتحاقك بكلية الإعلام أنكِ بالضرورة ستصبحين مي زيادة أو سهير القلماوي أو صحفية كبيرة ممن تردّدين أسماءهن! هذا يحدث فقط في الأفلام، لكن أن تتحول الأحلام إلى واقع؟ صعب! أين الوساطة؟ من الذي سيفتح لكِ بوابة صاحبة الجلالة يا شقيقتي المسكينة؟! لا أحد سيفعل لأجلكِ. هل فكرتِ في أن مرتبك من الصحافة سيكون مجرد جنيهات قليلة ستُبقيكِ كما أنتِ تحت خط الفقر، ستظلين تشترين أزهد الملابس، مُجبرة كما أنتِ على طعام بعينه، ستظلين محرومة من أية رفاهية في الحياة، هل هذا هو غاية أحلامك؟! أفيقي يا مُنتهى، فواقعنا بعيد جدًا عن تلك الروايات والكتب التي تحملقين فيها ليل نهار!

الأعجب كان رأي أمي التي طلبت مني زيارتها لأن محمود أخبرها بأمر العريس الجاهز الذي تقدّم لي، وأعترف أنني كنت بحاجة ماسة للاستماع لرأيها، لا أدري هل كنت أحتاجه لأنها أمي أم لكونها امرأة تمتلك تجربة فريدة، وأظن أن السبب الثاني كان الدافع الحقيقي وراء حاجتي.

ـ ما الذي لا يروقكِ في ذلك الرجل؟ ما الذي يجعلك تميلين لرفضه أكثر من قبوله؟

ـ لا أفكّر في الزواج، أخشى مجرد التفكير فيه، لي أحلام أخرى.

ـ إذن الأمر لا يخصّ هذا الرجل تحديدًا؟

ـ أظن أنه لا شيء مشترك بيننا، ربما فقط ظروف التنشئة والطفولة القاسية.

خفضت عيناها لبرهة هربًا من كلماتي، ثم قالت:

علمت كل ظروفه من محمود، وأرى أنه الأنسب لكِ.

أمي ابنة تاجر المجوهرات الشهير، وزوجة المخرج الكبير، وسيدة مصر الجديدة المتميزة، ترى أن حمدي جلال الذي يقطن في ذلك المنزل المتهالك ببين السرايات، والذي يمتلك مكتبًا ليس على خارطة الطريق لكتابة الرسائل العلمية، والذي يكبرني بعشرة أعوام؛ تراه ليس مناسبًا لي فقط بل هو الأنسب!

ابتسمت أنا ابتسامة ساخرة، لكنها لم تردعها عن الاستمرار في محاولة إقناعي:

لا تكوني كأمك، لا تبحثي عن أحلام قد تودي بكِ إلى الهاوية.

ـ وهل أنتِ الآن بين براثن الهاوية؟!

أعترف بأنني كنت جريئة في ذلك اليوم، فلم أُخفِ كعادتي ما يدور بخلدي أو ينهش روحي.

ـ عشت في الهاوية ونجوت منها بمعجزة. لكم كنت رافضة للواقع، هل تصدّقينني لو قلت لكِ الآن إنني لم أعرف الحب بحق سوى مع منصور؟!

نظرت إليها في دهشة، لكن نبرات صوتها كانت تحمل ملامح الصدق، فتركتها تُكمل دون تهكم مني:

الحب جنون، فإن تدخّل العقل في الحب، وأملى المحب شروطه، فهذا ليس حبًا، وأنا أحببت منصور ذلك الحب المجنون، هو أيضًا أحبني بجنون، عشنا الحلم سويًا، لكن هل للحلم أن يستمر مدى الحياة؟ بالطبع لا، فالإنسان لا يحلم إلا وهو نائم، فإن طال الأمد وظل نائمًا فقد مات. لذا فعندما استيقظت من حلمي، وجدت واقعًا مخيفًا يحيط بي من كل الجوانب، حتى منصور نفسه وجدته شخصًا لا أعرفه، ضربني أكثر من مرة، كان يأتيني بعدها نادمًا معتذرًا، لكنّ اعتذارته وندمه لم يقتلا خوفًا صار يسكن جوفي تجاهه، فلم أجد قوة حُبي له بعد ذلك. حبي له صار أشلاء حاولت أن أُلملمها لكنني لم أفلح، صرت مريضة اكتئاب وأنا في العشرين من عمري، عندما وجدت نفسي أمًا لرضيعين، أحيا مع أشخاص لا أعرفهم. حتى منصور الطالب الجامعي الراقي تحول إلى سائق تاكسي عصبي لا يملك من أحلامنا شيئًا، بعد ولادة محمود

اشتدّ عليَّ الاكتئاب فكنت لا أكفّ عن البكاء، وما لم يحكيه لكِ أحد أنني حاولت الانتحار، تناولت علبة كاملة من الدواء الذي كتبه لي الطبيب، أعترف أنني لم أكن قوية لأصمد أمام الظروف، لكن هذا ما حدث. لذا أقول لكِ إن حمدي هو الأنسب لكِ، فكّري بعقلك فقط، هذا ما تعلمته من رعونتي في تلك السن الصغيرة. تعلمت أنه ليس بالحب الملتهب يُبنى الزواج الناجح، لكنه يُبنى بالتكافؤ وبالتفكير الجيد الصائب الذي تصحبه المودة، هكذا بنيت أساسات زواجي بشهاب. فأنا لم أعش مع شهاب قصة حُب، لا أنكر أنه أحبني إلى ذلك الحدّ الذي جعله يتزوج من شابة صغيرة تزوجت قبله وأنجبت طفلين بدافع التهوّر، شابة تكره الدخول في حرب مع أسرته التي بالتأكيد سيكون لها تحفّظات على اختياره لها للزواج، لكن عقليته المتفتحة وإصراره على الزواج مني، والتكافؤ بين أسرتينا، واختلافه التام عن منصور؛ كل هذا دفعني للموافقة.

همست لي سارة قبيل مغادرتي منزلهم قائلة:

منتهى، لا أدري ما الذي قالته لكِ أمي، لكنني أثق في أن حديثها الطويل معكِ لم يكن وراءه إلا نصيحة مخلصة لكِ، فافعلي ما نصحتك به، أثق في أن أمك تحبك يا منتهى!

وددت لو قلت لها لكم هي ساحرة أمك أنتِ يا سارة! تستطيع إقناع من حولها بما تريده، إن لها أسلوبًا مؤثّرًا أخّاذًا، وملامح ناعمة، وصوت مؤثر أملس هادئًا، ونظرة ضعف عجيبة تسكن عينيها!

ربما ظنت أمي يومها أنني تعاطفت معها، لكنني في الحقيقة برغم تصديقي لما قالته إلا أنني لم أجد لها مبررًا حقيقيًا لما اقترفته في حق ثلاثتنا، نعم، فلأول مرة أرى منصور رحال يقف إلى جواري أنا ومحمود في صف واحد، لأول مرة أراه أيضًا ضحية! منصور الذي لم يحمل نفس قوتها، ولم يستطع التلوّن والتكيّف، نعم تجرعا سويًا نفس جرعة السمّ، لكنه مات بينما تعافت هي بجدارة!

اثنان فقط لم يُبديا موافقتهما على أمر خطبتي من حمدي، الدكتور فؤاد ويُسر. لم يستسيغا فكرة خطبتي في هذه السن.

لكنني في النهاية وجدتني وقتها أُعلن موافقتي، ربما لأن جبهة الموافقة كانت أقوى حجة من جبهة الرفض، أو لأنني شعرت أنني متعاطفة مع حمدي الذي اختارني وحدي لسبب لا أعلمه لكي يُشاركني أوجاعه وأحلامه التي تعانده، بينما يأمل في تحقيقها معي، وهكذا تمت الخطبة، ومرت الأعوام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هل كان هذا المساء الأخير في الكازينو، عندما فاتحني حمدي في أمر عقد القران، هو السبب في قراري بفسخ الخطبة؟ لا أستطيع أن أجزم بذلك.

في الأيام التالية لمغادرتي المفاجئة للكازينو واصل حمدي اتصالاته الهاتفية بي، ألحّ كثيرًا ليعتذر عن تصرفه ليلتها، اعتذر عن شوقه الذي جعله يخرج عن حدود لياقة ظلّ ملتزمًا بها أكثر من عامين. اعتذر عن وصفه لي بالبرود، اعتذر حتى عن أشياء لم يفعلها، وتركته يظن أنني غاضبة بسبب ما حدث في تلك الليلة، لكنها لم تكن الحقيقة!

الحقيقة التي بدت جلية أمامي ليلتها أن خطبتي لحمدي قد انتهى أجلها، وأنني يجب أن أتحوّل إلى زوجة له في غضون شهور قليلة. عندما قالها لي يومها شعرت فجأة بأنه نطق بالمستحيل، فأنا لا أفكّر فيه، لا أحب قربه مني، ولا أرغب في الوجود إلى جواره، لا أحب طريقة لبسه ولا رائحة الكولونيا الثقيلة التي تفوح منه. أرتدي خاتم خطبته في يميني دون أن أتأمله يومًا، دون أن تتراءى لي ولو لمرة واحدة صورتي وأنا إلى جواره في منزل يجمعنا، وكأنني ظننت أن علاقتي به ستظلّ خطبة إلى الأبد، أو ربما تصوّرت أن تحولًا سحريًا سيحدث فجأة، ولأنني كنت منهمكة في عملي في المكتب وفي دراستي التي كنت أنشد التفوق فيها، فلم ألتفت لقصتي معه.

هربت يومها من الكازينو وأنا أنتوي الهرب منه للأبد. بلغت الأزمة ذروتها عندما أبلغت أبي بقراري بفسخ الخطبة، وبأنني سأعتذر لحمدي بنفسي حتى أُريح عنهم جميعًا حرجًا أنا المسئولة عنه. صرخ يومها أبي في وجهي بجنون رافضًا قراري وهو يلعني، وانقلب البيت رأسًا على عقب، أقسم إنه سيمنعني من الخروج من المنزل، سيمنعني من الذهاب إلى الجريدة، عاقب كل من في البيت، لدرجة أن دنيا ودينا لم تكفّا عن التوسل لي بأن أتزوج حمدي ليهدأ أبي، بينما نعتني محمود بالتهوّر، قال إنه لا سبب مقنع وراء قراري، وطلب مني أن أعيد التفكير. وكان ردّ فعل هداية عجيبًا، قالت لي في جمود لم ألتمس له عذرًا وقتها:

ـ لماذا ترفضين هذا الرجل؟ هل تنتظرين ملاقاة فتى أحلامك؟ اعلمي يا منتهى أن أسوأ أنواع الزواج ذلك المبني على قصص الحب، فهو يشبه تمامًا رسمك للوحة بديعة للبحر، ثم قضاء عمرك أمام تلك اللوحة مُنتظرة أن تستمعي إلى صوت ارتطام الأمواج! حكّمي عقلك فقط، إنه العامل الرئيسي في اختيارك لزوج المستقبل.

أظنها لم تسمعني حينما حلفت لها إنه لا فتى أحلام يسكن خيالي من الأساس، بينما ابتلعت تساؤلات فاض بها صمتي، فكيف تقول هذا وهي من تزوجت عن حب رجلًا شاركته كل شيء، الدراسة والتفكير والأحلام، كيف؟!

تدخّل الدكتور فؤاد ليُقنع أبي بألا يُعاقبني على قراري الخاطئ الناتج عن صغر سني وقلة خبرتي، قال له كيف تعاقبها بإصدارك قرارًا مصيريًا أشد خطأً؟، ثم سأله: وهل يجوز إكراه البنت على الزواج يا منصور؟!

كانت المرة الأولى التي يطلب فيها طارق زوج يُسر لقاء أبي لأمر هام، جاء لزيارتنا وطلب أيضًا من أبي ألا يفعل، ألا يحوّل حياتي جحيمًا، وأنا الفتاة التي ما زلت في مقتبل الحياة. قال له إنه اختيارها، إن أثبتت لها الأيام صحته فقد فازت، وإن ثبت لها العكس فستكون هي النادمة الوحيدة، بيمنا رجته يُسر دامعة: «اتركها تتراجع الآن لا لاحقًا!» وكأنها تذكّره بماضٍ سحيق.

ورغم هذا لم يتوانَ أبي عن كيل كل أنواع اللعنات لي، مصحوبة بقذائف من السباب، ولكمات من الكلمات التي من المستحيل أن ينجح الزمان في محو وقعها القاسي على نفسي، وكأن رصيده عندي كان يحتمل المزيد من المرارات!!

ثم أبلغني بنبرة صوت عالية تفيض بالعصبية والغضب بأن أفعل ما يحلو لي، ولكن عليَّ أن أعلم أنني سأندم أشدّ الندم، ثم قال:

أنتِ لستِ سوى نسخة أخرى منها، تتصرفين بنفس طريقتها، ارتضيتِ خطبة الرجل حينما كنتِ مجرد طالبة تعملين في مكتبه، لكن عندما جاءتك فرصة العمل كصحفية، نظرتِ خلفك فوجدتِ الماضي لا يليق بكِ، فالتفتِ نحو مستقبل يلوح لكِ من بعيد. أنتِ لستِ صورة من منتهى التميمي، أنتِ هي، تحملين نفس ملامحها الناعمة التي تُخفي وراءها ما لا يمكن تصوّره، تحملين نفس قدرتها على التخلّص مما لا يروق لكِ في أية مرحلة، ولا تجدين غضاضة من أن تبدأي بداية جديدة هي الأنسب لكِ وحدك، دون النظر إلى بقية الأطراف.

ظلّ أبي لأيام طويلة يجلدني بتلك الكلمات دون أن أملك حق الصراخ أو الاعتراض أو حتى حق التوجّع.

كنت أنا من اتصلت بحمدي وطلبت لقاءه، حملت حقيبة بها شبكته وخاتم الخطبة وبعض من هداياه، أظنني ذهبت إليه بنفس شعور من يحمل كفنه، متوجهًا بكامل إرادته نحو شخص له ثأر عنده، طالبًا منه الصفح والعفو، نعم كنت لا أريد منه سواهما.

لن أنسى ملامح وجهه الذاهلة، قال لي إنه لا يكاد يُصدّق أن كل ذلك بسبب ما بدر منه في لقائنا الأخير، قال:

كيف صدّقتِ خداعكِ لي؟! كيف لبستِ قناع البراءة طوال الوقت، كيف خدعتِ رجلًا يكبرك بكل تلك السنوات؟!

أقسمت له إنني لم أخدعه، وأنني لم أدّعِ شيئًا، لكنني اكتشفت مؤخرًا أنني لم أتعامل معه يومًا كخاطب، وأنه حينما اقترب الأمر من الزواج ، بدا الأمر جللًا بالنسبة لي، فخشيت أن أظلمه. قال إنه راضٍ بظلمي إن كان زواجنا هو الظلم. رجوته طويلا قبل أن أغادره أن يسامحني. لكنّه نظر إليَّ قائلًا:

لكم كنت غبيًا مغفلًا! ظننتك ستختلفين عنها، كيف تصوّرت ذلك! فكل فتاة ما هي إلا تكرار لأمها!

أرخيت رأسي، فاستمر في سلخي:

كنت أتعجب من كونك لم تُديني ما فعلته بكم، كنتُ أتساءل كيف لم أسمعك يومًا تُجرمين فعلتها، الآن فقط علمت، أنتِ ترين أمك على صواب، لقد استيقظت أمك في يوم فوجدت نفسها كارهة لحياتها القديمة، فإذا بها تطوي تلك الصفحة التي تحمل زوجًا وطفلين، وتبدأ صفحة جديدة مثلما تفعلين أنتِ الآن، كلتاكما لا قلب لها!

غادرته دون أن أناقشه فيما قال، دون أن أعاتبه، ودون أن أقول له إنه قد تصوّر هذا لأنني لم أحكِ له أبدًا، لم أفتح له قلبي فأكشف له عن جراح غائرة به، فلقد كنت أحب دومًا أن أبدو بمظهر لائق أمام المحيطين بي، وكان واحدًا منهم ولم أشعر به يومًا أقرب من هذا!

عندما وقفت أمام تلك الصورة المنعكسة في المرآة عند عودتي، ومن بين ضباب دموعي المنهمرة والتي لم يرها أحد؛ حاولت النظر إلى نفسي، فلم أتبينني، لم أدرِ هل تلك التي تقف في مواجهتي هي منتهى رحال أم منتهى التميمي، يومها لم أرَ فرقًا بينهما، فكلتاهما بدأت حياتها بيدين ملطختين بآثار جريمة في حق آخرين، كيف كرهت فعلتها وها أنا أجدني أسير على نفس خطاها كما يقولون عني!

حاول حمدي بعد عدّة أسابيع الاتصال بي هاتفيًا أكثر من مرة، لكنني لم أرد على أي من اتصالاته، وعندما يأس أرسل لي خطابًا على الجريدة التي أعمل بها، طلب مني فيه أن نكون أصدقاء، لكنني لم أفعل، كنت على قناعة أن علاقتي به يجب أن تنتهي تمامًا، وأن قبولي لصداقته بعد فسخ خطبتنا ستكون قمة الأنانية مني. فأنا أعلم أن علاقة حمدي بي ستظل دومًا علاقة حب أحادية الطرف، وإن قبلت عرضه تحت مُسمى الصداقة لن يوقفه هذا عن حبي رغم كل عيوبي التي يعلمها عني، ورغم كل ما فعلته به، إنه الحب الذي لم يعرفه قلبي، لكن قرأت عنه كثيرًا بين رحايا الورق. فآثرت أن أبتعد عنه تمامًا، وأظلّ في نظره تلك القاسية عديمة القلب، لعلّ هذا يُكفّر جزءًا من ذنبي».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعصبية شديدة أغلق ممدوح باب الشقة، مناديًا هداية بصوت يفيض بالعصبية، انفجر غضبه عندما تقدّمت نحوه:

لا أكاد أصدق أنكِ تفعلين ذلك، إنكِ تفقدين صوابك يومًا بعد يوم، فبعد لقائي بوالدك تصارحنا، وأكدت لكِ إن علاقتي بلبنى مجرد صداقة، وأنكِ تبالغين في تصورك للأمور.

ـ ووعدتني أن تقطع صلتك بها.. أليس كذلك؟!

لم يرد بينما كان ينفث دخان سيجاره بيده ويستشيط غضبًا مثلها تمامًا.

ـ أنت لم تفعل يا ممدوح!! ما زلت تُنكر الأمر برمته، لذا لا أمل في العلاج طالما أنك لا تعترف بالمرض.

ـ وطالما لا أعترف تتصلين بزوجها لتُخبرينه أن زوجته على صلة بي؟! هل جُننتِ؟!

ـ لا لم أُجن! لكنني أحاول أن أعيدك إلى صوابك، طالما أنك ترفض الاعتراف وتأبى التراجع!

ـ أنتِ تؤذينها، تُدمرين بيتها، تُسيئين إلى سمعتها وسمعتي، تتصرفين بجنون وعشوائية كما يحلو لكِ، بمنطقك وحدك دون أخذ أي شيء آخر في الاعتبار. أنتِ تلجأين دومًا إلى الحلول البعيدة، دون أن تبحثي في الجوار عساكِ تجدين غايتك!

ـ تتحدث كواعظ، بينما تسير في درب الرذيلة بكل ثقة!

ـ إياكِ والخطأ، إياكِ وتجاوز المزيد من الحدود!

اشتعل الصراع وتزايد الخلاف كعادتهما في الفترة الأخيرة.

لقد ازداد عذاب هداية عندما بحثت وراء لبنى، واقتفت أثر كل معلومة تخصها، فذهبت إلى الفندق الذي تعمل به ورأتها دون أن تتقدم لتقترب منها، كانت مفاجأة بالنسبة لها أن تجد غريمتها دونها في الجمال، لا يميزها شيء ليبرر تعلق ممدوح بها. استوقفها عمر لبنى التي تبدو أكبر من ممدوح بسنوات، ثم تقصت أكثر فتأكدت أنها تكبرها وتكبره بثماني سنوات. كيف لامرأة مثلها أن تستولي على قلبه؟ ترك هذا السؤال في روحها شعورًا بالفشل والخذلان، فأن تكون الأخرى في حياة الرجل دون الأولى، فهذا يعني أن الأولى أقل بكثير مما تتصوره عن نفسها ومما تعلمه عن حالها.

حينما اجتمع على هداية إحساسها بالمهانة والرغبة في الانتقام من غريمتها؛ لم تدّخر جهدًا للحصول على رقم هاتف زوجها وأخبرته أن زوجته على علاقة

بزوجها المهندس الذي يصغرها بسنوات كثيرة، وأنه يجب أن يتخذ فعلًا رادعًا ليجعل زوجته بمنأى عن زوجها. بهت الأستاذ الجامعي الذي يعيش في بلد عربي ويأتي لزيارة أسرته في الأجازات. ظنت هداية أنه أغلق السماعة في وجهها، لكنها وجدته ما زال على الطرف الآخر من الهاتف، فأخذت تصرخ وترجوه أن تبعد زوجته عن زوجها، فبيتها على وشك الانهيار بسببها.

كانت تشعر أنها في معركة، ويجب عليها ألا تتوانى في استخدام كل أسلحة الدمار كي تفتك بعدوتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدأت منتهى خطواتها في بلاط صاحبة الجلالة بحماسة شديدة، كصحفية تحت التدريب بقسم التحقيقات مع مجموعة زملاء يشاركونها نفس البداية، وعلى وعد من الجريدة بتعيين من سيُثبت كفاءته منهم بعد ستة أشهر.

في أيام عملها الأولى تعرفت على غُبريال بشارة، المصور الصحفي الشاب الذي يصحبها في معظم التحقيقات التي كانت تُكلّف بها، عرفته شابًا شديد النشاط، مُعتدًا بنفسه، واثقًا من أنه لن يكون مصورًا صحفيًا عاديًا، بل سيكون اسمًا لامعًا وصاحب مدرسة ذات خط مختلف في هذا المجال، في لقائهما الأول تعجبت منتهى عندما وجدته يتحدث العربية باللهجة العامية، لقد ظنته أجنبيًا، أوحى لها بذلك لون بشرته الداكن وملامح وجهه ذات الأنف الأفطس والشفتين الغليظتين والشعر المجعد، بينما علمت فيما بعد أنه ابن صوفيا حبيب، واحدة من أشهر الصحفيات المصريات. بالتأكيد يحمل لون أبيه، ربما كان غُبريال ابنًا لأب أجنبي، هكذا همست منتهى لنفسها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عقب عدة شهور من بداية تدريبها الصحفي أخبرها ياسين وهبة بأنه يتابع عملها وتحقيقاتها، ووجد فيها ما كان يتوقعه منها تمامًا، وأنه طلب من مسئولي قسم التدريب بأن يكون غُبريال هو المصور الصحفي الذي يشاركها تحقيقاتها لأنه يعرفه جيدًا منذ كان طفلًا، فهو ابن صديقته العزيزة ورفيقة دربه الصحفي الوعر. قال لها إنه واثق من أنها وغبريال ستجمعهما أشياء كثيرة مشتركة، منها الجدية والطموح والحماسة.

كانت المرة الأولى التي يلتفت فيها إلى إصبعها الخالي، فقال:

هذا أفضل جدًا، لم يكن يناسبك البتة.

قالها ببساطة شديدة، كتعليق هامشي. آثرت الصمت بينما شعرت أن كلماته بمثابة يد حانية تربت على أوجاع تظنها لن تُشفى أبدًا.

ضايقته نظرة انكسار في عينيها، فأراد أن يأخذها بعيدًا، فقال:

قلتِ لي منذ يومين أن لديكِ ما تناقشيني فيه، هاتِ ما عندك.

ـ أبهرتني سلسلة مقالاتك الأخيرة.

ـ حقًا؟ ما الذي رأيتيه فيها؟

ـ فكرة العدالة الاجتماعية التي تناولتها بمنطقية شديدة، كتاباتك عن حقوق المواطن وربط مفهوم العدالة الاجتماعية بالأمن القومي، أحببت تلخيصك لحقوق المواطن في أن يتوفر له علاج حقيقي في المستشفيات العامة لا يقل عما يقدم في أرقى المستشفيات الخاصة، وأن تتوفر له خدمات الإسعاف السريعة في الحوادث، وحقه في ساحة خضراء للتنزه، وحصوله على خدمة حقيقية مقابل كل قرش يدفعه، وأن يجد بساطة في الإجراءات، وشاطئًا يحقّق فيه حلمه في التمتع بالبحر، وأن يجد سفارة أو قنصلية في الخارج تبحث عنه، وتدافع عن مصالحه، وأن يشعر كل مواطن أن الدولة مسؤولة عنه إذا أصابه العجز أو الشيخوخة أو المرض، وأن يستشعر أن الدولة تجيد العطاء قدر إجادتها للأخذ، وأن نفس القواعد التي تحفظ للشرطة هيبتها، وللجيش حرمته وصلابته، تحفظ عليه أيضًا كرامته كمواطن.

كانت تتحدث بحماسة شديدة وكأنها تُلقي خطبة، بينما وضع رأسه فوق قبضة يده اليُسرى، متكئًا بمرفقه إلى المكتب، ناظرًا إليها بإعجاب شديد من خلف نظارته، فاستطردت تقول:

اتفقت معك تمامًا حينما تحدثت عن خوفك الشديد من أن نسقط جميعًا في كارثة حرب أهلية لا يعلم إلا اللـه مداها أو نتائجها. حرب بين الأغنياء، شديدي الغنى، والفقراء شديدي الفقر. إن كتاباتك عن اختلال ميزان العدل الاجتماعي في مصر بسبب ترنح الاقتصاد المصري شديدة المصداقية، أرى إن دفاعك عن العدالة الاجتماعية ليس هجومًا على الأغنياء، بل على العكس دفاعًا عنهم.

ـ اختلفت رؤيتك كثيرًا لكتاباتي يا منتهى!

ـ ربما صرت أكثر نضجًا يا أستاذي.

قالتها وابتسامة فخر بأستاذها تزين شفتيها الورديتين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لأول مرة تشعر منتهى بحاجتها إلى ذلك المبلغ القاطن بين ضفتي دفتر التوفير، فعملها يُحتم عليها اختصار الوقت والمسافات، فرأت أن الهاتف المحمول الذي ظهر في الآونة الأخيرة سيساعدها في اقتناص فرص قد تكون فارقة في مستقبلها.

عندما احتاجت في السنة النهائية في الجامعة إلى شراء كاسيت صغير لتقوم بتسجيل لقائها مع الأستاذ مصطفى أمين؛ استطاعت يومها أن تدّخر ثمنه من مرتبها البسيط في مكتب حمدي، لكن المبلغ الذي تحتاجه لشراء هاتف محمول بدا أكبر بكثير مما تملكه أو تستطيع ادّخاره، لذا قفز إلى ذهنها دفتر التوفير الذي ترقّعت كثيرًا عن اللجوء إليه.

عندما ذهبت إلى مكتب البريد كانت تعلم أنها تسحب أكثر من ثلث المبلغ الموجود بالفعل، لكنها فوجئت بالموظف يخبرها بأن دفتر حسابها ينطوي على مبلغ أكبر بكثير مما تظن، طلبت منه أن يتأكد فهي لا تملك من المبلغ الذي ينطق به سوى أقل من ربعه على أقصى تقدير، لكنه أكد لها إنها لو كلّفت نفسها بالنظر إلى مُحتوى الدفتر الذي جاءت به لعلمت أنه يتم إيداع مبلغ سنوي في هذا الدفتر، وأن الموقّع على الإيداع هو مدحت التميمي!

تذكّرت منتهى أنها دائمًا عندما تلتقي بخالها مدحت أثناء زيارتها لأمها ثالث أيام كل عيد بشكل منتظم، كان يطلب منها أن ترسل له دفتر التوفير الخاص بها ليقوم بإجراءات سنوية روتينية به.

تذكّرت حديثه لها ولمحمود يوم أن أعطى كل منهما دفتره:

من سيحافظ منكما على المال الذي في دفتره سأضع له مبلغًا مماثلًا كل عام. ظنت وقتها أن كلماته ليست سوى كلمات تحفيزية ليحافظا على المبلغ، ولا يُبددانه.

إذن كان يُضاعف لها المبلغ كل عام، بينما لم يفعل نفس الشيء مع محمود الذي أنفق كل ما في دفتره وأغلقه بمجرد الحصول عليه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في المساء دلفت منتهى إلى المنزل وعلامات السعادة بادية على وجهها، كانت تحتضن صندوقًا صغيرًا يرقد بين طياته هاتف محمول وشريحة ساعدها غبريال في شرائهما، فهو الوحيد بين زملائها الذي سبقها لامتلاك مثله. هرعت دنيا إليها بمجرد سماعها لصرير الباب، بدت كعادتها تحمل خبرًا لا تطيق كتمانه، غمزت بإحدى عينيها اللوزيتين إلى منتهى لتقول بإشارة تفهمها الأخيرة «هلمي إلى غرفتك، فلدي ما أقوله»، ابتسمت منتهى ابتسامة ذابت بمجرد أن قالت دنيا ما قالته.

ـ محمود سيتزوج بعد أسبوعين يا مُنتهى!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الثالث عشر

جلست منتهى إلى مكتبها منشغلة في وضع لمساتها الأخيرة على ذلك التحقيق الذي كرست له كل جهودها خلال أسبوعين خليا، تحقيق تفتحه وتكتب في موضوعه من عدة زوايا مختلفة بشكل دوري منذ ثلاث سنوات، في ذكرى مؤلمة بعينها، ذكرى لن تغيب. لم يعد مجرد تحقيق ولم تعد مجرد ذكرى، بل أصبحت بالنسبة لها قضية ترفض أن تموت، وملف يأبى أن يُغلق.

صدر من هاتفها المحمول صوت الرنة الخاصة باستلام الرسائل فقطع استرسال أفكارها، نَحَّت قلمها جانبًا، والتقطت الهاتف، بضغطة واحدة فتحت الرسالة التي لم تجد فيها سوى كلمة وحيدة «عفوًا»، ابتسمت ابتسامة واهنة، فالمرسل غُبريال، كتبت له «ولماذا يتوجب عليَّ شكرك من الأساس أيها الغبريال؟»

رنة جديدة صاحبتها رسالة أخرى «هكذا هم أمثالك الناكرون للجميل، لا يتذكرون المعروف الذي يُسديه لهم الكرماء أمثالي!»، ابتسمت من جديد ووضعت هاتفها. لم تكن مُهيّئة لمداعباته وجداله اللذين لا ينتهيان، إلا أن غُبريال بدا مصممًا على إتمام ما يودّ قوله، وإن لم ترد. ففي خلال لحظات ظهرت على الشاشة رسالة جديدة «في مثل هذا اليوم منذ عشر سنوات كنت معكِ لأختار لكِ أول هاتف محمول تمتلكينه! أتذكر جيدًا هذا التاريخ لأنه كان يوم ميلاد أمي صوفيا».

أرسلت له نصف قوس تعلوه نقطتين، مجرد رمز هاتفي حديث يُعبّر عن ابتسامة لم ترتسم على شفتيها!

قامت عن المكتب محركة جذعها يمينًا ثم يسارًا في محاولة منها لنفض الألم عن ظهرها، لم تنتبه إليه إلا في تلك اللحظة، يبدو أن جلستها طالت دون أن تنتبه، أو ربما قامت لتنفض عن روحها صورة ذلك اليوم الذي ذكّرها به غُبريال، هل حقًا مرت عشر سنوات عليه؟ يالها من سنوات طويلة حملت العديد من الأحداث التي يليق أن توصف بالجسام!

شعرت بأنها كانت حمقاء عندما سكنها يقين منذ طفولتها يؤكد لها أنه في حالة تحقق حلم بعينه ستكون قد امتلكت السعادة بحذافيرها، بل وامتلكت نواصي الراحة التي لا نصب بعدها، فها هو حلمها وقد تحقق، أصبحت منتهى رحال الصحفية التي لطالما حلمت بها، صارت مديرة التحرير في نفس الجريدة التي التحقت بها منذ سنوات عشر كصحفية تحت التدريب، بل والأكثر من ذلك؛ أصبحت مراسلة صحفية لأكثر من وكالة أنباء، وصار اسمها حينما يتردد على ألسنة القراء والمثقفين يقترن بالعديد من الصفات،

كالموهبة والنجاح والجدية والتفاني والذكاء وسحر الأسلوب الذي يمكّنها من توصيل أعقد الموضوعات والتحقيقات الى القراء ببساطة بالغة، إذن ها هو حلمها القديم يجلس ساكنًا إلى جوارها ككلب عجوز وفيّ يرقد باسطًا ذراعيه تحت قدمي صاحبه أمام مدفأة مشتعلة في ليلة باردة، لكن هل بتحققه قد أمسكت حقًا بتلابيب السعادة؟ ماذا إذن عن أوجاع مريرة تثقل كاهلها، وذلك الأنين الذي يجوب أنحاء روحها دون أن تسمح لنفسها بالحديث عنه أو البوح به؟ بل لقد فعلت ذلك مرة واحدة، لكن حتى تلك المرة التي استجمعت فيها شجاعتها، وفكّت أسر أنينها، لم يكن لها صدى! لقد فعلت عندما أرسلت إلى نديم رسالة باحت فيها بكل شيء فلم يُكلّف نفسه عناء الرد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عادت بذاكرتها عشر سنوات إلى الوراء، إلى ذلك اليوم التي وخز غبريال ذكراه، حينما صعقها ما أخبرتها به دنيا، كيف يتزوج محمود الآن؟ إنه لم يُنهِ دراسته بعد، فما زال طالبًا مُتعثرًا في السنة الثانية بكلية الحقوق، بالطبع لم تسأل يومها عن العروس، كانت تعرف جيدًا من تكون!

وكأن محمود كان يعلم أن مواجهة منتهى ستكون هي الخطوة الأصعب فقام بتأجيلها إلى النهاية، أبلغ أمه بقراره ثم أبلغ أباه، وظلّت هي المؤجلة.

بقيت ليلتها قابعة في فراشها الضيّق، مستيقظة في انتظاره، بينما مرت اللحظات كأثقل ما تكون.

عند عودته حاولت أن تُحادثه بصوت خفيض وبمنطق يتفهمه، حاولت أن تتمسك بشعرة من الأمل.

ـ لمَ يا محمود؟!

ـ ولِمَ لا؟

ـ عمرها يقارب عمر أمك!

ـ أمكِ وأبوك كانا في نفس العمر، فماذا كانت النتيجة؟ لقد كنا نتاجًا لأكبر خطأ ألا وهو زواجهما!

ـ أعطِ لنفسك فرصة!

قالتها متوسلة.

ـ هي من ستُعطيها لي!

كلماته استفزتها، فقالت في اندفاع.

أنت أحمق!!

ـ ولماذا رفضتِ قبول نفس الصفة حينما فسختِ خطبتك من حمدي؟ لماذا ترغبين في مُصادرة حقي في الاختيار بينما تتمسكين أنتِ بحقك إلى النهاية؟ سأتزوجها وسنعيش في إيطاليا، سأحمل الجنسية الإيطالية وجواز سفر ينتمي إلى أوروبا، سأفعل ذلك لأحيا.

ـ تظن لأن هذا الطريق هو الأسهل فسيكون مفروشًا بالورود، أنت مخطىء يا محمود!

ـ للصواب عدة زوايا أخرى، وليست تلك التي ترينها فقط، الأمر نسبي!

كان يتحدث بعناد وثبات شديدين بينما سؤال يُلحّ عليه، في ماذا تناقشه منتهى الآن؟! لقد كان يُخطّط لزواجه من ماتيلدا منذ أن أعلنت الأخيرة له عن رغبتها في وجوده إلى جوارها، لم تكن مجرد رغبة عابرة، بل رغبة مع سبق الإصرار، فلن ينسى ذلك اليوم الأول الذي التقاها فيه، كان مجرد لقاء عمل، تلخص في حديث دار معظمه عن عروض سياحية مقدّمة من قبل شركة السياحة التي يعمل بها إلى المركز الإيطالي الذي ترأس ماتيلدا أحد فروعه، إلا أنه بعد مغادرته فوجئ بمكالمة منها في عمله في السادسة مساءً، تعجّب من أن تكون قد قامت بدراسة العرض الذي قدّمه لها في الصباح بمثل هذه السرعة، لكنها أخبرته بأنها في حاجة إلى مساعدته، فلقد اكتشفت لتوّها أنها قد فقدت ميدالية مفاتيحها، غالبًا سقطت منها في التاكسي الذي استقلته إلى منزلها بوسط البلد، اكتشفت هذا بينما تقف هي وابنتها على باب الشقة ووالدتها المسنّة بالداخل لا تجيب طرقاتها. فإذا بها أثناء فتح حقيبتها لتُخرج هاتفها المحمول باحثة عن حل تجد أمامها بطاقة عمله التي قدّمها لها في الصباح، فتذكّرت أن عنوان الشركة التي يعمل بها تقع في البناية المقابلة لمنزلها، وهكذا وجدته الأقرب منذ اليوم الأول لتعارفهما.

مع ماتيلدا عرف محمود أول قبلة تهبها له امرأة كاملة، كانت أول امرأة تلثم شفتيه بمنتهى الرغبة، ليتأكد أن الفتيات اللائي خطف منهن قبلات قبلها لم يكن نساءً، فمعها دون سواها كانت أول ضغطة على جسد بضّ جيد التوصيل للحرارة، ضغطة أرسلت في جسده تيارًا كهربائيًا عاليًا، كانت تهمس في أذنه أنها تعشق فحولته، وتؤكد له أنه رجلها الذي كانت تؤمن بوجوده من قبل أن تلقاه. ماتيلدا هي المرأة التي نفحت بين أوصاله بالرجولة فجأة، صار رجلًا بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ، ترفض أن تذهب إلى أية سهرة إلا بصحبته، جعلته أبًا لابنتها ماريا التي تبلغ من العمر عشرة أعوام، وأصبحت تطلب منه كثيرًا اصطحابها إلى منزل إحدى صديقاتها أو مشاركتها نزهة ما. لقد طُلّقت ما تيلدا من والد ماريا الإيطالي المخمور بعدما تعثرت علاقتهما الزوجية ثم آلت في النهاية إلى المرحلة التي تستحيل معها العشرة، فلم يعد يصلح لها كزوج ولا لماريا كأب، لم يعد جديرًا بتحمل أي مسئولية عنها أو معها.

جاءت ماتيلدا إلى القاهرة حينما وجدت فرصة عمل جيدة أخبرتها بها صديقة لها، وظيفة بمركز تعليم لغات إيطالي سيقوم بفتح فروع له في مصر، ويحتاج مديرين إيطاليي الجنسية بمواصفات معينة، تتوافر جميعها بها، لم تكن جودة الفرصة وارتفاع المرتب، والذي كان بالعملة الصعبة، هما السبب الوحيد لقبول ماتيلدا لتلك الفرصة، لكنها أيضًا كانت في حاجة مُلحّة للابتعاد عن «جنوا»، مدينتها الإيطالية التي لم تفكّر يومًا في الرحيل عنها، لكن صار كل ركن فيها يُذكّرها بقصة زواج فاشلة، وطلاق غير ناجح، فحقوقها التي حصلت عليها على أثره لم تكن مرضية بالمرة، فزوجها كان مُكبلًا بديون جعلته قاب قوسين من السجن أو أدنى.

في مثل تلك الليلة، منذ عشرِ سنوات، أخبر محمود منتهى بأن أمر زواجه من ماتيلدا قد صار أمرًا مفروغًا منه، فهو يرغب في جنسية جديدة بحقوق مواطنة حقيقية، وليست مجرد شعارات زائفة تستخدمها الحكومات، دون أدنى محاولة في منح الحقوق الحقيقية لمواطنيها الذين صاروا بلا حقوق. قال لها يومها إنه يحلم بمجرد حياة.

ـ وماذ عن دراستك؟ ماذا عن الجامعة يا محمود؟ هل ارتضيت من الحياة بتعليم متوسط كأبيك؟!

سألته وهي تغالب دموع تجد مرارة طعمها في حلقها.

ـ رتبت مع ماتيلدا كل شيء، سأستكمل دراستي هناك، سألتحق بدراسة أريدها، أجد شغفي فيها، لا دراسة يزجني فيها نظام تعليم عقيم، يدّعي أن مجموعي لا يؤهلني إلا لها.

ظلت مُطرقة تحدّق في ذكرياتهما معًا، في عمرهما سويًا، وهل كانت لحظات عمرها بأكمله سواه؟ لقد كان شقيقها وولدها وصاحبها منذ أن وعيا على الحياة.

ـ أتريد إقناعي أن لا أحد سواي مُعترض على زواجك منها؟! أنا الوحيدة المعقّدة الحمقاء التي يقتلها القلق والحزن عليك! ماذا عن ردة فعل أمك وأبيك؟

ضحك ضحكة مستهزئة:

ـ إقناعهم لم يكن صعبًا يا عزيزتي، لماذا لا تريدين الاعتراف بما أنتِ موقنة منه؟ أنتِ وأنا لا أحد يهتم لحالنا، نحن عبئان كنا وما زلنا، وُلِدنا هكذا! لقد كنا عبئين حتى على من أنجبتنا، فتخلصت منا في أول فرصة واتتها، ثم لم تشعر بالندم أبدًا.

انهارت مقاومتها فأسلمت روحها المتُعبه لنوبة بكاء عنيفة. اقترب منها مُقبّلًا رأسها، ثم رفع ذقنها الدقيق بأنامله بينما هي مطرقة تحاول إخفاء ملامح انهيارها، وقال بحنان:

منتهى، أعلم قدر حُبك لي، بل أثق أنه لم ولن يُحبني أحد مثلما أحببتيني، وأعلم جيدًا أنه إلى اليوم لم يحتلّ آخر مكانًا في قلبك إلى جواري، لكن كل ما أرجوه منكِ أن تعقلي الأمر، صدقيني أنا ليس لدي ما أخسره، لا أمتلك الأموال ولا الأملاك التي ستتزوجني ماتيلدا لتسطو عليها، فلتعتبرينها مغامرة يا منتهى، فإن لم تنجح سأعود لأبدأ من جديد، وإن نجحت فسأختصر من عمري سنوات كثيرة، في الأغلب كانت ستمضي دون أن أحقق شيئًا.

بعينين دامعتين متوسليتن نظرت إليه، وجاء سؤالها الأخير من بين دموع تأبى أن تتوقف:

ألا تخشى أن تصبح يومًا في منتصف الثلاثينات وأنت زوج لمن تخطت الخمسين من عمرها؟

أجابها بهدوء بدا لها عجيبًا:

لا، لا أخشى، فبكل بساطة سأكون قد حققت أحلامي، ولن يمنعني شيء من تحقيق المزيد. إن صارت ماتيلدا عجوزًا سأرتبط بمن أشعر بميل لها، صدقيني فكرت في كل الاحتمالات.

أجهشت بالبكاء من جديد، عندما تأكدت أنه لا مفر من رحيل صغيرها نحو مستقبل غامض، ومغامرة يحيط بها الخطر من كافة الجهات.

احتضنها، بينما لمعت عيناه الواسعتان العميقتان وسط غيمة من الدموع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما ألحّ عليها غُبريال لمعرفة السر وراء ذبولها الملحوظ وابتسامتها الغائبة، أخبرته بأمر زواج محمود. قال لها إن الأمر لا يستدعي كل هذا الحزن الذي يراه مُخيمًا على ملامحها، أخبرها بأن كل إنسان يجب أن تكون له حرية الاختيار، كما أن شقيقها لم يعد طفلًا، فهو «عاقل رشيد»، وأخبرها يومها بأنه أيضًا لن يتزوج إلا من أجنبية، لم تردعه نظرتها التي سددتها إليه، فقال:

إنه قراري منذ سنوات طويلة يا عزيزتي، وإن لم ألتقيها بعد.

بدت لها كلماته غريبة وغامضة لم تفهمها وقتها، فاستطرد قائلًا:

لكن الذي أتعجب له بحق موقف والديكِ، موقف عجيب من أم وأب مصريين، ما أعلمه أن الأم المصرية في مثل هذا الموقف لا تتوقف عن الندب والعويل على اختيار ابنها لأجنبية.

صمتت منتهى ولم تُعقّب. فغُبريال لا يعلم شيئًا، ولم تكن تنتوي أن تُعلِمه، لولا الذي حدث بعد ذلك بشهور عندما تم تكليفهما من قبل الجريدة بتغطية افتتاح دار أيتام.

كان تحقيقًا مدفوع الأجر للجريدة، لم تكن منتهى بحاجة لأن تسأل رئيسها ولِمَ تقوم دار أيتام بعمل إعلان بكل تلك المبالغ، أليس أيتامه أحوج؟ فلقد كانت تعلم أنها طريقة لجمع تبرعات للدار بشكل غير مباشر، إنه الأسلوب الأكثر ذكاءً وتأثيرًا.

حملت معها «الكاسيت» الصغير الذي تستخدمه في تسجيل كافة لقاءاتها على أشرطة الصغيرة تقوم بإفراغها فيما بعد على الورق، وتُعيد صياغته بشكل صحفي. كانت تجلس إلى جوار غبريال أثناء قيادته سيارته التي أهدته إياها أمه صوفيا عقب التحاقه بالجامعة، متوجهان إلى دار الأيتام، حينما قالت:

هذا المشروع الخيري عبارة عن ملجأ للأيتام، بمعنى أكثر إيضاحًا ملجأ للقطاء.

لم يُبد غُبريال تعليقًا، بينما كانت تُقلّب في أوراقها، فاستطردت تقول:

فاللقيط هو من لا نسب له، لا أب ولا أم، وهؤلاء المساكين هم من يتم إيداعهم مثل هذه الدور، يُطلقون عليهم أيتامًا مجازًا، لن تُصدّق يا غبريال الإحصائيات الخاصة بتعدادهم في مصر، لقد كان الأمر صادمًا لي!

رفعت عينيها إليه فلم تجد منه اهتمامًا يُذكر بحديثها، وبرغم أن عمل غُبريال يكمن في التصوير، إلا أنه كان بينهما اتفاق ضمني على التحضير لعملهما الصحفي قبل البدء فيه، ثم مراجعته سويًا قبل أن يتم عرضه على رئيسهما المباشر.

«يبدو أن حياة غُبريال المترفة جعلته بعيدًا كل البعد عن التحمس لقضية اللقطاء والأيتام ومن على شاكلتهم»، هكذا همست لنفسها وهي تتوقف عن الحديث وتستكمل الإطلاع على الأوراق التي بين يديها، والتي التي قامت بكتابة أسئلتها الصحفية فيها.

صعدت وغبريال، الذي كان يحمل بعناية كبيرة كاميرته الاحترافية باهظة الثمن، درج الملجأ، والذي كان عبارة عن فيلا قديمة صغيرة تُحيط بها حديقة عجوز، تعلوها لافتة كبيرة حديثة كُتِب عليها «دار المحبة للأيتام».

تسمرت منتهى فجأة في مكانها، لاحظ غبريال ذلك عندما ناداها بينما قام بتقديم نفسه لصاحبة الدار كمصور صحفي مرسل من الجريدة، ثم عاود الالتفات إلى منتهى التي لم تتحرك من مكانها، لدرجة أنها لم تنتبه إليه إلا بعد أن ناداها للمرة الثالثة، بل إن السيدة الجميلة صاحبة الملجأ نادتها باسمها

أيضًا. ظنها في البداية قد عرفت اسمها من نداءاته المتكررة لها، لكنه شك في ظنه حينما وجد السيدة لم تكتفِ بمناداتها فقط، لكنها استقبلتها بحفاوة واضحة.

تركها غُبريال لتقوم بعملها الصحفي، بينما بدأ يتنقل كنحلة دؤوب بين أرجاء الملجأ ليلتقط بعدسة ثاقبة طموح صورًا مميزة للأطفال ولأركان الدار وتجهيزاته، ولم ينس أن يقوم بتصوير الحجرات الخالية، فهي التي ستخبر القارئ بمجرد النظر إليها أن له دورًا هامًا يجب أن يقوم به من خلال التبرع للمجأ.

بمجرد خروجهما من الدار، وبعد انتهاء مهمتهما التي استغرقت ما يزيد عن الساعة، نظر غبريال إلى منتهى التي كانت ما تزال واجمة، لم تكن نفسها من كانت إلى تجلس إلى جواره في طريقهما إلى الملجأ.

ـ إياكِ أن تقولي لي لا شيء، ماذا بكِ يا منتهى؟

دمعة حبيسة ترقرت في عينيها، بينما ابتسامة تفيض بالمرارة ارتسمت على شفتيها، ولم تستطع الكتمان، فقالت:

أتدري من هي صاحبة دار الأيتام التي التقيناها منذ قليل؟

ـ لا، لقد انصب اهتمامنا على الدار وعنوانه وليس على صاحبته!

ـ إنها منتهى التميمي!

ضيَّق غبريال عينيه الصغيرتين، اللتين بدا بياضهما ناصعًا وسط بشرته الداكنة، بينما يحاول الربط بين المنتهيين.

ـ إنها أمي..

نطقت بها وسكتت ثم أرخت رأسها، «أمي التي يتَّمت رضيعيها، تفتتح دارًا للأيتام، وتجمع لها تبرعات، أليست مفارقة عجيبة!» جملة جاشت في نفسها دون أن تُلقيها على سمع صديقها.

ـ هذه السيدة الثرية المترفة أمك! لقد عرفت من أحدهم أنها زوجة المخرج السينمائي الكبير شهاب المعزاوي!!

قالها بصوت مفعم بالدهشة، فلم يكن خافيًا عليه أن صديقته الشابة الموهوبة هي فتاة مكافحة للغاية، وأنها رغم جمالها الذي ربما يُعرّضها لمضايقات كثيرة إلا أنها تستخدم المواصلات العامة، ولا تطيق تحمل تكلفة التاكسي، وتسكن في منطقة متواضعة تُسمى مصر القديمة!

حينما بالغت في صمتها وبدت أكثر خجلًا، قال:

يبدو أنكِ يا صديقتي تملكين قصة تظنينها الأكثر وجعًا، ويبدو أنها تؤلمك وتُثقل كاهلك لدرجة أنك تخجلين من رفع هامتك لمواجهتي والإجابة على تساؤلاتي!

أخبره صمتها موافقتها على ما يقول، فاستطرد، وكانت كلماته التالية بمثابة طلقات موجهة:

مخطئة يا صديقتي، مخطئة للغاية، ففي جوف الكثيرين منا تسكن قصصًا أخرى ربما تفوق قصتك وجعًا، إليكِ واحدة منها، وللعلم فهي ليست سرًا، فالكثيرون يعلمونها.

ساد الصمت لبرهة ثم استطرد يقول:

لقد كنت أنا في يوم من الأيام واحدًا ممن كنا نقوم بعملنا الصحفي عنهم منذ قليل.

نظرت إليه مشدوهة دون أن تنبس ببنت كلمة.

ـ نعم، أنا ابن بالتبني!

ارتعد جفنيها، وتلاقت أهدابها ثم تباعدت بسرعة أنبأت عن اضطرابها.

ـ أمي صوفيا لم تتزوج من الأساس، لذا فالكثيرين يعلمون من أكون، منهم الأستاذ ياسين وهبة.

ـ أتقصد أنك ابن أحد أقربائها الذين ماتوا، فقامت صوفيا بتربيتك؟!

قالتها وكأنها تقترح ما تبغاه أن يكون.

ـ لا، أنا لست ابنًا لأحد يا مُنتهى، قبل صوفيا لم أكن ابنًا لأحد.

تكاد لا تُصدّق ما تسمعه! إذن هذا يُفسّر لون بشرته وشكل ملامحه البعيدين تمامًا عن لون وملامح صوفيا، والذي نسبته منتهى لأب لم تعرفه ولم تسمع غبريال يتحدث عنه يومًا.

رفعت رأسها ونظرت إليه في ذهول، فاستطرد قائلًا:

اختارتني صوفيا من ملجأ، كانت قد تجاوزت الأربعين من العمر ولم تتزوج بعد، كانت تتوق للأمومة، ولأنها الصحفية ذات الأفكار المتحررة التي تلقت تعليمها في أوروبا، رأت أنها يجب ألا تُضيّع حلمها وتبقى في انتظار زوج قد يأتي وقد لا يأتي، لذا أخبرت أسرتها بقرار التبني، اعترضوا وثاروا عليها، فلم تهتم. ذهبت إلى الملجأ لاختيار طفل، وقتها كنت أنا هناك، أبلغ من العمر أشهرًا قليلة. لوني الداكن الذي يظنه المعظم نقمة كان هو النعمة التي فتحت لي بوابة الحياة في أحضان أم أكثر من رائعة. تصوري! كنت الوحيد

الذي يحمل هذا اللون، شيء همس في روح صوفيا بأنها إن لم تأخدني فلن يختارني أحد بسبب لوني، وأنني سأقضي عمري في هذا الملجأ، هي من حكت لي أنها حينما عادت إلى منزلها في ذلك اليوم، لازمتها صورتي ولم تفارقها، وأن تلك الابتسامة التي ارتسمت على شفتي الداكنتين الغليظتين بمجرد أن أطلت برأسها فوق مِهادي كانت رابطًا سحريًا أعادتها إليَّ من جديد. بذلت صوفيا الكثير من المجهود وتحملت روتين إجراءات في غاية التعقيد لأجل لقيط داكن البشرة لم يكن لأحدهم فيه رغبة، وتعمدت منذ أن وعيت على الحياة أن تصحبني إلى أوروبا وأمريكا كل عام لألتقي بالكثير من الأطفال المتبنين، وظلت تُغذّي في نفسي شعورًا بأنني في نعمة ولست في مأساة، وأعترف بأنها نجحت فيما أرادت.

ظلّت مُنتهى ترمق غُبريال بنظرات ذاهلة تسكن عينيها، فاستطرد قائلًا دون أن يتخلى عن بساطته في الحكي:

لا أريدك أن تقصّي عليَّ حكايتك التي تخجلين منها، لكن فقط أتمنى ألا تخجلي منها بعد اليوم، فأنتِ إنسانة رائعة يا مُنتهى، هكذا عرفتك منذ ما يقرب من العام، افتخري بنفسك وبكفاحك وجديتك وإصرارك على النجاح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تُغادر منتهى مكتبها إلا بعد أن صار التحقيق الذي بين يديها جنينًا مكتمل النمو جاهزًا للخروج إلى النور. أرسلته إلى المطبعة، ثم استقلت سيارتها متوجهة إلي المعادي حيث تقطن منذ فترة مع يُسر. فتحت نافذة السيارة في دعوة منها لهواء بارد يصفع وجهها، فربما يستطيع صقيعه أن يُبرد شيئًا من أوجاع ذكرى تغلي في جوفها أيقظها ذلك التحقيق الذي انتهت منه لتوها. نظرت إلى الساعة الرقمية في الشاشة التي تتصدر تابلوه السيارة، ثم أدارت مؤشر المذياع، إنه موعد برنامج تنتظره، جاءها صوت رخيم لمذيع تعرفه شخصيًا، بعد أن تمّ الإعلان عن البرنامج الذي قامت بإعداد حلقته المميزة الصحفية مُنتهى رحال.

قال المذيع في صوت رصين النبرات وبكلمات جاءت على مهل، بينما أرهفت منتهى السمع، بل خشعت كل حواسها.

«في مثل هذه الأيام منذ ثلاث سنوات كانت حادثة اغتيال رمز مصري هام، حادثة تركت بصماتها في قلب الوطن، فلقد تم اغتيال الكاتب والمفكر المصري ياسين وهبه برصاص شباب لا يعرفون من القرآن سوى ألفاظه. اعتبروه خارجًا عن الملة مع أنهم لم يقرأوا حرفًا واحدًا مما كتب، وكانت فتاوى التكفير التي كانوا يسمعونها من طائفة من المتزمتين كافية لكي يوهموا أنفسهم أن إحقاق كلمة اللـه في الأرض منذور لهم.

اغتالوه لأنه أراد لوطنه دولة مدنية علمانية مؤسسة على حرية المعتقد والفكر، دولة لا يستأثر فيها رجال الدين بالوصاية الدينية على الناس، ولا يحتكر فيها الفقهاء الحديث باسم اللـه، دولة يُفصل فيها بين الدين والسياسة كي لا تتلطخ كلمة اللـه بأوساخ السياسة.

لقد كان ياسين وهبة يرى أنه إذا نبع الرأي السياسي انطلاقًا من الدين، فسوف يتعصب كل منا لرأيه لاعتقاده أنه لم يعد رأيًا بل فرضًا، وأن هذا هو مدخل العنف في الحركات الدينية قديمًا وحديثًا، بينما الأمر على العكس من ذلك تمامًا.

لطالما قال إنه في ظلّ ما نعيشه من فصل بين الدين والسياسة لا غضاضة في أن نختلف، ونقبل بالاختلاف، ونتحاور، دون أن نتصارع بالسيف.

لقد كان الرجل يعتبر الكلمة أقوى من الطلقة، والخطاب أقوى من السيف، والحوار هو السبيل الأوحد للتعايش بين أشخاص مختلفين، لكن خصومه كان لهم رأي آخر، فقد اعتبروه خارجًا عن الملة، لا قارئًا آخر للنص الديني. اعتبروه ملحدًا ومرتدًا، وليس مجتهدًا ممتلكًا لرؤى جديدة، فتمّ اغتياله لحظة خروجه من مكتبه بواسطة شابين منتميين إلى جماعة تدّعي انتماءها إلى دين من أديان اللـه السماوية، وأبدًا أن يكون هناك دين يبيح لإنسان هدر دم وحياة آخر لخلاف في الرأي.

وقد تم إعدام من قاما بتلك الجريمة الشنعاء بعد محاكمة دامت ستة أشهر، وأفرج عن الذي وفّر لهما السلاح، ذلك الذي لم يُبدِ إلى اليوم ندمًا قط!!»

ذهبت منتهى بتفكيرها بعيدًا عن صوت المذيع الذي ما زال يقرأ ما خطّه قلمها، ذهبت رُغمًا عنها إلى طيفه الذي حضرها الآن، فأخذها إلى كتبه ومقالاته التي كانت تنسخها له، والتي كان يرفض أن ينسخها له سواها، إلى ذكرياتهما معًا في المكتب المتواضع في بين السرايات، حينما كان يجلس معها ليُناقشها فيما يكتب وفيما تقرأ، أخذها طيفه إلى بداياتها الصحفية التي كانت على يديه، إلى مراقبته لخطواتها، وتشجيعه لها الذي لم يفتر منذ أن عرفته.

ما زال رحيله يُدمي قلبها، وبرغم مرور سنوات إلا أن جراحها تأبى أن تطيب، أو تلتئم، فرحيله بتلك الطريقة الشنعاء لم يترك مجالًا لأمل في الشفاء.

«لم يُنادِ ياسين وهبه يومًا إلى ما يستحق بسببه ما حدث له، فقط أراد وطنًا يتمّ فيه قبول الآخر، وطن حقيقي وليس مجرد مسمى واهٍ» قالها المذيع بينما ضغطت مُنتهى أكثر على مزوّد السرعة وهي تجرّ على أسنانها وتحاول مسح دموع تعوق رؤيتها للطريق المظلم، فلقائها الأخير به قُبيل اغتياله بأيام ما زال

يتراءى أمام عينيها، قالت له أن تلك الحملة الشرسة تُلقي في قلبها بما هو أكثر من القلق عليه، ردّ عليها بما لن تنساه يومًا، فلقد نظر لها بينما ظلال ابتسامة أطلّت على شفتيه، قائلًا في صوت ثابت ثبات إيمانه بوطن يحتاج لمن هم مثله:

يا منتهى لا أبالي إن كنت في جانب والجميع في جانب آخر، ولا يخيفني بريق السيوف، ولا ارتفاع الأصوات بشعارات أعلم مدى خوائها، ولا أجزع إن خذلني من كان متحمسًا يومًا لما أقول، لكن ما يقلقني بحق ألا تصل قضيتي وأفكاري إلى ما قصدت، أنا أفعل ما أفعل ليس لمن أعيش بينهم الآن، لكن لأبناء وطن لم أرهم بعد ولا يعرفونني.

سمعت وحدها صوت نحيبها عاليًا، لكم تفتقده في كل يوم. لم يكن أستاذها فحسب بل أباها الروحي، عندما اكتوت بنيران فراقه يوم اغتياله، يومها فقط هان عليها فراق محمود ورحيله،فلقد علمت يومها أن للفراق أشكالًا أخرى قد يهون بعضها عن بعض، فقد يصحب بعضها أملًا في لقاء، بينما يستحيل مع البعض الآخر.

عندما توقفت سيارتها أمام البناية التي تقطنها، تراءت أمامها صورة نديم، حديث الفراق الذي جاش به صدرها استدعى صورته، لكم تتمنى لو سمحت لها الظروف بمجرد لقاء معه، فلقاء أحدهم أحيانًا قد يفعل في الروح ما لا تفعله كل أدوية العالم ولا أطبائه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت قد مرت ثلاثة أشهر على اغتياله وما زالت تتشح مُنتهى بالسواد، استدعاها نائب رئيس التحرير لمكتبه، كانت وقتها لم تتولَّ منصب مدير التحرير بعد، لكنها قد حققت في السنوات الثماني التي سبقت ذلك اليوم ما لم يحققه العديد من الصحفيين في أكثر من عشر سنوات، فلقد كرّست حياتها للصحافة والجريدة والتحقيقات، تعمل منذ الصباح حتى الليل بلا هوادة وبنفس النشاط، صحفية جادة دؤوب، عُرض عليها أكثر من فرصة عمل في مجلة وجريدة منافسة، لكنها كانت تعتذر، فقد وجدت نفسها في جريدتها، مع أستاذها وزملائها، إلى أن سمح لها ياسين وهبة قبل رحيله أن تعمل كمراسل صحفي بالقطعة لوكالة أنباء إلى جانب عملها في الجريدة.

أخبرها يومها نائب رئيس التحرير بأن سلسلة من التحقيقات في انتظار قلمها القوي المميز، سلسلة تريدها الجريدة حول انتشار ظاهرة اللجوء السياسي في أوروبا، حيث صار عشرات الآلاف من العرب، على اختلاف الدول التي ينتمون إليها، يضحّون بكل ما هو غالٍ ونفيس في سبيل حلم اسمه اللجوء السياسي.

ـ لقد تم ترشيحك وغُبريال للسفر إلى أوروبا، لإجراء تللك السلسلة من التحقيقات عن اللجوء السياسي للعرب، الاختيار وقع عليكِ لأنكِ صحفية بدرجة أديبة، دومًا تبحثين عن القصص الحقيقية المؤثرة والمستترة وراء الخبر، وهذا ما يريده القارئ من الصحفي، فالقارئ حتى في خضم بحثه عن الحقيقة لا يُريد معلومة جافة، ولا خبرًا تقريريًا، بل يريد واقعًا يلمس شغاف قلبه، وهو ما يفعله قلمك بالقراء الذين ينتظرون بشغف تحقيقات موقعة باسمك.

صمت قليلًا قبل أن يردف:

ـ الأستاذ ياسين وهبة كان ينتوي إبلاغك بنفسه بأمر تلك التحقيقات قبيل اغتياله، ثم تمّ تأجيل الأمر لما أحدثه اغتياله من تغيير في خطة التحقيقات بالجريدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انخراطها التام في الإعداد لتلك السلسلة من التحقيقات كان مُعينًا لها على أحزان باقية تخيّم على صدرها، عكفت معه على التحضير للرحلة، فرتبا أن تكون البداية في باريس ثم ألمانيا ثم يتوجها إلى إيطاليا وبلجيكا.

قاما بالتنسيق مع عدّة مصادر لتيسير مقابلات لهم مع أعداد من العرب الذين هربوا من أوطانهم وطلبوا اللجوء السياسي لدى دول ترغب في لفظهم.

كانت المرة الأولى التي تسافر فيها إلى أوروبا، فكرت أكثر من مرة في السفر لزيارة محمود، لكن ظروف عملها وساعات عمله المُبالغ فيها كانت تعوق دون سفرها لزيارته. لم يأتِ محمود لزيارة مصر سوى مرتين طوال السنوات السابقة، رافقته فيهما ماتيلدا، عاد كسائح قضى في القاهرة أيامًا قليلة للغاية، وقضى سائر الأيام في الغردقة ودهب.

عندما لم يتبقَ على موعد سفرها سوى أربعة أيام بقي أمر إبلاغ من اختارت مرافقتها في السكن منذ أشهر قليلة هو الأمر الأصعب، تعلم أن رفيقتها لن تُبدي تبرمًا ولا اعتراضًا، لكن الأمر يكمن في عدم رغبة منتهى في تركها وحيدة. مبالغتها في إظهار تماسكها يُشعر منتهى بقلق شديد عليها، كيف لا وهي أدرى الناس بها. كيف ستسافر وتترك يُسر بكل هذا الكم من الوجع الذي يظهر على ملامحها، ونبرة صوتها، ويطلّ من عينيها المنتفختين بشكل مستمر، دون أن تترك دموعها تتسرب على مرأى أقرب الناس منها!

فبينما ظنّ الجميع أن حياة يُسر تسير في هدوء تلقى منصور ذات مساء مكالمة من طارق، أخبره فيها برغبته المُلحة في لقائه، هاتف منصور يُسر

ليفهم منها الأمر، أخبرته بنفس هدوئها المعتاد وبصوتها الخفيض أنها وطارق اتفقا على الطلاق!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عقب وصول منتهى وغبريال مطار شارل ديجول وإنهاء الإجراءات، وبعد أن تسلم كل منهما حقيبته؛ كان في استقبالهما لافتة مكتوب عليها بلغة إنجليزية وبخط واضح (الأستاذ غبريال بشارة والأستاذة منتهى رحال)، يحملها شاب بدا في مثل عمريهما أو يزيد سنوات قليلة، قدّم نفسه إليهما بأنه الصحفي وليد كرم.

استطاع غُبريال التعرف عليه، وكان قد تبادل معه عدة اتصالات هاتفية خلال الفترة الأخيرة أثناء تجيهزهما لهذه الرحلة.

كان وليد صحفي لبناني، وأحد تلاميذ صوفيا، تدرب على يديها في إحدى الصحف لسنوات، وكان ذلك قبل أن يترك القاهرة عائدًا إلى باريس للعمل في صحيفة لبنانية شهيرة ثم وكالة أنباء عربية.

قام بتوصيلهما بسيارته إلى الفندق الصغير، والذي يبتعد عن المطار ما يقرب من الساعة، دار بين ثلاثتهم أحاديث متفرقة، لم ينس فيها وليد أن يحكي لهما عن ذكرياته مع صوفيا، وكيف أنه تعلم منها ما لم يتعلمه من سواها، وأنه حتى اليوم يلجأ إليها كثيرًا ليستشيرها في كتاباته وفي أمور صحفية عدّة. كان يتحدث مع غُبريال بينما انشغلت منتهى بالنظر إلى ملامح باريس التي بدت ظاهرة من خلال نافذة السيارة، شعرت أنها في حلم لم تتصور تحققه يومًا، فلقد أحبت باريس من خلال قراءاتها عنها. ظلّت عيناها العسليتين تمسحان ملامح المدينة ذات الألف وجه، التي تحتضن بين جنباتها التجدّد والعراقة في آن واحد، مدينة النور.

للوهلة الأولى لم تستطع التغاضي عن روعة الأبنية المعمارية، مالها لا تكاد ترى بناء واحدًا لم يترك النحت والزخارف مكانه فيه، ظلت تنظر إلى الشوارع بعجب، فالمباني منحوتة الواجهات تقف متراصة لا اعوجاج فيها ولا خطأ!

عند الوصول إلى الفندق قاما بمصافحة وليد متمتمين بكلمات الشكر لمنحهما استقبالًا ودودًا ترك في نفسيهما أثرًا طيبًا، لكنه قبل أن يتركهما قال:

أعلم أنها ليست المرة الأولى لك في باريس يا غُبريال بينما هي كذلك لمنتهى، كما قالت لي لتوها. ستندمان كثيرًا إن قضيتما كل الوقت في مهمتكما الصحفية فقط. اقتصدا من أوقات نومكما، وقسّما باقي الوقت ما بين عملكما الصحفي والسياحة في فرنسا، بل وفي أوروبا كلها. تستطيعان

زيارة العديد من البلاد بالقطار، وإن كنت أرى أن أجمل ما في رحلتيكما أنها بدأت من هنا.

اتفق معهما على أن يمر عليهما في المساء ليتناولوا وجبة العشاء سويًا في شارع الشانزليزيه، ثم يأخذهم في جولة سريعة ما بين برج إيفل وقوس النصر.

على باب غرفتها، وقبل أن يذهب غُبريال إلى غرفته، قالت منتهى مبتسمة مشيرة لسعادتها باستقبال وليد لهما:

محظوظة أنا لأن أمك صوفيا!

ـ محظوظ أنا لأن رفيقة دربي الصحفي مُقاتلة، ولا تحمل في جعبة أحلامها سوى الصحافة.

تبادلا الابتسامات وانطلق كل إلى غرفته الصغيرة، على وعد باللقاء في المساء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أمام الفندق الباريسي المتواضع، حيث اتفقوا أن يكون اللقاء، وقف وليد مستندًا على الطرف الخلفي لسيارة، منهمكًا في حديثه مع غُبريال وشخص آخر، تقدمت منتهى نحوهم في سترة زرقاء قصيرة ثقيلة، وكوفية صوفية، وجاكيت جلدي أسود ينام فوق ذراعها، وبنطال من الجينز الداكن، نظرت في ساعتها لتتأكد من أنها لم تأتِ متأخرة، فأكدت لها عقارب الساعة أنها في موعدها.

ـ في ميعادك، نحن فقط من قدمنا مبكرين بضع دقائق.

قالها غبريال قبل أن تُلقي منتهى عليهم التحية، فهو يعلم جيدًا مدى اهتمامها بالالتزام بمواعيدها.

ثم وجّه إليها وليد الحديث مشيرًا إلى رابعهم، الذي لم تتعرف عليه بعد:

نديم نعمان، نائب مدير وكالة أنباء «العالمية» بمكتب باريس، هو صديق عزيز ورفيق طريق منذ سنوات طويلة، كنا على موعد لتناول العشاء معًا، وكنت أعلم أن دعوتي لكما لتشاركانا إياه سيلقى ترحيبًا منه.

صافحته منتهى بينما قام غبريال بتقديمها إليه، فقد سبقها إلى التعرف عليه منذ دقائق قليلة.

ـ أرجو ألا نكون قد أفسدنا عليكما خطة العشاء منفردين.

ـ على العكس إنه لشيء يسعدني استقبال صحفية ومصوّر مصريين في زيارة صحفية هامة لهما بباريس.

قالها بلهجة لبنانية وابتسامة مرحبة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع عشر

بدا نديم رجلًا طويل القامة حدّ الاعتدال، في منتصف الأربعينيات من العمر، فاتح البشرة، ذا شعر أسود قصير، وشفتين رفيعتين تسكنان تحت أنف روماني معقوف وتعلوان ذقنًا دقيقًا، له عينان بنيتان داكنتان عميقتان، وحاجبان كثيفان، مظهر جسده المشدود يُخبر عن كونه رياضيًا، كان يرتدي معطفًا أسود ثقيلًا يحمل علامة ماركة عالمية شهيرة.

دعاهم لاستقلال سيارته، ثم بالقرب من الشانزليزيه طلب منهم أن يترجلوا منها ليبدأوا جولتهم الأولى في باريس.

وجدت منتهى الشانزليزيه مزارًا سياحيًا يعجّ بالسائحين، كان ذلك في أواخر شهر ديسمبر، أحبت الأضواء على اختلاف ألوانها وترواح أحجامها. كل شيء في الشارع بدا نابضًا بالنور الذي يعانق الأشجار والجدران وواجهات المحلات معلناً عن الاحتفال بعيد الميلاد الذي صار موعده وشيكًا، لم تكفّ عدسة غبريال عن التقاط الصور لهم ولكل ما يحيط بهم، بينما تقمص وليد ونديم دور مرشدين سياحيين ذوي كفاءة ملحوظة وخبرة لا يُستهان بها.

هناك بين فاترينات المحلات الملفتة والمقاهي الفخمة بدأت منتهى تبحث بعينيها عن برج إيفل، فأشار نديم قائلًا:

إنه في ذلك الاتجاه، هو مرشدك في باريس، كلما شككتِ باتجاهك أو خشيتِ التوهان انظري باتجاهه، وستعرفين كيف تصلين إلى وجهتك، فتخطيط هذه المدينة الذكي جعل من برج إيفل دليلًا سياحيًا للجميع.

استمروا بالتقدّم في اتجاه البرج من خلال شوارع جانبية متفرعة من الشانزليزيه، بدت لهم إطلالة برج إيفل ليلًا خلابة، استشعرت منتهى أثناء عبورهم الجسر الممتد على نهر السين أنها ترى منظرًا قلما يعيشه المرء.

بعد انتهائهم من تناول العشاء اختار نديم مقهى بعينه لتناول القهوة الفرنسية الساخنة قائلًا:

ـ اخترت لكم هذا المقهى لأنه ليس مقهى عاديًا!

نظرت منتهى نحوه متساءلة:

ـ ليس عاديًا بأي معنى؟

ـ سيمون دي بوفوار كانت تكتب في هذا المقهى، وجان بول سارتر كان له هنا كتابات. أما غدًا فسنتناول قهوتنا في مقى فلور الذي كان يفضله غيوم أبولينير لأنه أكثر هدوءًا.

مرت ساعات ليست بالقليلة قبل أن تخبرهم منتهى بأن عليهما العودة إلى الفندق، حتى يبدآ عملهما الصحفي في الصباح. تعجبت من إصرار نديم على دفع فاتورتي العشاء والقهوة. قالت إنهم هنا في بلاد يتعامل أهلها من منطلق «على كل شخص دفع ثمن ما انتفع به»، وقد علمت أنهما يعيشان هنا منذ سنوات طويلة، فما الغضاضة في التعامل على نفس الأساس.

قال نديم بودّ:

نعم، نعيش هنا منذ سنوات لكننا عرب في النهاية يا منتهى.

منذ اللحظات الأولى من لقائهما، عندما نادته يا سيد نديم، طلب منها أن تعفيه من الألقاب، أخبرها بأن الألقاب تصنع مسافات بين الأشخاص، وأن الحياة أقصر من أن نضع حواجز بيننا وبين الآخرين ثم نقضي الوقت في محاولة تخطّيها. ظلت منتهى لفترة طويلة تتساءل هل كانت فكرة إلغاء الألقاب هي المسئولة بحق عن جعل نديم قريبًا منذ اليوم الأول، لكنها لم تستطع أبدًا الحصول على إجابة بنعم أو لا.

أمام الفندق شكرتهما بشدّة على تلك الحميمية التي أحاطا بها غربتها الأولى، فجعلاها تبدو مدهشة!

ـ بهما شيء عجيب، كأننا نعرفهما منذ سنوات!

كان هذا هو آخر ما قالته لغبريال الذي وافقها الرأي، قبل أن يتوجه كل منهما إلى غرفته ليحصلا على قسط من النوم قبل أن يبدآ عملهما في الصباح الباكر.

في غرفتها وقفت منتهى أمام المرآة، خلعت معطفها الثقيل، ألقته على سريرها، ثم نزعت عن كفّيها القفاز المبلل بفعل الأمطار، وأطلقت سراح خصلات شعرها الكستنائي، تحررت، ثم تركت أصابعها تتخلل شعرها، رأت ابتسامة كبيرة على وجهها، وسمعت صوتها يقول «أنا سعيدة بحق!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في عصر اليوم التالي وبعد ساعات عمل متتالية أنجزا فيها ما خططا لإنجازه في يومهما الأول، أخبرها غبريال بأن وليد هاتفه لإبلاغه بأنه ونديم سيمران عليهما ليصحباهما لمشاهدة كنيسة نوتردام، وهي معلم هام من معالم باريس، يذهبون بعدها إلى حي مونمارتر.

ـ أخشى أن نسبب لهما شيئًا من العطلة يا غبريال.

قالتها قلقة. فردّ عليها بينما بدا مشغولًا بالتقليب في الصور التي لم يتوقف عن التقاطها منذ لحظة وصولهما:

عندما أخبرت وليد بنفس التعليق رد عليَّ بأن نديم في أجازة، وأنهما دائمًا يرحبان باستقبال زملائهما العرب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في المساء أخبرها نديم بأن من أساسيات الجولة السياحية في باريس زيارة حي مونمارتر التاريخي، الذي زاره فنانون كداليدا وبابلو بيكاسو وفنسنت فان جوغ وسلفادور دالي، وساحة «تارتر» التي تستضيف رسامين من حول العالم، ولذلك سميت «ساحة الرسامين والفنانين».

عندما توجهوا إلى هناك تمشوا في أزقة ضيقة تعود إلى القرن الثامن عشر، ودخلوا حيًا قديمًا تكاد جدرانه تنطق بحكايا أشخاص عاشوا في هذا المكان الذي قرأت عنه منتهى كثيرًا دون أن تخطّط يومًا لزيارته، حتى عندما أعدّت عدّتها لهذه الرحلة الصحفية نسيت أن تخطّط لهذه الجولة السياحية.

كانت تفاصيل المكان توحي بالكثير. لم يكفّ نديم ووليد عن الحكي «هنا اعترف شاب بحبه لفتاة شقراء وطلب يدها للزواج، وهنا انتهت قصة حب عاصفة» سمعت من نديم قصة الروماني جاك الذي تعدّى السبعين من عمره ويسكن نفس الحي، ويرسم بالساحة منذ ستة عشر عامًا، منذ وصوله إلى باريس، وهو يعلن دومًا للجميع بأنه لن يفارق هذا الحي إلا بعد موته من فرط افتتانه به.

كانت الساحة تستضيف رسامين من جنسيات مختلفة، واللافت في الأمر أنها تضمّ مختلف مدارس الفن، فبلغ تعجب منتهى ذروته عندما لم تجد تشابهًا في الأسلوب بين فنان وآخر، بل لاحظت تعمد كل فنان لابتكار الأسلوب الخاص به.

نجح وليد في إقناع منتهى بأن تجلس أمام أحد الرسامين ليرسمها، قال لها إنه لا يجب عليها مغادرة ساحة مونمارتر قبل أن تفعل، وأنها ذكرى هامة يجب أن تحملها معها عند عودتها للقاهرة، وأنه لمن المثير أن ترى نفسها من بين عيني وأصابع فنان هاو في تلك الساحة. استسلمت كطفلة صغيرة، اتخذت وضعية الرسم كما أمرها الرسام، الذي طلب منها أيضًا أن تفكّ أسر خصلات شعرها وتتركه طليقًا، قال لها حينما فعلت «أنتِ تصلحين ملهمة لرسام، إن لملامحك سحرًا عجيبًا، لكِ جمال يسكنه الغموض، فيصبح من الصعب التعرف على أصوله لأنه ينتمي إلى عدّة حضارات»، ارتبكت منتهى وهي تنظر إلى غبريال ونديم اللذين يقفان على بعد خطوات منها، تمنت في قرارة نفسها ألا يكون قد وصل لآذانهم ما قال. لكنها تأكدت أنهما سمعاه عندما رأت نظراتهما إليها وابتساماتهما، فقالت في خجل:

ـ بالتأكيد كلمات يردّدها على أسماع كل من تختاره ليرسمها، إن للتسويق فنونًا!

ـ لكنه لم يقل لمن سبقتاكِ نفس الكلمات، لقد كنا نقف إلى جواره انتظارًا لدورك. هو لم يقل سوى الحقيقة.

قالها نديم ببساطة شديدة زادت من خجلها وارتباكها.

في غضون وقت قليل كان الرسام قد انتهى من مهمته، بينما استرعى انتباهها أن غبريال غمز لها بعينه أكثر من مرة أثناء جلستها، وصاحبت غمزاته نصف ضحكة خبيثة تعرفها عنه جيدًا، كيف لا وقد صار غبريال هو الصديق الأقرب منذ سنوات طوال.

ظلت تتأمل نفسها من خلال خطوط الفحم التي رسمتها أصابع الرسام الفرنسي العجوز، أحبت الرسمة رغم مسحة من شجن بدت جليّة على ملامحها.

أثناء تناولهم العشاء أخبرهما نديم بأنه قام بترتيب لقاء لهما مع مجموعة من العرب يعيشون في باريس كلاجئين سياسين، قال إنه يعرف معظمهم جيدًا، وبأن لكل واحد منهم قصة يظن أنها ستكون مفيدة في تحقيقهما الصحفي.

عند عودتهما إلى الفندق سألت منتهى غُبريال بعصبية بدت طفولية عن سبب غمزاته الماكرة عندما كانت تجلس أمام الرسام، فضحك قائلًا:

لقد رأيت بعينيكِ طلة سعادة لم أرها من قبل، فأردت أن أذكرك بتلك اللحظة فيما بعد.

لمعت عيناها، بينما داعبت شفتيها ابتسامة خجلى وهي تقول:

ـ التجربة برمتها جديدة عليَّ يا غبريال، أعلم أنك عشت تجارب مماثلة مع صوفيا وأنك سافرت لبلاد بعيدة والتقيت ببشر شتى، أما أنا فلم أخض تجربة كهذه أبدًا.

ـ لطالما ذكرتكِ بأنكِ تبالغين في عشقك لعملك يا منتهى لدرجة أنكِ نسيتِ كل شيء سواه، حتى نفسك، سأظل أكررها عليكِ، إن الحياة بها أشياء تفيض بالمتعة، فالأمر لا يقتصر على الصحافة وحدها، وأن الإنسان بمقدوره أن يكون ناجحًا في جوانب عدّة من حياته، ومستمتعًا بها أيضًا.

اندهش غبريال من نظرة استسلام رآها بعيني منتهى، لم تتمادى في جداله هذه المرة، «يبدو أنها قد قبلت أخيرًا أن تفتح نافذة تطلّ منها على الحياة خارج عالم الصحافة الذي أوصدت كل أبوابه على نفسها».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

منذ شهور مضت أتمت منتهى عامها الثاني والثلاثين، كان ذلك في نفس يوم عقد قران شقيقتها دنيا، بينما تمت خطبة دينا منذ عام خلا، وبالطبع لم تنس زينب أن تهمس في أذنها بأن الوقت لم يمرّ بعد، وأنه ما زال هناك أمل في أن تلحق بقطار الزواج، وأنها جميلة، بل وتزداد جمالًا يومًا بعد يوم، وتبدو أصغر كثيرًا من عمرها الحقيقي، وها هي قد صارت ذات جاه ومال، وأن زينة الرجال يتمنونها، فقط فلتعطهم الفرصة، وتفتح الباب، ثم أخبرتها وهي تمصمص شفتيها في تأثر بادٍ بأن ابنيّ خطيبها السابق حمدي قد صارا في طول أبيهما، هكذا أخبرها منصور عندما التقاهم مصادفة منذ فترة.

فلم يكن من منتهى إلأ أن ربتت بحنان على كتف زينب، وابتسمت ابتسامة صغيرة، متساءلة في نفسها هل تحاول زينب تطييب خاطري؟ مسكينة زينب، ما زالت تتصوّر أن الزواج هو النهاية الحتمية الوحيدة لكل أنثى خُلقت على وجه الأرض! ثم قالت لها بصوت خفيض:

تعلمين جيدًا أنني لا أُفكّر في الزواج، أنا سعيدة بحياتي كما هي، هذا ما حلمت به منذ طفولتي.

لقد استطاعت تلك الجميلة الغضّة الجادة أن تصدّ كل محاولة ذكورية بالاقتراب، الغريب أنها لم تشعر يومًا بالندم على أنها فعلت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد مُضي أكثر من إسبوعين على وجودها في أوروبا، جلست وحدها في مقهى صغير بمحطة بلدة إيسين في ألمانيا، منتظرة القطار الذي سيعود بها وغبريال إلى باريس. تعمدت أن تأتي مبكرًا عن موعدها الذي اتفقت عليه مع غبريال، كانت بحاجة إلى وحدتها. أخرجت من حقيبتها المصنوعة من الجينز دفترًا كبيرًا، إنه دفتر مذكراتها، فهي تستخدم دفترًا لكل عام ، تغلقه مع نهاية العام وإن تبقى به عدد من الصفحات، ثم تشرع في كتابة مذكراتها في دفتر جديد. لم يكن لها طقوس بعينها، كانت تُسجّل أحيانًا كل يوم، وأحيانًا أخرى بشكل أسبوعي، كما لم يكن لها مكان أو وقت محدّدين لتخلو مع نفسها وتفتح دفترها، رشفت رشفة من فنجان قهوتها، وشردت بعيدًا ثم بدأت تكتب وكأنها مُقدمة على اعتراف خطير.

«منذ قدومي إلى أوروبا وثمة شيء عجيب قد حلّ بي، شيء لم أعهده ولا أجيد فهمه عن نفسي، تلك التي عشت عمري أظن أنني أفهمها جيدًا، هل أنا في مرحلة جديدة؟ أم ماذا أُسمّي ما أمر به؟ فأنا بطبيعتي لم أُقبل يومًا على عمل علاقات شخصية، ولم يشغلني عقد صداقات جديدة. أنا لا أخاف الناس، لكن من فرط عشقي لعملي حصرت كافة علاقاتي في دائرة واحدة أطلقت

عليها علاقات العمل. أما علاقاتي الاجتماعية فقد انحصرت في أسرتي، فما زال محمود يسلب مني عقلي ويحتلّ قلبي، ما زلت حريصة على أن أتواصل معه يوميًا ولو عبر رسالة بريد إلكتروني أو رسالة نصية هاتفية، ولا أتنازل عن مكالمة أسبوعية على الأقل أسمع فيها صوته، كما أنني منخرطة بشكل كبير في حياة دينا ودنيا ويُسر، أما غبريال فله منزلة خاصة في نفسي، ليس فقط بحكم عملنا معًا لكن بحكم توحد بدايتنا ومشاركة الوقت والحلم والهدف الذين خلقوا بيننا تلك الصداقة العميقة.

إذن ماذا حدث مؤخرًا؟ ماذا تغيّر منذ أن قدمت إلى باريس؟ مالي أجدني في غضون أسابيع أسعد كل السعادة في أن أكون بصحبة أصدقاء نثرثر سويًا ونتناول قهوتنا وعشاءنا معًا، نجوب الشوارع الصاخبة، ونعشق الأنوار المتلألئة، دون أن تُثنينا البرودة الشديدة أو يُرجعنا هطول الأمطار عما قررنا الاستمتاع به، نتحدّث في كل الأمور في السياسة والفن والصحافة والعمل والعلاقات البسيطة والمعقّدة، ولماذا أجد نديم بالتحديد قريبًا إليّ للغاية؟ لماذا اعتدت وجوده في أيامي، وصرت أفتقده حينما يغيب، أهتم لسماع آرائه وتستغرقني نظرته للأمور، أحب حتى اختلافي معه. لقد وجدتني منذ أيام أبحث عن مقالاته وكتبه لأطّلع على تلك الجوانب التي لم يتسنى لي أن أعرفها عنه في ذلك الوقت القليل، هل يعدّ مثل هذا الأمر عاديًا؟!

فبعد خمسة أيام قضيناها في باريس، عندما توجهت وغبريال إلى هولندا؛ تعجبت بشدّة عندما تسلمت رسالة نصية من رقم غير مسجل على هاتفي: «صباح الخير، إن احتجتِ لأي شيء في هولندا هاتفيني على هذا الرقم.....، فلدي أيضًا العديد من العلاقات هناك، فحدودي ليست باريس فقط، نديم نعمان»، شعرت يومها بسعادة بالغة لاهتمامه. لن أخجل إن سجّلت هنا اعترافًا مني يقول إنني أشعر تجاهه وكأنني أعرفه من قبل، مستحيل أن تكون تلك هي المرات الأولى لتعارفنا، لقد سهرت ليلتين أقرأ عن تناسخ الأرواح! وأربط بين ما أقرأ وبين علاقتي به. لكم أراني غريبة!

نديم صحفي لبناني، تدرج في عدّة مناصب حتى وصل لمنصب نائب مدير مكتب باريس لواحدة من أهم وكالات الأنباء العربية، تلك هي المعلومات المتعارف عليها عنه، لكن ما عرفته أنا من خلال لقاءاتي المتكررة به أنه شخص اجتماعي ودود، بسيط وعميق في آنٍ واحد، إنسان مثقف، بل متعدّد الثقافات.

يخالجني شعور بالضيق لأنه استرعى اهتمامي أكثر مما يجب، اعتدتني أكثر تعقلًا من هذا. لقد أمسكت بتلابيت نفسي في إحدى المرات وأنا أسترق البصر إلى أصابعه باحثة عن خاتم زواج من الطبيعي أن يرتديه رجل أربعيني،

لم أجد الخاتم، لكنني شعرت بالخجل من نفسي، من أسلوب تفكيري، فكيف لي أن أفكّر بطريقة المراهقات الصغيرات هذه!

عرفته رجلًا ناجحًا، ليس فقط على المستوى المهني لكن على المستوى الاجتماعي أيضًا، فبمكالمة منه يُيسّر لنا الكثير من الأمور ويُرتّب لنا العديد من اللقاءات.

كما أن لديه قدرة عجيبة على منح من حوله قدرًا كبيرًا من الاهتمام، عندما زرته في مكتبه أكثر من مرة، أعجبني الأسلوب الذي يدير به عمله، فهو صحفي بدرجة مدير ومدير بدرجة صحفي قدير.

اطّلعت على مقالاته في واحدة من أكبر الصحف اللبنانية، فهو في الأساس صحفي سياسي، لكن له أيضًا العديد من القصص القصيرة والمقالات التي تتناول جوانب كثيرة من الحياة، قرأته كاتبًا مهمومًا بحال الوطن العربي ومواطنيه، مُعذّبًا بشدّة بسبب الآثار والمآسي التي ترتبت على الحرب الأهلية في لبنان. عندما قرأت مقالاته شعرت بغصّة في روحي، لقد تجسّد أمامي أستاذي ياسين وهبة، بأفكاره القوية المتحررة التي تفيض عشقًا لوطن تمناه، وهكذا رأيت نديم صاحب قلم يقطر شجنًا، بل يقطر ما هو أكثر من الشجن.

وصلت وغبريال إلى إيسين، تلك المدينة الواقعة في غرب ألمانيا، منذ يومين. كنا على موعد مع بعض العرب لتناول قصص لجوئهم السياسي إلى ألمانيا، لكن قبل قدومنا بأيام وجدتني أختلق الحجج لأعتذر عن لقاء وليد ونديم، لقد كنا على موعد للذهاب إلى السنيما معًا، ومرة أخرى كنا على موعد لتناول العشاء، أبلغتهم اعتذاري من خلال غُبريال، الذي أبدى دهشته لاعتذاري غير المبرر.

لكنني قلت له يومها:

لدي الكثير من العمل واللقاءات المسجلة التي يتوجب عليَّ تفريغها وإرسالها إلى الجريدة بالقاهرة، أحتاج لوقت طويل لأكتب بلا توقف.

لم يرسل لي نديم أثناء غيابي الأول ولا الثالث، لكن في الثاني تلقيت منه رسالة نصية عبر هاتفي المحمول: «كنا في انتظارك، ووليد يسأل عنك»، رددت عليه أيضًا برسالة: «سلامي لكليكما.. تمنيت أن أكون بصحبتكما وصحبة غبريال، لكن الوقت يداهمني ولم أنتهِ بعد من تسليم المطلوب مني للجريدة»، ورسمت وجهًا يبتسم كذبًا.

ويبقى السؤال: لماذا غبت، ولماذا كذبت؟! لم أكن مضطرة لأن أجيب، فالسائل هو أنا، ولا غضاضة في أن تبقى الإجابة بداخلي».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فجرًا توقف القطار العائد بركابه من إيسين في محطته النهائية بباريس، بينما يجرجر كلًا من غبريال ومنتهى حقائبهما الصغيرة وسط حركة سريعة لمسافرين وعائدين تعجّ بها محطة القطار، قال غبريال:

الحمد للـه أن جدولنا اليوم خالٍ من العمل، نحن في أول أجازة لنا منذ قدومنا إلى باريس. أنا بحاجة شديدة إلى الراحة، فما زالت الأيام القادمة تحمل لنا الكثير من العمل والسفر.

ـ والسعادة!

قالتها منتهى.

ـ بالطبع، فبعد يومان ستكون رحلتنا إلى روما، حيث تلتقين محمود.

ابتسمت وشردت في محمود وابنه الوحيد يوسف، أو جوزيف كما ينادونه، لقد بلغ من عمره الخامسة دون أن تلتقيه بعد.

قطع شرودها ردّ غُبريال على مكالمة تلقاها لتوّه، فسمعته يقول:

هل هذا معقول! إنها لمفاجأة غير متوقعة، نعم نحن في طريقنا للخروج، نلتقي أمام البوابة.

ـ نديم؟!

قالتها باندفاع.

ـ تصوري.. إنه هو!

ـ هل أتى خصيصًا لاستقبالنا؟

قالتها في لهفة طفولية فشلت في إخفائها.

ـ نعم، رغم أن الفندق يقع على بعد دقائق من المحطة.

وجدته أمامها، تصافحا، وابتسامة كبيرة على وجهيهما، صمم على أن يسحب حقيبتها بدلًا منها، فقالت:

نديم، أنا لم أعتد تلك المعاملة، فلم يحمل أحدهم أثقالي من قبل.

قالتها مبتسمة بينما يسيران متجاورين.

ـ ربما لهذا تُبدين من الامتنان أقصاه تجاه أبسط ما يُقدّم لكِ يا منتهى.

أمام الفندق أنزل حقيبتها.. فقالت:

كل كلمات الشكر لا تكفي.

ـ توقفي عن شكري يا منتهى، لقد شكرتيني عن كل ما فعلته ومالم أفعله بعد.

قال غبريال متثائبًا:

أعلمت لماذا لا أغرقك بكلمات الشكر يا نديم؟ إنها تقوم بدورينا معًا.

ضحك نديم، ثم سأل:

ماذا عن برنامجكما لليوم؟

ردّ غبريال:

أظنني سأنام لبعد غد.

قالت مُنتهى وهى تعدل وضعية الكوفية لتشمل وجهها وتحميها من فرط البرودة الشديدة التي تحيط بها:

نحن في أجازة لمدة يوم واحد.

ـ كم ساعة تكفيكِ لتأخذي قسطًا من النوم؟

سألها نديم.

ـ لا تتعدّى ساعات نومي الخمس أو الست مهما بلغ بي الإرهاق.

ـ إذن سأرسل لكِ سائقي في الحادية عشرة ليصطحبك إلى مكتبي، أريد مناقشتك في أمر يخص العمل.

دون أن تسأله أبدت موافقة مستسلمة، ودبيب سعادة يسري في أوصالها، لكم هي مرحبة بأي أمر قد يجمعهما معًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في مكتبه جلست قبالته ممسكة بفنجان من القهوة الفرنسية التي ارتبط مذاقها بوجودها في باريس، كان نديم يرتدي بنطلونًا من الجينز الأزرق الفاتح وقميصًا أبيض وجاكيتًا أزرق داكن اللون، فبدا أنيقًا كعادته، قال:

قرأت الكثير من تحقيقاتك في الأيام الماضية.

لمعت عيناها العسليتان، دون أن تُطلعه أنها أيضًا فعلت نفس الأمر مع كتاباته. ودّت لو تسأله «وِلمَ فعلت؟» لكن منعها الخجل.

فاستطرد يقول:

أُعجبت بقلمك كثيرًا يا منتهى.

تمنت مرة أخرى لو تقول له «أنا أيضًا أحببت في قلمك قوته، وحسك الوطني، ووجعك الإنساني الذي مسّني كثيرًا» لكنها آثرت الصمت وأرجأت كلماتها لوقت لم يحن بعد.

ـ هذا ما دفعني لأناقشك في أمرين هامين، أولهما عرض ها أنا أعرضه عليكِ الآن، فأنا أرغب في انضمامك لفريق عملنا، لتصبحي مراسلتنا الصحفية في القاهرة، وبالطبع لا أنتظر منكِ ردًّا في التو، فكّري جيدًا، وسأرسل لكِ عبر بريدك الإلكتروني رسالة تحمل كافة تفاصيل العرض.

ـ عرضك وحده شهادة تقدير يا نديم.

قالتها وابتسامة ممتنة تتراقص على ثغرها.

ـ الأمر الثاني هو أمر تعجبت له بشدّة وآثرت مناقشتك بشأنه.

ـ تفضّل.

ـ كيف لم أجد لكِ كتابًا أو رواية؟

ـ ما الذي جعلك تظن أن هناك كتابًا أو رواية تحمل اسمي؟

ـ لأن هذا ما يجب أن يكون، فأنتِ تمتلكين أدوات الكتابة الروائية الممتعة، تخلقين داخل التحقيق ألف قصة، وتُبدعين في سردها.

كان يتكلم بحماسة فقالت بامتنان:

كلماتك شهادة أعتزّ بها، الحقيقة لم أفكّر قبلًا في هذا الأمر، لكن ربما تدفعني كلماتك للتفكير، أشكرك بشدّة يا نديم.

التفتت إلى سطح المكتب لتضع فنجانها، فوقعت عيناها على صورة له ومعه فتيان دون العشرين، يجلسون على أريكة في منزل أنيق الأجواء.

ـ من؟

هل تسرعت في سؤالها؟ فلم تكن عادتها يومًا اقتحام حياة الآخرين.

ـ ابناي وسام وعمر.

سادت لحظة صمت، هربت خلالها منتهى من أي ردّة فعل بأن ثبتت عينيها على الصورة، واستطاعت أن تمطّ شفتيها فيما يشبه الابتسامة.

ـ يبدوان رائعان، أتمنى أن ألتقيهما وزوجتك قبل أن نغادر باريس إلى القاهرة.

ـ وسام يعيش معي لأنه يدرس القانون بالجامعة هنا، لكن عمر ما زال يحيا مع أمه في بيروت، يأتي للإقامة معي ومع شقيقه في الأجازات.

أطبقت عينيها ثم فتحتهما بسرعة، وهزّت رأسها في حركة تعني أن في كلامه ما يصعب عليها فهمه. التقط سؤالها الذي لم تنطق به بعد.

ـ لقد انفصلت عن أمهما منذ سنوات.

في طريق عودتها إلى الفندق شعرت أن روحها تعجّ بألوان شتى من المشاعر، وأن الكثير من الأفكار تتزاحم داخل رأسها دون أن تستطيع السيطرة عليها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حينما وقفت أمام المرآة في غرفتها بالفندق، قالت لنفسها وهي تنزع عنها ثيابها «أيتها الحمقاء، كُفّي عن التفكير بنديم».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«يا إلهي، أخيرًا التقيت محمود، لقد كاد شوقي له أن يُطيح بي، ذهبت أنا وغبريال لزيارته في منزله في الميعاد المتفق عليه.

كان ينتظرني هو ويوسف أسفل البناية التي يقطن بها، غرقت في أحضانه، وابتلعته أحضاني، وقعت في عشق يوسف منذ الوهلة الأولى، لقد كان نسخة مكررة من صغيري محمود، طفرت دمعة من عيني رغمًا عني وأنا أحتضنه، لقد رأيت طفولتنا تتجسد أمام عيني من جديد، لكم كنا مسكينين!

عندما صعدنا إلى الشقة الصغيرة، وقفت ماتيلدا في استقبالنا. تغيّرت! لا أدري لماذا وقعت عيناي أول ما وقعت على خطوط تجاعيد تحيط بعينيها وشفتيها، بالتأكيد لأنني نقبت سريعًا عما فعلته بها السنون، لكنها ما زالت تحتفظ برشاقتها، بل وبجمالها.

مائدة الطعام المحاطة بخمسة مقاعد مُعدّة في انتظارنا، مكرونة إيطالية تعلوها فواكه البحر، وسلاطات متنوعة ومشروبات. جلس محمود بجانبي، لكم اشتقت لإحساس وجوده إلى الجوار، فلقد قضينا ما يقرب من ربع قرن متلاصقين. سعد يوسف كثيرًا بالهدايا التي أحضرتها له، وأبدى انبهاره بالقصص التي حكيتها له مع كل هدية، عندما منحته أهرامات رخامية حكيت له عن خوفو وخفرع ومنقرع، وحكيت له عن المصريين الذين تعبوا كثيرًا في بناء ما يُخلّدهم، حدّثته أن الإنسان يجب أن يبذل الكثير من الجهد إن رغب أن يكون عظيمًا، تذكّرت جدتي زهيرة رحمها اللـه حينما كانت تحكي لي. أهديته تمثالًا صغيرًا لحتشبسوت وبعض أوراق البردي، ومنحته مجموعة من الكروت تحمل صورًا للنيل وصورًا للأقصر والسدّ العالي، حكيت له كثيرًا لكنه لم يكتفِ، بدا الصغير كعمته عاشقًا للقصص والحكايات، ووعده محمود أن يُكمل له الحكايات فيما بعد، وطلب منه أن يتركني له لبعض الوقت. بعد الغذاء

غادرنا غبريال للقاء أصدقاء له. لم نجلس أنا ومحمود منفردين تقريبًا، ماتيلدا كانت بالقرب منا طوال الوقت، حتى عندما تظاهرت بانشغالها في مشاهدة التلفاز، كنت أشعر أن جلّ تركيزها منصبّ علينا، ورغم هذا لم نكفّ عن الحكي، بتُّ ليلتي معه وغادرته في الصباح، وأنا ما زلت أشعر بكل الشوق إليه.

سألني غبريال ونحن في طريق عودتنا:

هل أنتِ واثقة من أنكِ تكبرين محمود بعام واحد؟!

ابتسمت وأنا أقول:

بل أحد عشر شهرًا فقط.

ـ ظننته يكبرك بعشر سنوات!

بدا غبريال محقًا! لقد كبر محمود، كبر كثيرًا، وكأنه عاش سنوات فوق عمره فتركت بصماتها على ملامحه. صار يرتدي نظارة طبية لم يكن يرتديها حتى آخر مرة التقيته فيها، واخترقت رأسه العديد من الشعيرات البيضاء. هل هو سعيد؟ سؤال ألحّ عليَّ. إحساسي يقول إنه ليس كذلك. يبدو مجهدًا كثيرًا فهو يعمل في وظيفتين لمدة ستة عشر ساعة يوميًا، بينما تلتهم الضرائب وأقساط المنزل والسيارة مرتبه ومرتب ماتيلدا معًا، وبرغم هذا فهو يسكن شقة صغيرة للغاية في بناية وحي متوسطا الحال، أكثر من مرة شكا لي من معاناته من الغلاء المجنون في إيطاليا، كما أنه حدّثني أكثر من مرة عن غيرة ماتيلدا المجنونة عليه، شكا لي حصارها له في كل مكان، رغبتها في امتلاكه، لذا أصرت على إنجاب طفل منه، رغم أنها كانت على أبواب الأربعين، ولها ابنة صارت عروسًا. نعم لقد رأيت بنفسي في عينيّ ماتيلدا نظرة نمرة متحفّزة، وكأنها تقول لي، مالكِ وماله، إنه لي! لم تكن المرة الأولى التي أرى فيها تلك النظرة في عينيها، في كل مرة كانت تلك النظرة المحمومة تزداد شراسة.

في المساء هاتفت دينا ودنيا بعد أن أرسلا لي رسالة نصية تطلبان مني ذلك، ابتسمت بمجرد رؤية الرسالة، لقد كنت أعلم السبب، عندما هاتفتهما طلبت مني دينا أن أشتري لها بلوزات وألا أنسى الجينز، ودنيا طلبت مني حقيبة يد ومساحيق وزجاجة عطر بعينها، وهمست لي بعد أن ابتعدت بالهاتف عن دينا ألا أنسى ملابس النوم التي وعدتها بها لزواجها. لكم أحبهما وأحب حديثي معهما، رغم أنهما لا تكفّان عن التذمر والشكوى من طباع أبينا ومزاجه الحاد، أنا بالنسبة لهما لست أختهما الكبرى فقط ولكنني صديقتهما، ومكمن سرهما، لا تفعلان شيئًا قبل أن تستشيراني فيه. علاقتي بهما هي التي

شرحت لي بالتجربة الحية طبيعة علاقتي بسارة وسامي، عرفت أن الأخوة من الأم ليسوا بالضرورة أقرب من الأخوة من الأب كما أخبرونا. فالأخوّة ليست فقط علاقة دم، لكنها مشاركة بيت واحد وحياة واحدة، الأخوّة أن يُفزعكم نفس الخوف وتترقبوا الفرح سويًا، الأخوّة أن تجوعوا معًا ويُشبعُكم نفس الطعام، أن تُظلم الدنيا عليكم فتتحسسوا معاً سبيلًا للنور، وتُنير عليكم فتصرخوا من السعادة في نفس واحد وترتموا في أحضان بعضكم البعض.

وهذا فسّر لي مشاعري تجاه سامي وسارة. لقد كنت أسأل نفسي هل مشاعري تجاههما سويّة؟ أمسكت بنفسي أكثر من مرة وأنا أقسم لي إنني أحبهما وإن كنت لا أدري سبب تلك المسافات التي بيننا ولا أستطيع تجاوزها، فهمت بعد ذلك أن السبب هو أننا لم تجمعنا أبدًا نفس الحياة.

سامي وسارة ما زالا رائعين كما عرفتهما وأنا في الخامسة عشرة من عمري، سامي الآن مخرج شاب واعد، وإن كان ما زال أمامه الكثير ليكون كوالده المتميّز، ليس فقط على المستوى الإنساني ولكن على المستوى الفني أيضًا. تزوج سامي منذ سنوات، وأنجب طفلان، ثم استحالت الحياة بينه وبين زوجته وانتهت بالطلاق، وأصرّت على ترك الطفلين له! ثم تزوجت بمجرد انقضاء أشهر العدّة. يحيا سامي وابناه مع أمي التي تقوم على تربية الابنين منذ سنوات ولا تكفّ عن الشكوى منهما! أما سارة فارتدت الحجاب منذ السنة الثانية الجامعية بعد أن تعرفت على زميل لها ابن ممثلة شهيرة معتزلة، ثم تزوجا منذ سنوات ولديها ولد وبنت. ما زالت نقية وجميلة كما هي.

وما زال أبوهما رجلاً رائعًا كما عرفته أول مرة، يستقبلني بحفاوة كلما التقينا، ولا يكفّ عن الحديث إليّ بكل الود، والحديث عني بكل الفخر.

أما علاقتي بأمي فتتلخص في محاولاتي لبرّها، أعترف أنني ما زلت أجاهد نفسي، ها أنا أهاتفها أسبوعيًا، أزورها مرة كل شهر في البيت أو في دار الأيتام، حسبما يسمح وقتها، وإن غبت لا تسأل هي عني!

لكنها صارت تُقدّمني لكل من تعرفهم بينما تقول في زهو «ابنتي منتهى رحال الصحفية الشهيرة»، وغالبًا ما يكون الرد «أحسنتِ التربية»، فتبتسم أمي مُنتشية!

كانت فترة عصيبة بالنسبة لدينا ودنيا، بل ولي أيضًا، تلك التي انتقلت فيها للإقامة مع يُسر، لكنني لم يكن أمامي سوى ذلك، حينما نزل خبر طلاقها كالصاعقة على الجميع.

كنت قد ذهبت معها عدة مرات إلى أكثر من طبيب، وإلى أكثر من معمل تحاليل ومستشفى في محاولاتها لإنجاب طفل، لكن في كل مرة كانت لا تأتي

الرياح بما لا تشتهي السفن، بينما تقابل يُسر الإخفاق بصبر وجلد، فلم أرها مرة متذمرة، ولم تُطلع أحدًا على سبب عدم إنجابها.

قالت لي ذات يوم وثمة رنّة خذلان في صوتها:

هل تصدقيني يا مُنتهى إن قلت لكِ إنه إن كان الأمر يخصني وحدي ما كنت ترددت على عيادات الأطباء، ولا ظللت لسنوات أبحث عن فرصة لإنجاب طفل، ولكنت اكتفيت بطارق زوجًا وأبًا وصديقًا وابنًا لي؟

ـ ألهذا الحدّ تحبينه يا يُسر؟

ـ الأمر أكبر من الحب يا منتهى، فحينما يضعك القدر فجأة في طريق أحدهم وتصبحين أنتِ المسئولة عنه، أن تكوني أنتِ الحبل السُرّي الذي يربطه بالحياة، فهل يُضيرك بعد ذلك عدم قدرتك على إنجاب طفل؟

شعرت يومها أن كلمات يُسر تُبطِن أكثر مما تُظهر، شعرت أن هناك سرًا ما يجعل شعورها حيال طارق بهذا الشكل، لكنني خجلت أن أسألها توضيحًا، أعلم أن يُسر يجرحها العبث بخصوصياتها، فقط سألتها هل طارق هو من يرغب في طفل؟ قالت في مرارة:

والداه لا يكفّان عن الحديث في هذا الأمر، يضغطان عليه ضغطًا يفوق قدرته على الاحتمال، دومًا يسألانه لماذا لا تجريان محاولة لإنجاب طفل أنابيب، نريد أن نرى لك ولدًا قبل موتنا، أنت ابننا الوحيد! صارت كلمات أمه في السنوات الأخيرة تجرح مشاعري بشكل قوي ومباشر، وأنا ألتمس لها العذر أحيانًا، بينما في أحيان أخرى تخونني قدرتي على الاحتمال، فأضعف وأغضب غضبًا أتعمّد كتمانه، لكنه يغلي بداخلي كما المراجل، وأخشى أن يستشعره طارق. فأتشاغل مرات عن زيارة والديه، لكنني أتراجع وأُثني نفسي عن قرارها بعد إلحاحه وأعود لزيارتهما بصحبته.

سألتها ذات مرة أراضية أنتِ عن حياتك يا يُسر؟ فأجابتني:

أتعجبين إن قلت لكِ كل الرضا؟ لقد عشت طوال حياتي مؤمنة بأنه لا توجد الحياة الكاملة، ولا السعادة الكاملة على وجه الأرض، وعندما أنظر لجوانب النقص في حياتي أجدها قليلة، ولو خيروني بين وجود زوج كطارق في حياتي أو وجود ابن لاخترت طارق ألف مرة، رُبّ شخص يكمل كل النقص ويجبر وجوده كل كسر، هكذا وجود طارق في حياتي. كما أنني ناجحة في عملي، لقد حققت فيه أكثر مما كنت أحلم به، وأشعر بكِ منذ طفولتي وكأنك ابنتي يا منتهى، في الحقيقة إن الإحساس بالرضا يملأ نفسي.

كان خبر الطلاق صاعقًا لأبي وللجميع لأن قلقهم كان مبالغًا به في السنوات الأولى لزواج يُسر، لكن بمرور السنوات بدت حياة طارق مستقرة،

وارتباطهما ببعضهما البعض واضحًا؛ فتبدّد القلق.

عندما طُلقت هداية منذ سنوات سمعت أبي يقول يومها لزينب:

لعله جرس إنذار يُجبرك أن تكفّي عن القلق على يُسر لعدم إنجابها، فها هي هداية رزقها اللـه بولدين في عامين متتاليين، لكنها مطلّقة بعد سنوات قليلة من الزواج، لا أدري كيف يعتقد بعض قليلي العقول بأن الأبناء هم السدّ الذي يقف أمام طوفان الطلاق، فذلك الطوفان حينما يأتي لا يوقفه شيء.

قالها بمرارة.

وبرغم أنني كنت أقربهم إلى يُسر، إلا أن خبر الطلاق كان صاعقًا لي أيضًا.

رفضت يُسر أي تدخل من أبي أو من الدكتور فؤاد، وقال طارق بحزن بادٍ إنها رغبتها التي لم ينجح في إثنائها عنها، وطلب والدا طارق عدم التدخل بين طارق ويُسر، وأخبرانا أنهما ناضجان بما يكفي لاتخاذ قراراتهما.

كانت يُسر منذ سنوات قد اشترت بالتقسيط عن طريق عملها شقة بالمعادي، قامت بتأجيرها للأجانب، قالت لي وقتها إنه الاستثمار الأفضل بدلًا من وضع مالها في البنك. هل كانت تخشى يومًا تجد نفسها وحيدة بلا طارق وبلا منزل؟! لا أدري.

وجدتني في هذه الأيام ملتصقة بها، لا أقوى على الابتعاد عنها، كنت أخاف عليها منها، من فرط تظاهرها بالجلد، طلبت من الجميع ألا يتحدّثوا في هذا الأمر بعد اليوم، كما رفضت الحصول على أجازة من عملها ولو ليوم واحد. كنت أستيقظ في الصباح لأعدّ لها كوبًا من الشاي باللبن فتتظاهر أمامي بأنها ستشربه، ثم أجدها تغادر دون ارتشاف شيئًا منه. رأيتها تتعذب في صمت، تمنيت لو تحكي، فربما يُهوّن الحكي عنها شيئًا من العذاب».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس عشر

لم تضغط منتهى عليها لتحكي، ولم تبح يُسر، لم تحكِ عن أوجاعها وأوجاع طارق وأحزانه الكامنة، تلك التي تفهّمتها بقوة منذ البداية، كانت تعتبر أوجاعه أسرارًا حربية. يوم أن أسرّها إليها شعرت أن لديه دورًا لها يجب عليها ألا تتخلى عنه، وأنه رجلها الذي كانت في انتظاره دون أن تدري، لم يُخفِ عنها شيئًا منذ البداية، صارحها بأنه لا يدري سرّ تعلقه بها، رغم أن هذا لم يحدث منذ سنوات طويلة، بل وكان موقنًا أنه لن يحدث أبدًا. عندما أخبرها بهذا هزّت رأسها في حركة تلقائية تنفي قدرتها على فهم مقصده. حكى لها أن وجعه بدأ عندما كان طالبًا في السنة الثانية الجامعية بكلية الهندسة، حينما تغيّر كل شيء به دون أن يتغيّر أى شيء حوله، تجمدت ضحكاته، تبدّلت عاداته، صارت الوحدة هي ملاذه وهدفه، سكنه شخص حزين زاهد، وجد عجوزًا طاعنًا في السن يعيش بداخله رغم سنوات عمره التي لم تتجاوز العشرين إلا بقليل، ظن أبواه في البداية أن هذا ليس إلا فرط تدليل أفسدا به وحيدهما الشاب الذي صار يُفضّل العزلة ويقضي الأوقات الطويلة بمفرده تمامًا، ولا يُجيب أصدقاءه حينما يدعونه للخروج معهم، بل وصار يرفض حتى الردّ على اتصالاتهم الهاتفية. تظاهرا بإهماله لفترة ظنًا منهما أن هذا سيصلحه، لكن لم يُجد ما فعلاه، فعادا وأغرقاه بحنانهما من جديد، وفي النهاية لم تُفلح كل محاولاتهما في تخليصه من بين أنياب عزلته وحزنه اللذان تشبثا به بقوة. فطرقا أبواب أكبر الأطباء، وجاءت الإجابة المتكررة، السبب نفسي. سافرا به إلى خارج البلاد، أجمع الأطباء أن وحيدهما الذي لم ينجحا في إنجاب ابنًا سواه مريض بالاكتئاب.

كانت صدمتهما كبيرة، كيف للاكتئاب أن يمسّه وهما من يخشيان عليه من مداعبة الهواء له! لقد ظلا لسنوات طويلة يرفضان أن يختلط إلا بأبناء العائلة، لم يسمحا له بلقاء أصدقائه خارج المدرسة أبدًا، فقط سمحا له بعد أن دخل الجامعة، وكان اليوم الوحيد المسموح له بلقائهم هو يوم الجمعة، وغير مسموح أن يتأخر عن التاسعة مساءً. إذن متى غزاه هذا المرض الداهية؟

زهد طارق في دراسة الهندسة، وبرغم عدم رسوبه صار يرى دراستها ثقيلة، والمشاريع المطلوبة منه بصفة مستمرة لم تعد تناسبه بعد أن سكنه ذلك الدخيل المقبض، وخاصة أن العلاج الذي بدأ في تناوله يسبّب أعراضًا كالنعاس والصداع ورعشة تلازم أطرافه لبعض الوقت.

أكثر من مرة خلا إلى نفسه وبكى من فرط حزن ألمَّ به، وتمنى لو أصابه أي مرض عضوي، فمهما كانت قسوته فهو يفضّله عن هذا اللعين الذي حلّ به.

بعد إلحاحه وافق والداه على تحويل ملفه الجامعي من كلية الهندسة إلى كلية التجارة.

كان الاكتئاب يزداد في أوقات ويقل بعض الشيء في أوقات أخرى، وكان تعرّضه للعلاج عن طريق جلسات الكهرباء هي أسوأ ذكريات حياته على الإطلاق. ولأن قدراته أعلى مما تتطلبه الدراسة بكلية التجارة، نجح بتقديرات مرتفعة طوال سنوات الدراسة.

بعد تخرجه بأعوام أصرّت أمه ذات الشخصية القوية المسيطرة على أن يخطب ابنة صديقة لها، قالت له إنه قد تعافى، وأن عليه أن يعيش حياة طبيعية. أما هو فلم يقتنع بأن مريض الاكتئاب قد يُشفى تمامًا.

كانت خطيبته المُختارة فتاة جميلة، من عائلة كبيرة، خريجة الجامعة الأمريكية، ولم تُخف سعادتها بتقدّم طارق لها، ورحبت أسرتها بمصاهرة أسرته، لكن وبعد مرور أشهر من الخطبة، صارحته خطيبته بأنها تشعر أن حاجزًا كبيرًا بينهما، وأنها تفتقد الحياة المرحة التي تصوّرت أنها ستحياها معه كأي خطيبين شابين، ولم تنس أن تقول له إنها تشعر أنها خُطبت لرجل عجوز وليس لشاب يماثلها في السن.

لم يصدمه ما قالت، لكنه قرر بعد أن تمّ فسخ الخطبة ألا يخوض تلك التجربة مرة أخرى. بعد ثماني سنوات تغيّر الأمر تمامًا، حدث ذلك حينما ظهرت يُسر في أيامه، شعر حينها أنه يُريدها، وبشدّة، لتُشاركه أيامه الصامتة.

لم يحكِ طارق ليُسر كيف استقبلت والدته رغبته في ارتباطه بها، فهي لم ترحب بها، من هي يُسر هذه! ابنة من؟ ما تلك المنطقة العجيبة التي تسكنها، لا هي أصغر البنات ولا أجملهن! إذن ما الميزة التي جذبتك إليها؟ إنه اختيار خاطئ بالتأكيد، لكنها كانت المرة الوحيدة التي أعلن فيها والده أن له رأيًا مُخالفًا لرأيها، فطلب منها أن تترك لوحيدهما الفرصة ولو لمرة واحدة ليختار، قال لها أنه لم يعد صغيرًا، ومن يدري فربما يكون خلاصه علي يد يُسر هذه. بعد عناء اقتنعت الأم على مضض.

أحبت يُسر عطاءها لطارق وتحدّيها لنفسها طوال الوقت لتهبه شيئًا من الراحة. لم تطمع في أن تكون سببًا في سعادة عارمة ترى آثارها على ملامحه، لكنها تمنت النجاح في دفع شبح الحزن بعيدًا عن أيامه، وبالفعل نجحت.

مالم يعلمه والدا طارق أن أدوية الاكتئاب التي كان طارق يتعاطاها بين الحين والآخر، وبين الفصل والذي يليه، لها شيء من التأثير في عدم إنجابهما، هكذا

قال الأطباء، وأن المشكلة كانت لكليهما فيه نصيب، وأنه ليس لدى كل واحد منهما ما يستحيل معه الإنجاب، لكن هناك عائق ما، ويبقى الأمل دومًا موجود.

ما حدث في الشهور الأخيرة قبيل الطلاق كان صادمًا بحق، فلم يكفّ والدا طارق عن مهاتفته لأوقات طويلة، والعجيب أنه صار يُفضّل التحدّث إليهما بعيدًا عن يُسر التي ترفعت عن سؤاله حول السبب، كما أنه بات يُفضّل زيارتهما وحيدًا.

وفجأة ساءت حالته النفسية، وطلب منها ما لم يخطر لها على بال، تمثّل طلبه في أن تسمح له بالزواج من أخرى لمحاولة إنجاب طفل، أخبرها بأنها رغبة أبويه، بل إن أمه قد أقسمت عليه إن لم يفعل فإنها ستقطع صلتها به، وستموت غاضبة عليه. قال كلمات كثيرة دون أن يستطيع أن يُغالب دموعه لأول مرة أمام عينيها. اعترف بأنه في أسوأ حالاته، وأنه ممزّق، ولا يكاد يعرف كيف يتصرف. بثّها إحساسه بأن الاحتمال الأكبر أنه لن يُنجب من الأخرى، وأنه سيطلقها بعد أشهر قليلة ليعود إليها، بعد أن يتخلص من ضغط والديه غير المحتمل عليه. طلب منها ألا تلومه إن رأته جاحدًا. أقسم لها إنها كانت وستظلّ المرأة الوحيدة في حياته، وأنه لا يريد امرأة سواها، وأن الأخرى لن تكون إلا مسكّنًا لفترة مؤقّتة.

قالت بصوت متحشرج، دون أن تنجح في حبس دموعها:

الأخرى هي الأنسب لك!

ـ أية أخرى يا يسر؟

ـ الأخرى المجهولة! الأخرى التي أقنعك بها والداك هي من ستحقق لك السعادة والراحة، هي من ستنجب لك البنين والبنات، لكن ُيسر رحال! ماذا قدّمت لك يُسر رحال؟ لاشيء!

حاول مقاطعتها فلم ينجح، وأردفت تقول بصوت متهدّج:

أتدري؟ لا أستطيع أن أجزم من منا ستكون الأخرى، أنا أم هي؟ من منا ستصبح لها الأولوية ومن ستستحق لقب الأخرى؟ وضع غريب للغاية يا طارق، لست أنت من ستنجح في تحقيقه.

ـ يُسر! أرجوكِ...

قاطعته بحدّة، وبإصرار ومرارة عميقين:

طلقني!

لم تفلح كل محاولاته لإثنائها عن طلبها، ولم تقبل أبدًا أن تكون هناك أخرى، أو أن تكون هي الأخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان يومًا مزدحمًا بالمهمات التي لم تنتهِ بعد، حيث لم يتبقَ على انتهاء الرحلة الصحفية لمُنتهى وغُبريال سوى أيام معدودات، بينما يستقلان مترو الأنفاق قالت منتهى في تردّد، بعد أن انتظرت ليبدأها غُبريال بالحديث، لكنه لم يفعل:

هل حادثك وليد بشأن الليلة؟

ردّ بينما ينقر جبينه بإصبعه نقرتين متتاليتين، وكأنه يوقظ ذاكرة تسكن رأسه:

نعم حادثني، وأخبرني أنه هاتفكِ.

تعجبت أنه لم يزد.

ففي الليلة الماضية اتصل بها وليد ليُخبرها بأن اليوم عيد ميلاد نديم، وأنه قرر أن يُفاجىء نديم بالاحتفال به بشكل ضيّق، دعاها وغُبريال للحضور، أخبرها بأنه دعى ثلاثة من الأصدقاء خلافهما.

رحبت منتهى، وشكرته لدعوتهما لمشاركة نديم مثل هذه المناسبة. انتظرت اتصال غبريال ليتناقشا بخصوص الدعوة لكن العجيب أنه لم يفعل، نعم لم يمرّ على إخبار وليد لهما سوى عدّة ساعات، لكن أيضًا لم يتبقَ على المناسبة سوى عدّة ساعات مماثلة.

لم يُعقب غبريال، فآثرت الصمت.

في المساء ارتدت فستانًا أسود أنيقًا، قصيرًا ضيّقًا مكشوف الذراعين، وارتدت فوقه معطفًا ثقيلًا يليق بعشاء مختلف، تركت شعرها الكستنائي حرًا كما اقترح عليها الرسام الفرنسي العجوز، وضعت بعضًا من المساحيق، فبدت عيناها ذهبيتين مكتحلتين لامعتين، وارتدت حذاءً عالي الكعب، كانت ترى دومًا أنه لا ضرورة لارتدائه، فها هي تنتعله اليوم عن طيب خاطر.

بمجرد أن وقعت عينا غبريال عليها أطلق من بين شفتيه صفارة طويلة معلنًا إعجابه، فابتسمت ابتسامة خجلى مرتبكة.

ـ تبدين أنيقة للغاية! لابد أن نأخذ نديم معنا إلى القاهرة حتى نرى منكِ جانبا سريًا تجيدين إخفاءه.

زادت كلماته من ارتباكها «تُرى ماذا يقصد غُبريال؟!» سألت نفسها، ثم قالت:

دعك من كلماتك التي تُسمعها لشقرواتك وسمرواتك، فقط ارتديت ما يليق بعشاء عيد ميلاد.

ثم أردفت تقول:

لقد أحضرت هدية وكتبت عليها اسمينا معًا.

ـ حقًا؟! متى اشتريتيها؟

ـ خرجت بمجرد عودتنا من العمل، قضيت ساعة بين المحلات حتى حصلت عليه.

ـ كان من الممكن أن تحضري هدية لكل واحد منا.

ـ خجلت أن أُقدّم هدية باسمي فقط.

قالتها فشعرت أنها بدت كطفلة صغيرة، فأردفت تقول في غيظ:

ثم إنك لم تُفكّر من الأساس في إحضار هدية.

ـ هنا تتميّز النساء في الاهتمام بما يفوت علينا نحن معشر الرجال.

قالها مازحًا، ثم أردف متسائلًا:

ماذا أحضرتِ له؟

أخرجت من حقيبتها هدية مُغلّفة بأناقة:

ـ طاقم أقلام ماركة «cross»، به قلمان ذهبيان منقوشان، أحدهما حبر والآخر جاف.

ـ واو! لأول مرة أشعر أنك تهتمين هكذا بأحدهم!

ـ لا تُبالغ، يكفي ماصنعه لأجلنا منذ قدومنا.

قالتها وهي تحاول تجاوز نظرة مداعبة وابتسامة ماكرة نطقت بها ملامح غبريال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في المطعم الفرنسي الأنيق، بدا المكان واسعًا، والديكور مدهشًا، بينما اصطفّت على الجدران مشكاوات تطلّ من أعناق عمدان نحاسية مشغولة بشكل يحمل بين جنباته الفخامة والدقّة والذوق الفرنسي الكلاسيكي، المكان يغلب عليه اللونان الأحمر والنحاسي، بينما تتناوب مرايا ذات أطر مذهّبة ولوحات رسمها فنانون مشاهير أدوارها بعناية على الجدران، وقد كُتب تحت كل لوحة اسم الفنان الذي رسمها، وسطور عن اللوحة. بدت المقاعد وثيرة مكسوة بقطيفة حمراء، بينما يتوسط كل طاولة شمعدان نحاسي تعلوه شموعًا تضيف للمكان سحرًا جديدًا.

خلعت منتهى معطفها عند الدخول، متوجّهة مع غبريال نحو الطاولة التي يجلس عليها نديم ووليد ورجلان وامرأة قد رأتهما من قبل في مكتب وكالة الأنباء، تبادلوا جميعهم التحية. هنأت نديم وهي تقدّم له الهدية، بينما أثنى وليد بمجرد أن رآها على جمالها وأناقتها، قال لها إنها فاجأته، فتضرجت وجنتيها بالدماء، وازدانت شفتيها بابتسامة زادتها جاذبية، فعقّب غبريال ضاحكًا:

صدقيني لم أقل له شيئًا!

قبل أن يقوموا بإطفاء الشمعة التي أحضرها وليد لتكون على رأس كعكة عيد الميلاد، مالت منتهى على وليد الجالس إلى جوارها، ثم أخرجت من حقيبتها الصغيرة أسطوانة كمبيوتر، وقالت هامسة:

هذه الأسطوانة عليها موسيقى عيد الميلاد تعقبها أغنية أخرى، أريد أن أطلب من إدارة المطعم تشغيلها عبر السماعات.

ابتسم وليد قائلًا:

هل ستخبرينني عن اسم الأغنية التالية لموسيقى عيد الميلاد؟

قالت في ابتسامة عذبة:

أفضّلها مفاجأة إن أذنت لي.

وما هي إلا دقائق حتى صمتت موسيقى شوبان التي كانت تنبعث من السماعات بينما تقدّم النادل دافعًا أمامه بطاولة على عجلات صغيرة تحمل كعكة عيد الميلاد، واختلطت نغمات أغنية عيد الميلاد مع أصواتهم وهم يغنون لنديم الذي أطفأ شمعة عام مضى، ثم تعالى صوت فيروز يصدح ما بين دفّات نغمات خلابة:

بحبك يا لبنان يا وطني بحبك.. بشمالك بجنوبك بسهلك بحبك..

تسأل شو بني وشو اللي ما بني.. بحبك يا لبنان يا وطني..

صفق وليد قائلًا بصوت عالٍ:

لكم أنتِ رائعة يا منتهى!

نظر إليها نديم وقد فاضت تعبيرات عينيه بدهشة وامتنان كبيرين، بينما ما زال صوت فيروز الشامخ ينثر روعته في أرجاء المكان.

سألوني شو صاير ببلد العيد.. مزروعة عالداير نار وبواريد..

قلتلن بلدنا عم يخلق جديد.. لبنان الكرامة والشعب العنيد..

ورغم أن معظم الزبائن الجالسين إلى طاولاتهم يتناولون العشاء ليسوا عربًا، لكنهم انفعلوا وتمايلوا طربًا مع الألحان ومع الصوت الشجي، وصفقوا بحرارة بعد انتهاء الأغنية، وتناثرت أصواتهم بالتهاني، فبدا المكان كله محتفلًا بمولد نديم.

قال نديم وقد اقترب بمقعده من مقعدها تمامًا:

كيف لكِ أن تلمسي أعمق نقطة في روح من أمامك بكل تلك البساطة؟ كيف استطعتِ في لحظة أن تجعليني أحتفل بيوم ميلادي في لبنان؟ لقد أخذتيني من يدي لأعيش لحظة أحلم بها بحق!

أربكتها كلماته لكنها حاولت أن تُبدي ثباتًا مُفتعلًا فقالت:

أظنني عرفتك جيدًا الفترة السابقة، ليس فقط لأننا قضينا أوقاتًا طويلة معًا، لكنني أيضًا قرأت لك كثيرًا. لقد رأيتك تحمل لبنان في قلبك يا نديم، رأيتك تتحرك بها بين كلماتك ومقالاتك واهتماماتك، رأيتها تسكنك رغم رحيلك عنها منذ سنوات طوال.

وضع النادل أمامهما أطباقًا تحمل قطعًا من كعكة عيد الميلاد التي قام بتقطيعها للتوّ، بينما تعالت أصوات غبريال ووليد وباقي الأصدقاء كل يحكي عن وطنه وكأن الأغنية قد ألهبت مشاعرهم وأثارت ذكرياتهم، بينما بدا نديم ومنتهى في وطن آخر يجمعهما وحدهما. أستأذنهم نديم في الخروج لدقائق إلى المكان المخصص للتدخين، سائلًا منتهى في مرافقته ليستكملا حديثهما إن كان هذا لن يضايقها. تحركت معه في خطوات فرحة، راودها شعور بأنها المختارة لحدث جلل وليس لمجرد استكمال حديث بدأته مع أحدهم منذ قليل.

من بين غمامة دخان سيجارته تأملها بعينين عميقتين قائلًا:

أتدرين كيف أتيت إلى فرنسا يا منتهى؟

هزّت رأسها نفيًا بينما ما زالت تنصت إليه في اهتمام كبير، شعرت لحظتها أنها أثارت شجونه بأغنية لبنان، وأنه سيُحدّثها حديثًا خاصًا، فاستطرد يقول وهو يرنو ببصره بعيدًا حيث سماء باريس المضيئة ليلًا:

كنت أحيا وأسرتي في لبنان، أبي رجل كادح، لا يكفّ عن شيئين؛ العمل والتدخين، بينما يبذل الكثير لأجل تعليمنا، كان حلمه لنفسه وهو صغير أن يحصل على شهادة عُليا لكنّ ظروفه أجبرته على أن يحصل من التعليم على أقل قدر، فزرع حلمه في أرضنا وكافح لأجل تحقيقه، كنا خمسة من الأبناء، ترتيبي الرابع بينهم، يكبرني ثلاثة فتيان وتصغرني فتاة. أمي سيدة عظيمة، خُلقت لتكون أمًا. كانت حياتنا بسيطة وأحلامنا ليست مستحيلة، وفجأة

اضطرمت النيران من حولنا، حاصرتنا على غفلة منا وبلا هوادة، نعم لقد تغيّرت الحياة في لبنان بأكمله بانتشار سرطان مفاجئ اسمه الحرب الأهلية، تلك التي كانت عبارة عن حروب صغيرة داخل الحرب الكبرى، الجميع ضد الجميع، والبعض ضد البعض والنار تضطرم بلا هوادة في كل مكان، حصارات ومجازر ومعارك وانتفضات ذات أسماء وصفات وتواريخ.

صمت وشرد ببصره نحو الماضي، بينما رقدت عينا منتهى فوق ملامحه التي تقطر شجنًا. التقت أعينهما فأومأت له بإيماءة مُرادها «رجاءً أكمل، فكُلي آذان صاغية».

كنت وقتها في الرابعة عشرة من عمري، فجأة أصبحنا نعيش في مأساة تعقبها مأساة، لبنان الخضرة والثلج والحياة والسهر والسعادة اللا نهائية، تحوّل إلى جمرة نار متّقدة بجنون. لم يستسلم أبي فأمرنا أن نحاول أن نحيا بوطننا رغم كل شيء، وبالفعل استمتنا لنحيا وسط كل هذا الدمار. هربنا من بلدة إلى أخرى أكثر من مرة، لكن في كل مرة يتحوّل حلمنا بالعيش في أمان إلى كابوس. أما الكابوس الأكبر كان اختفاء شقيقي الكبير «ملحم». بحثنا عنه في كل مكان، قالوا استمالته فئة ضد أخرى، وقالوا تمّ أسره، سمعنا الكثير ولم نصل إلى خيط متين يقودنا إلى حقيقة. في كل يوم كان يولد بداخلنا أمل في العثور عليه، ثم يسقط نفس الأمل صريعًا في نهاية اليوم. عندما استحالت حياتنا في لبنان، فاستمات أبي كي يهرب بنا إلى خارجها، لم يكن أمامه سوى الوصول بنا إلى أوروبا كلاجئين سياسيين، كانت رحلة مُميتة، سقط الكثيرون ممن كانوا معنا موتى أمام أعيننا خلال رحلة اللجوء، أتدرين من أين استمددنا صمودنا؟ من أمي المكلومة التي لم تكُفّ عن بث الأمل فينا طوال الوقت، «ستنجون وستنجو لبنان.. ستعودون قريبًا وسيعود ملحم.. كل ما نمر به ليس سوى اختبار.. لا يستحق العظماء العظمة إلا بعد عناء وجهد جهيد، وأنتم ستكونون من العظماء»، أمي امرأة عجيبة يا منتهى، كان لكلماتها سحر وتأثير امتدّ معي إلى هذه اللحظة التي أقف فيها أمامك. وصلنا أخيرًا إلى أوروبا وحصلنا بعد سنوات على حق اللجوء السياسي. وفجأة مات أبي، وتركنا وكأنه أراد أن يأخذنا من بين نيران الحرب ليضعنا على ضفاف شاطئ آمن ثم يرحل.

منذ اليوم الأول لوصولنا إلى هذه البلاد، كنا نعلم جيدًا أننا يجب أن نقاتل لنقتات ونتعلم، وأن وقت التقاط الأنفاس ما زال بعيدًا، كنت وشقيقيّ نعمل أعمالًا شديدة البساطة إلى جانب دراستنا، لكنها كانت تدرّ علينا دخلًا معقولًا، كثيرًا ما اضطررنا لمضاعفة عدد ساعات عملنا لنحيا، دون أن تتوقف أمي يومًا عن بثّ الأمل فينا. تعلمت منها الكثير يا منتهى، تعلمت منها أن أبحث عن بصيص من الأمل عندما يغرقني الظلام بسواده، وأن لا مشكلة بلا حل،

وإن لم يكن لها حل فهي ليست مشكلة من الأساس. ظللنا لسنوات طويلة نسكن ما يسمي استوديو، نعم مكان واحد نستغله لكل شيء، للنوم والمعيشة ونقتطع منه مطبخًا. أكثر من مرة أستيقظ فجأة من نومي ليلًا فأجدها تجلس إلى جوار النافذة الوحيدة بالمكان، كنت أرى لدموعها بريقًا في العتمة، فتمسحها بمجرد أن تستشعر حركتي، وعندما كنت أقترب منها، تقول لي «هذه الدموع ليست ضعفًا يا نديم، ولكنها رحمة أودعها اللـه في قلوبنا، أنا راضية، وأعلم أن في الغد تكمن الكثير من السعادة»، هذه هي أمي يا منتهى ولا زالت، هي من ورثت عنها الشجن والأمل والكرامة.

سألته بصوت هامس وعينان لامعتان:

ـ هل ما زالت تعيش معك هنا؟

لا، لقد فضلت العودة إلى لبنان بعد أن هدأت أحوال الحرب، وما زالت يملؤها الأمل رغم مرور تلك السنوات في عودة ملحم، ما زالت تتابع أحوال المفقودين التي لم تخجل الدولة من أن تُعلن أن عددهم سبعة عشر ألف مفقود.

صمت برهة ثم عاود الحكي:

إلى جوار الأعمال البسيطة التي عملت بها، كبائع في محل أو «كاشير»، أو غاسل صحون في مطعم، أو مسئول عن توزيع جرائد، لم أكفّ عن الكتابة يومًا، كنت أرسل كتاباتي إلى بعض الصحف اللبنانية، والعجيب أنه كان يتمّ نشر معظمها. وفي الجامعة اخترت دراسة السياسة، درست لأفهم يا منتهى لماذا آل حال وطني والكثير من بلادنا العربية إلى ما آل إليه!»

ظلّ يتحدث وظلّت تسمع بتأثر واهتمام وتفهّم لكل ما يحكي عنه.

ـ مع بداية دراستي الجامعية تلقيت عروضًا من أكثر من جريدة لبنانية لأعود إلى لبنان للعمل بها، لكنني اخترت البقاء في فرنسا والعمل كصحفي عربي متمسك بهويّته، لم ينسَ بلاده يومًا. وبعد ذلك عملت في أكثر من صحيفة لبنانية كصحفي محترف رغم إقامتي في فرنسا.

لم ينتبها إلى الوقت ولا إلى وقفتهما التي طالت، ولا إلى حديث رفض إلا أن يكون مسترسلًا، حتى باغتهما صوت وليد مناديًا ليعودا لمشاركتهم جلستهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في تلك الليلة عادت منتهى إلى حجرتها، فسحبت دفتر مذكراتها وبدأت تكتب.

«ماذا يُمكنني أن أطلق على مشاعري تجاهه؟ الأمر يبدو لي لا يُشبه الصداقة كما أدّعي، إذ لماذا أرغب في مشاركته كل الأوقات؟ أشعر برغبة في الاستماع إليه، أحب الحديث معه وإن اختلفنا في الرأي. أشعر أنني اصطدمت في طريقي الذي لم أتوقع فيه مقابلة أية مفاجآت بشخص ثري على المستوى الفكري والإنساني، مما جعله يحتلّ تفكيري رغمًا عني، لكن هل هذا مبرر؟! لقد التقيت بشخصيات موفورة الفكر من قبل لكن لم يشغل أحدهم تفكيري، ولم يعنِ لي أحدهم سوى سبقًا صحفيًا، أو جزءًا هامًا من تحقيق، ومهما بلغت درجة إعجابي بشخصية أحدهم فأنا لم أجلس وحدي لأفكر فيه.

أشعر بخوف حيال مشاعري تلك، أعلم أن نديم يتعامل معي كزميلة مهنة، أو رفيقة أيام، فهو شخص اجتماعي، يُرحّب بالجميع، وربما كانت فكرة التحقيق عن اللجوء السياسي هو ما جعله يتحمس للقاءاتي، وربما أثار أشجانه. يجب ألا أتصوّر أنني ذات مكانة خاصة عنده، ويجب أن أضع الأمور في نصابها الحقيقي.

لا أدري ما الذي أفعله الآن بحق! ماذا أشرح؟ وماذا أُبرّر؟! ما أنا موقنة منه أنني يجب أن أعود إلى صوابي».

أغلقت دفتر مذكراتها. حينما رقدت لتنام، لم يغادرها صوته الهادئ العميق، ظلت هناك وكأنها لم تودّعه منذ قليل، ما زالت كلماته تنساب في أذنها لتسكن في روحها رغمًا عنها.

تذكّرته وهو يقول «ظلّ الناس في الحرب يتزوجون ويتكاثرون بنسبة مرتفعة، ربما خوفًا من الانقراض وربما تعبيرًا عن رغبتهم في الحياة ومقاوتهم للموت، وقد يكون سخرية من الحرب ذاتها، لعن اللـه من أشعلها ليحقّق مكاسبه من خلافات الأبرياء ودمائهم»، ما زالت ترى ملامحه تلك التي تحمل وجع حرب انتهت لكن ندباتها ظلت باقية في روحه بوضوح.

فوق وسادتها وجدت أكثر من سؤال يُلحّ عليها. كيف تنازلت امرأة عن نديم بعد أن تزوجته وأنجبت منه ولدين، من منهما الذي تنازل عن الآخر ولماذا؟

في النهاية لم تنجح في جعله يُغادر رأسها وأفكارها، حتى أشفق عليها الإرهاق والنوم فتمكنا من التغلب عليها، فنامت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان صوته هو ما أيقظها في الصباح، تصورت أنها تحلم لكن عندما التقطت الهاتف الذي سمعت رنينه اصطدمت يدها بالمنضدة فآلمتها فتأكدت أنها لا تحلم، قال لها بعفوية شديدة أنه يعلم أنه يهاتفها مبكرًا، لكنه لم يطق أن

يصبر أكثر من ذلك ليشكرها على ذوقها الراقي في اختيار الهدية، أكّد لها يقينه أنها من انتقتها، فقالت:

أخشى أن أكون أفسدت عليك بهجة عيد الميلاد عن دون قصد مني بإيقاظ أشجانك وذكرياتك من خلال صوت فيروز.

ـ بالعكس لقد منحتيني يومًا مختلفًا تستحقين كل الشكر عليه، أتدرين؟ منذ سنوات طويلة لم أشعر بالرغبة في الحكي مثل الأمس، دومًا أكتفي بأن أحكي على الورق، لكن اكتشفت بالأمس أن البوح لشخص يستدعي كل حواسه للاستماع إليَّ أمر هو ما أحتاجه بشدّة.

تسارعت ضربات قلبها.

ـ محظوظة بأن كنت هذا الشخص ليلة أمس!

ـ شديدة التواضع كعادتك، غدًا موعد عودتكما إلى القاهرة، أليس كذلك؟

ـ بلى.

ـ سأفتقدكما كثيرا يا منتهى.

خشيت أن يرهف السمع فيصبح من السهل عليه أن يسمع دقات قلبها المضطربة.

ـ لا أظن تلك الرحلة كانت ستصبح بهذه الروعة لولا وجودك ودعمك يا نديم.

حاولت أن تتحكّم جيدًا في نغمة صوتها فتبدو جادة أكثر منها ناعمة.

ـ إذن سنلتقي مساءً، لنتبادل الأدوار.

ضحكت وهي تسأل:

أية أدوار؟ هل سأحتفل بعيد ميلادي اليوم وهو لن يأتي قبل سبعة أشهر؟

ـ لا، لكنه دورك لتحكي عن نفسك.

علت ضحكتها وهي تقول:

وهل تظن أن لي تجربة حياة ثرية ومؤثّرة كتجربتك تستحق أن تُحكى.

ـ لا أدري لماذا أنا واثق من هذا. على كُلٍّ لنلتقِ في المساء، ولتتركي الحكم لي.

لم تملك سوى أن تعلن موافقتها.

بمجرد أن أنهت المكالمة مع نديم وجدت أيقونة الرسائل تُصدر إشارة بأنها تحوي رسائل جديدة، فتحتها فوجدتها من يُسر «سأنتظرك في المطار، دينا ودنيا مصممتان على الحضور معي لاستقبالك، اشتقنا إليكِ كثيرًا»

كتبت لها على الفور «لا داعي لذلك يا يسر، انتظروني في المنزل، صوفيا سترسل سائقها».

جاء رد يُسر أيضًا سريعًا «لا تضيعي الوقت، سنكون في انتظارك في المطار قبل الموعد، هداية هنا وتُرسل سلامها وقُبلاتها إليكِ».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما زالت هداية هي أقرب أصدقاء يُسر إليها، وكما كانت يُسر بلسمًا منسابًا على جراحها يوم طلاقها من ممدوح، حاولت هداية أن تكون ليُسر كذلك. ظلت يُسر لفترة طويلة لا تسمح حتى لهداية أن تقترب من جرحها، ورغم هذا لم تيأس هداية، فقد كانت تمرّ عليها يوميًا بعد العمل، تجلس إلى جوارها تبادلها الصمت صمتًا، ثم تُلقي عليها التحية بعد ساعة أو أكثر وترحل.

أخيرًا أخبرتها يُسر أن سبب طلاقها أنها لا تُنجب، وأن طارق يرى من حقه الارتباط بأخرى لتُنجب له، وأنه طلب منها أن تبقى في عصمته لكنها رفضت، قالت ما رأت أنه لا يُسيء لطارق وأخفت الوجه الآخر للحقيقة.

قالت هداية:

كل الرجال هم نفس الشخص، كلهم خائنون، يبحثون عن المرأة تلو الأخرى، هكذا كان ممدوح وها هو...

قاطعتها يُسر:

لا يا هداية، ممدوح لم يكن ذلك اللاهث وراء النساء.

حدّجتها هداية بنظرة تحمل الكثير من المرارة، فقالت يُسر بينما تجمعت الدموع بعينيها:

سامحيني.. لكني أكره أن نظلم حتى من ظلمونا.

بغضب شديد ردت:

ظلمني يا يُسر، إياكِ أن تدافعي عنه! ألم يخني؟! ألم يلهث وراء أخرى لا تستحق شيئًا، ألم يتخلّى في سبيلها عن زوجة وابنين؟!

ـ لقد اختلّ توازنه بظهور الأخرى في حياته، فانقلبت حياته تمامًا، لم يبحث عنها ولم يعرف واحدة تلو الأخرى، ممدوح لم يفعل ذلك سوى مرة واحدة في حياته، ومع امرأة واحدة، زير النساء هو من يُقيم علاقات متعدّدة مع أكثر

من أخرى، أو يخرج من علاقة ليدخل في سواها، لكنه لم يفعل ذلك. كما أنه ما زال يحاول التكفير عن ذنب لا يُنكر اقترافه، فهو يرى ابنيه بصورة دائمة، ويظهر معهما في كل المناسبات العائلية التي تخصّ أسرته، بل إن أسرته تُصرّ أن تكوني معهم في كل المناسبات، ولم يقبلوا أن يعترفوا بالأخرى إلى الآن. قاطعوه لفترة طويلة عقب طلاقكما في محاولة منهم للضغط عليه حتي يُراجع نفسه. أظن أن ممدوح وطارق لم يبحثا يومًا عن الأخرى عامدين متعمدين.

ـ لا أستطيع أن أرى الأمر من تلك الزاوية أبدًا.

قالتها هداية بمرارة لم تنجح في التخلص منها رغم مرور السنوات الطوال على طلاقها، ثم أردفت تقول:

لا أدري كيف تدافعين عنهما، كيف تقسين على نفسك إلى هذا الحد، إن الحياة خيارات يا يُسر، وكل مسئول عن خياراته. يختار ما يروق له، ويُضحي بالهيّن على نفسه، وأنا كنت أهون ما يكون على ممدوح. فبرغم مرور السنوات الطوال على ما حدث، وبرغم أنني ألتقيه كثيرًا، وأقبل دعواته مع ابنيّ على الغذاء لكنني أفعل ذلك من أجل نفسية ابنيّ، لكنني في قرارة نفسي لم أسامحه يومًا واحدًا.

اغرورقت عينا يُسر بالدموع، والتزمت الصمت، بينما نظرت إليها هداية في أسى تقول دون كلمات»أتبكينني أم تبكين نفسك يا يُسر؟ أم تبكين هذين اللذين سرقا عمرينا وشبابنا وتحاولين التماس أعذار واهية لهما الآن؟ من تبكين بالضبط أيتها الذبيحة المسكينة!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبل الطلاق بفترة ليست بالقليلة كانت الأمور قد تأزمت كثيرًا بين هداية وممدوح، وكان إبلاغ هداية لزوج لبنى بوجود علاقة ما بين زوجته وزوجها هو ما زاد الطين بلّة بحق، فلقد اعتبر ممدوح أن هداية قد تجاوزت كل الحدود بفعلتها هذه، فتحوّلت بعدها خلافاتهما إلى صراعات، رأت فيها هداية أنها مضطرة إلى إطلاع والدي ممدوح وشقيقاته على تلك العلاقة التي أصابت حياتهما بالتصدّعات، والتي دفعت بعلاقتهما الزوجية إلى حافة الهاوية، فلم يعد هناك سبيل للرجوع ولا للإنقاذ.

ظلّت تستشعر بحاسة الأنثى أن زوجها لم يعد ملكها ولكنه صار ملك أخرى سواها، وإن امتلكت هي جسده وحملت اسمه وأنجبت منه ولدين، بدأت تُفضّل أن تقضي معظم أيام الأسبوع في بيت أبيها، الذي لامها كثيرًا على هذا، لكنها أخبرته بأنها باتت تشعر بأن علاقتها الزوجية قد أصابتها شروخ ليس إلى رأبها من سبيل.

ظلت تتفقّد أحوال لبنى من بعيد، إلى أن أتاها خبر انقبض له صدرها دون أن ينبسط ثانية، خُيّل لها عندما سمعته وكأن كل الغربان الذين على وجه الكرة الأرضية قد تجمعت حولها بلونها الأسود ونعيقها المفزع، ذلك الخبر جعلها توقن أن كل الظروف تضع نهاية علاقتها بممدوح. لقد مات زوج لبنى فجأة، عرفت أنه كان مريضًا منذ سنوات. يومها طلبت الطلاق، ولبّى ممدوح طلبها.

حرص ممدوح على أن يُعطيها كافة حقوقها وحقوق الولدين وطلب منها أن تبقى في شقة الزوجية، لكنها رفضت وأخبرته أنها تُفضّل أن تُقيم والطفلين مع والديها.

حصل ممدوح بعد الطلاق مباشرة على عقد عمل لمدة عام في الخارج، سافر بينما كان والداه وشقيقاته ما زالوا في موقف مغاير له.

قبيل سفره بساعات، بينما تساعده شقيقته الكبرى في إعداد حقائبه؛ رجته أن يتخذ من البُعد فرصة ليُراجع نفسه ويرى الأمور من زاوية أخرى، فأحيانًا يتعيّن على الرائي أن يبتعد قليلًا ليرى الصورة كما لم يرها وهو بداخلها.

وَفَّى ممدوح بعهده فأرسل لها رسالة بعد سفره كتب فيها:

«شقيقتي الحبيبة..

ها أنا أكتب إليكِ بعد شهور من سفري كما وعدتك، بعد أن ابتعدت عن كل الأجواء والضغوط والمشاحنات، تلك التي عشتها في السنوات الماضية، وأعطيت لنفسي فرصة لأُراجع حياتي من جديد.

صدّقيني لا أدري كيف تحوّلت علاقتنا من مجرد معرفة عبر حادثة إلى ما آلت إليه، لكنه ما حدث. عندما أخبرت هداية زوج لبنى، وأدخلت الشك إلى قلبه، لم تقضِ يومها على علاقتي بلبنى، بل جعلتني أشعر أنني لا أستطيع أن أتخلى عن لبنى، وجدتني يجب أن أقف إلى جوارها وأن أدافع عنها أمام زوجها.

حوّلت هداية الحياة إلى جحيم، كنت أشعر في كل مرة أنها تصنع لي فضيحة متعمّدة، وأن الحياة تستحيل معها يومًا بعد يوم، ولم يعد لدي ما أحرص عليه، فماذا بعد أن شوّهت صورتي، وهتكت أستاري؟

لا أريد أن أتجنى عليها ولا أن أبرّر خطأي الذي أعترف به تمام الاعتراف، لكن يبقى السؤال: لماذا لبنى؟! إنه السؤال الاستنكاري الذي تكررونه طوال الوقت. لقد صارت بالنسبة لي ما يطلقون عليه comfort zone، نعم غدت تلك المنطقة التي أشعر فيها بالخدر، أظنها منطقة تختلف كثيرًا عن الحب. لا تُصدّقي أن الرجال يُغيّرون حياتهم لأجل الحب، إن الأمر أعقد من هذا. أظنني وجدت عندها ما لم أبحث عنه يومًا، لكن بمجرد أن تعثّرت فيه صار العيش بدونه مستحيلًا، لقد منحتني الشعور أنه لا أحد سواي في عالمها، أشكو من

عملي فتنصت حدّ الرهف، أنقل إليها قلقي فتُخدّرني تلك الطمأنينة التي تصلني عبر ذبذبات صوتها، وبرغم هذا حاولت أكثر من مرة جادًا أن أبتعد عنها، أن ألقي بها بعيدًا عن دائرة أيامي، خاصة أنها لم تُفسّر لي لماذا كانت تفعل ذلك لأجلي، لقد كانت تُطلق على كل ذلك صداقة، وكنت أُقنع نفسي أننا مجرد صديقين، كنت أبتعد عنها وأنا أعلم أنها تتلوى من آلام الفراق، لكنها لم تطاردني لأعود كما تدّعي هداية، كنت أنا من أهجرها في كل مرة متحججًا بأتفه الأسباب، عائدًا إليها بلا مبرر واضح، وعند عودتي التي كانت لا تزيد عن أيام أحيانًا، وتصل إلى عدة شهور أحيانًا أخرى؛ أعود فأجد راحتي التي فقدتها طوال فترة بُعدي، أقسم لكِ إننا لم نكن يومًا عشيقين كما صوّرتنا هداية.

أطلقوا عليّ ما تشاءون، صنفوني بالأناني، لكنني سأظل مؤمنًا أن الأناني هو من يقبل أن يعيش مع زوجة وعقله ومشاعره مع امرأة أخرى، الأناني هو من يُبقي على أنثى فقط لتُربي له أبناءه، وتتولى أمور منزل يُقيم فيه بينما لا يجد عندها سكنًا ولا مودة. لم أرغب أن أفعل هذا بهداية، لذا وافقت على طلاقها عندما طلبته، فما أنا سوى بشر في النهاية معترف بضعفي، معترف بأنني لم أرغب يومًا في لبس قناع البطولة الزائفة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في ذلك المقهى الباريسي كان موعدها ونديم، كانت المرة الأولى التي تلتقيه وحدها، لم تسأله هل سيأتي وليد، ولم يسألها عن غُبريال، لم تسأله هل هو عشاء للوداع أم لقاء لاستكمال حديثهما الذي بدآه بالأمس، فالفراق قد صار وشيكًا.

عندما سألها هل تُفضّل مكانًا بعينه، أجابته على استحياء أنها تفضّل ذلك المقهى الذي اصطحبها إليه في يومها الأول بباريس، ربما أرادت أن تلقي عليه تحية الوداع.

بدت في تلك الليلة كزهرة برية رقيقة ناعمة، خلعت معطفها فظهر فستانها الفيروزي القصير أنيقًا. أثنى نديم على مظهرها، فابتسمت ممتنة، وسألت نفسها هل تعمد نديم ألا يفعل ذلك بالأمس حتى لا يسبب ثناءه حرجًا لها أمام الحاضرين، هل صار يفهم جوانب شخصيتها إلى هذا المدى، هل يفكّر فيها أحيانًا كما تفكّر فيه دائمًا؟ أخذها صوته من أفكارها، كان النادل قد وضع أمامهما قائمة الطعام، فاختارا منها ثم سدّد نظرة مباشرة إلى عينيها قائلًا:

احكِ لي عن حياتك.

ابتسمت قائلة:

مقارنة بما حكيته لي بالأمس لا أظنني لدي شيء يُحكى.

ـ لكنني أرغب في سماع هذا العادي.

رنت ببصرها متجاوزة الزجاج الذي تكاثفت عليه قطرات المطر من الخارج:

انفصل أبي وأمي وأنا في سن صغيرة، عشت مع شقيقي الوحيد وأبي وجدتي وعمتيّ، تزوجت أمي رجلًا ممتازًا، وأنجبت ابنين رائعين، وكذلك تزوج أبي وصار لي منه أختين توأم لا أتصور حياتي بدونهما. خُطبت في سن صغيرة عن قرار متسرع، تراجعت عنه بفسخ الخطبة. حياتي كلها تركزت في عشقي للصحافة ، أعتبر مصطفى أمين أستاذي، وياسين وهبة هو أبي الروحي، فقدتهما لكن روحهما وأفكارهما هما رفيقا حياتي.

صمتت ثم تعجبت لنفسها، كيف استطاعت أن تختصر بضعة وثلاثين عامًا في كلمات قليلة كهذه؟ سألت نفسها «هل اختصرت وتجملت أكثر مما يجب؟»، شعرت لوهلة أنها تعلمت من الصحافة الكثير.

ـ تتحدثين الإنجليزية بطلاقة، هل كانت دراستك بها؟

غطّت فمها بأصابعها البيضاء الناعمة بينما تبتلع طعامها، ثم قالت:

أبدًا، أنا لست من أسرة تطيق هذا يا نديم، لقد تلقيت تعليمي في مدارس حكومية، وتخرجت بعد ذلك من جامعة القاهرة، لكنني أحببت اللغة الإنجليزية منذ صغري، كانت عمتي تساعدني في تعلمها، وعندما عملت في الجريدة ظللت لمدة عامين متواصلين أتلقى دورات مخفّضة بالمركز الثقافي البريطاني، كانت الجريدة تدفع لي نصف المصروفات، ويتم خصم النصف الآخر من مرتبي.

طلبت منه أن يُحدّثها عن ابنيه، كان السؤال المنطقي الوحيد الذي يصلح كمقدمة لمعلومة ترغب في معرفتها بشدّة، أخبرها بأنهما وأمه أروع ما في حياته الأسرية. ظلّ يُحدثها عنهما، عن طبائعهما، عن وقته معهما كيف يقضونه عندما يجتمعون. أخبرها بأنه يمتلك في حقيبته بعض الصور لهما، أخرج بالفعل صورًا صغيرة تأملتها باهتمام كبير، إلى أن وقع نظرها على صورة يظهر فيها نديم والولدين وامرأة فاتنة، أشارت إليها قائلة:

أظنني أعرفها.

ـ أمهما.

ـ أهي.....؟

ـ نعم، كارلا أشقر كانت ملكة جمال لبنان سابقًا.

أرادت أن تقول له «سابقًا! إنها ما زالت تبدو في قمة الجمال»، لكنها استبدلت جملتها بسؤال:

منذ متى تمّ الطلاق يا نديم؟

ـ منذ سبع سنوات تقريبًا.

قالها وهو ينفث دخان سيجارته، ساد الصمت للحظات، كانت واثقة أنه سيحكي.

ـ كانت رغبتها.

ـ كيف؟

سألته باندهاش، فأردف قائلاً:

ـ أحيانًا لا يكفي الحب وحده يا منتهى. فنحن تزوجنا عن حب، اختار كلانا الآخر، لم يُضايقني يومًا فرط اهتمامها بجمالها، لكن ضايقها بشدّة فرط اهتمامي بعملي، أو ربما كان هذا هو السبب الذي وجدته هي الأكثر منطقية لتطلب الطلاق.

ـ أكانت هي من طلبت الطلاق بحق؟

قالتها بتعجب باد.

ـ نعم.

ـ ألم تُحاول أن تُثنيها عن طلبها؟

ـ ليس بالمعنى المفهوم، لكنني حاولت أن أفهم لماذا؟ قالت لي إن شيئًا فتر بيننا، وأن روتين الحياة الزوجية شيء مميت، وأن اهتماماتنا مختلفة. قالت إنها تراني مفتون بقلمي أكثر من افتتاني بها، طلبت منها أن ننفصل لأشهر ليختبر كل منا حياته بعيدًا عن الآخر قبل أن يصبح الطلاق واقعًا. وافقت واختارت أن تعيش في بيروت، مرت الأشهر، ظللنا على علاقة ممتازة، لا أدري هل افتقدتها وقتها أم افتقدت ابنيّ وحياتنا كأسرة، لكنها لم تفتقدني، وطلبت أن يتحول الانفصال إلى طلاق.

ـ لماذا وافقت أن تطلقها إذن؟

نظر في عينيها مباشرة كأنه يتعجب سؤالها:

لا أحترم الرجل الذي يحيا مع إحداهن رغمًا عنها.

صمت برهة ثم أردف قائلًا:

بمرور السنوات شعرت أنها كانت محقّة، ربما أكون شخصًا مملًا لامرأة تضجّ بالحياة.

ـ ممل؟!

قالتها مستنكرة، بينما ابتلعت كل ما ودّت قوله بحق.

قبل أن تغادر السيارة، عندما قام بتوصيلها للفندق، قال:

ظننت أنني سأستمع إليكِ، لكن ها أنا أقضي ليلتي الثانية أحكي لكِ بلا توقف.

ـ هذا من حسن حظي يا نديم، أدام اللـه صداقتنا.

ـ سأمر عليكما في الغد لأقوم بتوصيلكما إلى المطار.

ـ نديم.. لقد أخذنا من وقتك الكثير، فلا داعي...

لم يتركها تستكمل جملتها:

كُفّي عن ترديد كلمات لن تفيد. موعدنا تمام الخامسة مساء الغد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بقي نديم ووليد معهما إلى أن قاما بوزن الحقائب. تصافحوا جميعًا بحرارة، تبادلوا كلمات الوداع، اتفقوا على أن يظلوا على اتصال.

عندما تخطت بوابة المغادرة بدت ساهمة، لوحت لنديم مودعة للمرة الأخيرة، جلست وغبريال في الاستراحة انتظارًا لموعد الطائرة المتبقي عليه ساعة من الزمن، استأذنت غبريال في بعض الوقت للذهاب إلى الحمام.

أخيرًا هي وحيدة، أغلقت الباب، أسندت ظهرها إليه، أطلقت سراح دموع لم تنجح في أسرها أكثر من ذلك، تمتمت قائلة «لا أريد أن أغادر».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس عشر

بمجرد أن هبطت الطائرة هاتفها نديم ليطمئن عليها، وفي المساء أرسل لها رسالة نصية «عمتِ مساءً.. بينما أتناول عشائي الآن وجدت مقعدكِ شاغرًا وشعرت برغبة في الحكي..»

لمعت عيناها وخفق قلبها وهي تكتب له «عشاءً سعيدًا.. أنا أيضًا أفتقد لقاءاتنا». بحركة عصبية ألقت القلم بين أصابعها ووضعت رأسها بين كفّيها مسندة ذراعيها إلى المكتب «آه يا نديم! يا ليتني أستطيع أن أفهم هل تجامل الجميع بمثل تلك الكلمات، أم...» لم تكمل، لقد تتابعت الأفكار على رأسها بلا هوادة.

عقب نشر الجريدة لمجموعة تحقيقاتها عن اللجوء السياسي في أوروبا، بدأت منتهى في جني ثمار نجاح بدا لها أكثر من المتوقع، توالت عليها الرسائل البريدية والإلكترونية من القراء من مختلف الدول العربية، وطلب أكثر من سفير دولة عربية بالقاهرة لقاءها لما حوته تحقيقاتها من قصص حقيقية لمواطنين عرب لفظتهم أوطانهم ولم تقبلهم أوطان زحفوا إليها، أو قبلتهم على مضض بعد طول معاناة، فلقد تعذّب الكثير من العرب لأجل الحصول على اللجوء بينما ما زال آخرون يترنحون بين جنبات العذاب دون حصولهم عليه بعد.

وبرغم أن يومها صار أكثر ازدحامًا مع نشر هذه التحقيقات، إلا أن حالة من الشجن باتت تحاصرها، شعرت أنها تركت في باريس جزءًا كبيرًا من روحها، ذلك الجزء الذي لم تكن تعرف عنه شيئًا ولم تكن تظن أنها تمتلكه من الأساس، لقد عرفت هناك أنها تألف الأصدقاء وتأمن للغرباء، وتعشق السهر، وتأنس بالمسير إلى جوار أحدهم مختبئة من حبات المطر المتساقطة فوق مظلته، وجدت نفسها تنفعل بشدة حين الاستماع لأحدهم وهو يبثّها أشجانه عن وطن احترق أمامه وشقيق ابتلعته الحرب، تعرفت على رغبتها في إظهار جمالها وإبراز أنوثتها، فبرغم اعتيادها على إشادة الجميع بأناقتها، إلا أنها كانت تلبس بطريقة مختلفة، لقد كانت المرة الأولى التي حرصت فيها على شراء ملابس تُنبيء عن جمال وفتنة تعمدت إخفاءهما من قبل. فكيف لها الآن أن تحيا دون ذلك الجزء من روحها!

خففت عنها بعض الشيء تلك المراسلات بينها وبين نديم، فصارت تتلقى منه يوميًا بريدًا إلكترونيًا وترسل إليه آخر، وصارت بينهما مكالمة هاتفية أسبوعية على الأقل.

صار يرسل لها مقالاته قبل النشر يسألها عن رأيها، فتُبدي إعجابها أحيانًا وتناقشه في رؤيتها التي قد تختلف معه بعض الشيء أحيانًا أخرى.

أرسل لها ذات مرة سائلًا «هل أنا أناني؟ أعلم أنني صرت آخذ من وقتك الكثير لقراءة مقالاتي ولمعرفة آرائك في برامج نُعدّها في وكالة الأنباء، بينما لا أظنني مفيدًا لكِ؟»

أرسلت إليه «قراءة مقالاتك إضافة لي، لكن دعني أقول لك إنني سأعتبر رسالتك هذه بمثابة إذن صريح لي في أن أفعل.كما أنني بصدد تحضير مفاجأة لك خلال الفترة القادمة.

طاب مساؤك أيها العزيز».

بمجرد أن ضغطت على أيقونة الإرسال دقّ جرس هاتفها المحمول، تناولته بعفوية، كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة مساءً، ليست معتادة على تلقي مكالمات في وقت متأخر، ظلت لوهلة تُحدّق في الاسم الذي ظهر على الشاشة، لماذا يُحادثها الآن، إنه لم يفعل ذلك يومًا، تحركت بخطوات سريعة لتغلق باب غرفتها، ثم أجابته في صوت قلق:

أستاذ طارق، مساء الخير.

جاءها صوته، الذي لم تتوقع أن تسمعه بعد أشهر من طلاقه ليسر:

مساء الخير يا منتهى، كيف حالك؟

كانت نبرات صوته تمتزح بأسى لم تخطئه أذنها:

أنا بخير، أهلًا بك.

أعتذر لاتصالي وخاصة أن الوقت متأخر، أ...

قاطعته حتى تعفيه من شعور بالحرج والربكة عرفتهما في صوته:

لا داعي للاعتذار، تستطيع حضرتك محادثتي في أي وقت.

لا تنكر أنها تحمل في صدرها غصّة منه بسبب يُسر، لكنه رغم هذا لديه رصيد من الود والاحترام في صدرها.

ـ أريد.. أريد أن أطمئن على يُسر..

سادت لحظة من الصمت شردت منتهى في كلماته التي ألجمتها.. فاستطرد يقول دون أن يتخلص من ارتباكه:

حاولت الاتصال بها أكثر من مرة، كانت لا تُجيب على الهاتف في البداية، ثم صار الهاتف مغلقًا بصورة مستمرة.

رغمًا عنها شعرت منتهى بالإشفاق عليه.

ـ يُسر قامت بتغيير رقم هاتفها منذ فترة.

ـ هل أستطيع أن أستأذنك في إبلاغها، أنني أودّ التحدّث إليها للضرورة.

صمت برهة ثم أردف:

للضرورة القصوى.

ـ بالتأكيد سأفعل.

ـ أعجز عن شكرك يا منتهى.

ـ أرجوك، لا داعي أبدًا لشكري، سعدت لسماع صوتك.

كانت تعلم أن يُسر لم تستسلم للنوم بعد، لكنها خشيت أن تمنحها بمثل هذا الخبر مزيدًا من الأرق، فأرجأت إبلاغها حتى الصباح.

كثيرًا ما سألت منتهى نفسها «هل ستستطيع يُسر التعافي يومًا ما؟»

في الصباح قبيل انطلاقهما إلى عملهما، قالت منتهى بصوت متردد:

يُسر.. طارق حدّثني بالأمس.

رفعت يُسر عينيها فالتقتا بعيني منتهى، وارتعش الكوب الساخن في يدها، لكنها لم تنبس ببنت شفّة، فأردفت منتهى قائلة:

رجاني أن أبلغك أنه يريد محادثتك، وأنه يحاول الاتصال بكِ لكنه لا يستطيع الوصول إليكِ.

رأت بلورات من الدموع قد تجمدت لتوّها في مقلتي يُسر، التي نهضت متناولة حقيبتها، ثم فتحت باب الشقة، والتفتت إلى منتهى وقالت:

منتهى، إن اتصل بكِ ثانية، لا تخبريني.

ثم صفعت الباب بقوة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تغيرت أيام منتهى كثيرًا عندما بدأت في إرسال تحقيقاتها لنديم قبل نشرها، لم تعتد أن تفعل هذا من قبل، إلا أنها أحبت ذلك الأمر لأنه يجمعهما، أسعدها أن تسمع وقع قلمها عليه قبل القراء، أحبت مناقشاتهما.

ذات مرة عاتبته على أسلوبه في مقال له، وبينما شرع للرد عليها توقف ليهاتفها، أتاها صوته:

أريد أن أفهم على ماذا تعترضين؟ مثل تلك الحكومات لا تصلح لها سوى تلك اللهجة التي تُسمينها بالعنيفة.

ابتسمت قائلة:

أين السلامات والتحيات يا نديم.. أين ملك زمام النفس ورباطة الجأش التي نتحدث عنهما دومًا؟

ـ عذرًا يا منتهى، ولكن..

ـ دعنا نتناقش بهدوء أولًا ثم اكتب ما تريد.

في صباح يوم آخر تلقت منه رسالة:

«منذ ما يقارب الشهر وعدتيني بمفاجأة، هل بخلتِ بها عليَّ أم راجعتِ نفسك فوجدتيني لا أستحقها».

ضحكت وهي تكتب له «عاهدت نفسي ألا أحدّثك عنها حتى تسألني، بل وتُلّح عليَّ في السؤال، لكن ها أنا أطلعك عليها بمجرد سؤالك دون إلحاح.

نديم، لقد قررت أن أنفّذ اقتراحك لي، وبرغم أنك اقترحته عليَّ لمرة واحدة لكنني فوجئت بكلماتك لا تغادر رأسي إلا بعد أن تحولت إلى فكرة، ووجدتني أرغب في تحويلها إلى واقع. لقد بدأت في كتابي الأول يا نديم، بدأت فيه بمجرد أن عدت إلى القاهرة، واحد من الكتب التي تنتمي إلى أدب الرحلات، سأكتب فيه عن رحلتي لأوروبا، عندما أبلغت رئيس التحرير بطلبي لأجازة لمدة أسبوعين لم يرفض، فأنا قلما أطلب أجازة، بل وقد تمر الأعوام دون أن أستنفد أجازاتي، لكنه فقط تعجب لطلبي وسألني عن السبب، وعندما أخبرته بأنني أنتوي إصدار كتابي الأول وأنني اخترت له مبدأيًا عنوان «أوروبا القصص والحكايات»، رحب بالفكرة واقترح عليَّ أن ننشر أجزاءً منه في سلسلة مقالات بالجريدة، ثم تتولى الجريدة أمر جمعه في كتاب».

كتب إليها فور تلقيه الرسالة «منتهى.. لقد حملت رسالتك لي مفاجأتين وأمر أؤيده، فأما المفاجأة الأولى فهي قرارك بكتابة أول أعمالك، وهذا ما كنت أراه يجب أن يحدث في أسرع وقت، والمفاجأة الثانية تمثلت في حضورك المرتقب إلى أوروبا، مما سيترتب عليه لقاؤنا شئتِ أم أبيتِ، وتوقيعك على عقد عملك كمراسل صحفي لوكالتنا شئتِ أم أبيتِ أيضًا، أما الأمر الذي أؤيده فهو عرض رئيس التحرير في نشر جزء من الكتاب في سلسلة حلقات بالجريدة لأن هذا بمثابة دعاية جيدة للكتاب».

بينما تقرأ كلماته ساورها شعور سعدت به، إن هناك من يهتم بحق لحالها، من يغرق في تفاصيلها، من تقبل تمامًا أن يعترض ويقبل ويؤيد، بل وصارت تبثّه كل أخبارها.

تعجب زملاؤها من فكرة سفرها للمرة الثانية إلى أوروبا في وقت قصير، فأجابتهم بأن هناك أماكن قرأت عنها وتحتاج لزيارتها عبر طرق بعينها لتكتب عنها.

لأجله فعلت، حتى وإن توارت وراء ألف سبب، فستبقى رغبتها في لقاء نديم هي الدافع الأساسي وراء عودتها إلى أوروبا من جديد.

سافرت وحدها هذه المرة، كان غبريال على وشك السفر إلى اليابان ليشارك في معرض للتصوير الفوتوغرافي، تم ترشيحه له من قبل سفارة اليابان بمصر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في المطار تحركت كفراشة في سترة حريرية من اللون الأحمر القاني مكشوفة الصدر، فوق بنطال حرير أسود وحذاء أسود عالي الكعب، كان شعرها مصففًا بعناية، بينما أبرزت القليل من المساحيق مزيدًا من أنوثتها، واشترك عطرها الأنثوي المثير ليؤكد ما أبرزته المساحيق.

وقف نديم في استقبالها، تصافحا بحرارة، أبقى يمينها بيمينه ثم ربّت فوقه بكفّه الأيسر ربتتين خفيفتين. لأول مرة تشعر بدرجة حرارة كفٍّ يصافحها، شعرت بكفّه دافئًا بينما كان كفّها شديدة البرودة.

أبدى تعجبه من إصرارها على النزول في نفس الفندق الصغير الذي سكنته في المرة السابقة، رغم أن هناك فنادق أكثر منه تميزًا، فقالت:

أحب أيامي فيه، أتدري؟ لقد كانت المرة الأولى في حياتي التي أختار مكانًا أسكنه، كما أنه صار يحمل نسيم ذكريات وأيام تعني لي الكثير، لقد جئت إلى هنا مغتربة، فلم أجد الغربة كما قرأت وكتبت عنها، رأيت للغربة وجهًا آخر لم أسمع عنه من قبل.

ـ تبدين محققة.

فاستطردت تقول:

ليس من السهل أن يمتلك الإنسان ذكريات يُحبها، وعندما يحدث يجب ألا يُضيّع فرصة استعادتها من جديد.

أخبرها عن ضرورة زيارة أكثر من بلدة لا تبعد كثيرًا عن باريس لم تذهب إليها بعد، فقررت على الفور استبعاد أماكن كانت تخطط لزيارتها لتستبدل بها

اقتراحاته.

في أحد الأيام التالية اصطحبها إلى بلدة صغيرة بدت لها غاية في الروعة تسمى «Riquewihr»، أكثر ما يُميزها تلك البيوت الصغيرة التي كانت مصدر الإلهام لقصة «سنو وايت».

في مساء يوم آخر اصطحبها لتناول العشاء في مطعم لبناني، سألها بينما يتناولان الطعام:

هل قال لكِ أحدهم أنه يعشق الحكي لكِ وأنكِ مستمعة أكثر من رائعة؟

تعثرت كلماتها في خجلها، وخرج صوتها من بين ابتسامة صغيرة مرتعشة:

لا، لم أسمح لأحدهم بالاقتراب مني إلى هذا الحد.

ـ إذن أنا تجاوزت.

قالها ضاحكًا، فردت بسرعة لتنفي ما لم تقصده:

أبدًا، الحقيقة سؤالك أربكني، فلم أجد ردًا سوى هذا، أظنه ردًا صحفيًا خائبًا، كنت أظنني أكثر لباقة.

ضحكا سويًا، ثم تعالت دقات الدبكة اللبنانية، دعاها للرقص، ترددت قليلًا ثم تركت كفّها بين كفّه وانطلقا نحو الحلبة.

من جديد فتحت دفتر مذكراتها بمجرد عودتها وكتبت «حينما اقترب نديم مني وأخذ بيدي لنرقص ارتبكت، لقد شعرت أن كفّي لان تمامًا بين قبضته لدرجة أنني فقدت السيطرة عليه، كان قلبي يخفق بشدة، أكاد أجزم أن دقاته شاركت في الإيقاع مع الطبلة لكن أحدًا لم يميز أن تلك الدقات كانت لقلبي. عندما انتهينا من الرقصة وأثناء عودتنا إلى الطاولة، جعلني نديم أتقدمه كي لا يصطدم بي أحدهم وشعرت بأنامله أعلى ذراعي، لكن حتى لمساته العفوية هذه لم تمر بي مرور الكرام، أخشى أن أقترب بمشاعري منه فأخسره، أخشى ألا أستطيع أن أملك زمام نفسي، فأحيانًا يجد المرء نفسه في علاقة تعلو مشاعره فيها مشاعر الطرف الآخر، وتُصبح احتياجات كل منهما من العلاقة مختلفة، فبينما يشعر أحدهما أن هذا يُغرقه بما لا يحتاجه، يشعر الآخر بالحرمان؛ حينها يصبح الفراق هو الحكم النهائي! أخشى كثيرا أن أفقده».

وبرغم سعادتها إلا أنها باتت ليلتها مؤرقة.

في الصباح استطاعت بصعوبة فتح جفنيها المثقلين، كان صدرها يعلو ويهبط، سمعت لأنفاسها صوت أنين، استغرقت دقائق حتى تتبين أين هي، ثم مسحت

وجهها بكفّيها وهي تحاول أن تقوم من رقدتها. جلست على السرير وقد لامست قدماها الأرض.

همست بينما تشعر بانقباض في صدرها «لماذا الآن؟ لماذا؟ لماذا بعد تلك الليلة؟».

إنه المنام، إنها الأخرى تقف وراءها من جديد، لم ترَ هذا المنام منذ وقت طويل حتى ظنت أنها لن تراه ثانية.

بمزاج متعكر نهضت وارتدت ملابسها، اتجهت إلى محطة القطار، هاتفها نديم ليطمئن على أنها بدأت رحلتها إلى بلدة بروج البلجيكية، أخبرها بأن ابنيه وأمهما سيكونان في باريس ابتداءً من اليوم ولمدة أسبوع، قال لها إنها يجب أن تهاتفه قبيل عودتها إلى باريس ليكون في انتظارها، تمنت له قضاء وقت سعيد مع أسرته، وبرغم أن المكالمة بدت عادية، إلا أنها شعرت أن صدرها يزداد ضيقًا.

نزلت من القطار في بروكسل، بقيت لبعض الوقت في انتظار قطار آخر، شقّ بها طرقًا غَنَّاء إلى بُروج.

وضعت حقيبتها في إحدى غرف قلعة قديمة يعود زمن بنائها إلى ألف عام، فلقد تمّ تحويلها إلى فندق، تغيّر الديكور، الأثاث، طريقة الفرش، السكان، لكنها ما زالت نفس القلعة. ففي بروج لا يتم هدم المباني.

وصلت في موعدها المتفق عليه مع المرشد السياحي على رأس فوج، ليبدأوا جولتهم بين أرجاء تلك البلدة التي بدت لها فاتنة الجمال منذ أن وطأتها قدمها.

بدت بروج خلابة التفاصيل، آسرة المناظر، الخضرة تعانق مياهها، تنتشر القنوات المائية بها وكأنها شرايين تتدفق بالحياة داخل جسد بشري، بيما تعلو القنوات جسورٌ. شعرت منتهى وكأنها دخلت آلة الزمن فأخذتها فجأة لتعيش في القرون الوسطى.

بدت المباني مُلهمة وكأن كل مبنى يناديها ليغريها قائلًا «أمتلك قصة يستحقها قلمك، فقط اقتربي مني وسأحكي لكِ».

في شوارع بروج اخترقت أنفها الدقيق رائحة الشيكولاتة وحاصرتها بلا هوادة، أخبرها مرشدها بأن أجود أنواع الشيكولاتة تُصنع هنا، ثم اصطحبها إلى أحد المحلات حيث قام البائع فور دخولهما بتقديم التحية لهما، وكانت عبارة عن قالبين صغيرين من الشوكولاتة بلجيكية الصنع، همّت منتهى بأن تحتفظ بها فأخبرها البائع بأنها حين ستفتحها يجب أن تنتبه إلى تلك الورقة التي بداخلها،

وألا تستهين بما ستقرأه فيها. ابتسمت وشكرته وأعربت عن إعجابها بتلك الأفكار الجذابة للبيع.

لم تغادر إلا بعد أن اشترت مجموعة من قوالب الشيكولاتة مختلفة الأحجام، ساحرة الأشكال، وطلبت من البائع تقسيمها في علب مختلفة لتقدّمها كهدايا، وكتبت اسم شخص على كل علبة «دينا، دنيا، يُسر، أبي، زينب، غبريال، نديم».

تنقّلت في أرجاء بُروج من خلال عربة يجرها حصان مرات، ومرات أخرى جلست داخل قارب يتهادى بها في إحدى القنوات المائية، فقد كانت هذه هي وسائل المواصلات القديمة قدم المدينة.

وبرغم شعورها بأنها جزء من لوحة فنية هي الأروع على الإطلاق، إلا أن روحها كانت تفتقد شيئًا ما!

بحيرة العشاق، كانت هي وجهتها الأخيرة في رحلتها الخالدة إلى بروج، بمجرد أن وقعت عيناها عليها همست في نفسها «بالتأكيد كان يجب أن يكون هذا هو اسمك أيتها الساحرة»، كانت بحيرة تحفّها الأشجار ذات الألوان المختلفة ألوانًا بديعة وكأن كل شجرة تنافس جارتها على الفوز بلقب ملكة جمال الأشجار. مبهورة الأنفاس جلست على أريكة خشبية تتأمل العشاق الذين يضعون بصمات عشقهم على ضفتي البحيرة بأشكال مختلفة، فما بين أحاديثم الهامسة، وقبلاتهم، وعناقهم، وافتراش بعضهم للحشائش الخضراء والاستلقاء متجاورين يروي عشقهم الأرض وترتوي من عشقهم الأشجار، فلا يشبه روعتها شيء.

أرخت رأسها فرأت الحقيبة التي بها الشيكولاتة، وتذكّرت القالب الصغير الذي منحه لها البائع، شعرت بشغف لقراءة ما تنطوي عليه الورقة، فتحتها بترقب طفولي وكأنها تحمل نبوءة تخصّها.

«Life is like a box of chocolate, you never know what you gonna get»

الحياة عبارة عن قالب من الشيكولاتة، وأنت لاتعلم أبدًا ما الذي ستحصل عليه.

ابتسمت ابتسامة كان أبرز ما فيها ذبولها، قالت في نفسها «أظنها تناسبني، يبدو أن البائع كان صادقًا».

انتبهت على صوت المرشد السياحي يخبرها بأنه قد حان موعد تحركهم نحو الفندق، أخبرته بأنها ستبقى وحدها لبعض الوقت، خاصة وأنها ستغادر إلى باريس في الصباح، وأنها ستعود وحدها إلى الفندق القريب.

قبل أن يودّعها أخبرها ألا تتردد في الاتصال به إن شعرت بحاجتها إلى مساعدة، ودّعته مُمتنة وشكرته على ترشيحه المميز لمدينة تركت في روحها أثرًا كبيرًا.

رفعت قدماها وأسندتهما إلى حافة الأريكة، وحزمتهما بذراعيها، ثم أسندت ذقنها إلى ركبتيها، سألت نفسها عن ذلك الشعور الخانق بالفقد والوحدة اللذين لم تشعر بهما منذ زمن طويل، كيف صارت تتأذى الآن من وحدة لطالما أحبتها ودربت نفسها عليها فألفتها. أخبرتها نفسها بصدق أنها تفتقد نديم، تفتقد صحبته، تمنت لو تجده جالسًا هنا إلى جوارها، يبوح لها بصوته الهادئ العميق فيهبها الحياة والسعادة والتميّز، فوحده صار مالكًا لأدواتها.

عندما استيقظت في اليوم التالي وجدت مكالمة منه، أرسلت إليه رسالة نصية «سأهاتفك بمجرد وصولي إلى باريس». أشفقت عليه من أن يترك مكتبه ويأتي لاستقبالها بمحطة القطار، فقررت أن تغادر المحطة وحدها لتذهب إلى مكتبه فور وصولها، ستخبره أنها أتت لتمنحه الشيكولاتة التي أحضرتها له، ستخفي شوقها تحت هذا الستار. ستريه الورقة التي انطوى عليها قالب الشيكولاتة الذي فتحته عند بحيرة العشاق، تشعر لأول مرة أنها تُريد أن تحكي، أن تثرثر، همست في نفسها «كيف أحدثت فيَّ كل هذا التغيير يا نديم!».

أنجزت الكثير، لكن ما زالت أمامها بلدتان خططت لزيارتهما، وتبقى أربعة أيام على عودتها للقاهرة، وما زالت لا ترغب في مغادرة مكان يسكنه نديم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أمام المبنى الذي يقع فيه مكتب وكالة الأنباء ترجلت من التاكسي، انتظرت ضوءًا يصدر من إشارة المرور ليهبها الإذن بالعبور إلى الرصيف المقابل، لكنها تجمدت فجأة في وقفتها حينما وقعت عيناها على امرأة تعرفها حق المعرفة، لكن لم يخطر ببالها أن تلتقيها الآن. إنها كارلا، تلك الفاتنة، كل شيء فيها يصرخ بالجمال، ملامحها، ألوانها، ثيابها، جالسة بسيارة حديثة يقودها أحد ابنيه اللذين عرفتهما من الصور. بعد دقائق بينما ما زالت متجمدة في وقفتها، ظهر نديم أمام المبنى متجهًا نحو السيارة، في هذه اللحظة استدارت في حركة عفوية خاطفة، أعطت له ظهرها. هل كانت تريده ألا يراها رغبة منها ألا تقحم نفسها في لقاء يجمعه بابنه وزوجته السابقة، أم لعدم رغبتها في مشاهدة لحظة لقائه بكارلا؟ شعرت للتو أنها دخيلة، وأن في حياة نديم جانبًا هامًا لا يمكن إغفاله، تذكرت أنه لم يذكر كارلا أمامها بسوء، لقد قال لها إنها من طلبت الطلاق، تمامًا مثلما فعلت منتهى التميمي بمنصور، فهل كره منصور منتهى؟ تكاد تكون واثقة إنه ما زال متيمًا بها. عندما استدارت بعد دقائق كانت السيارة قد غادرت بمن تحملهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عادت إلى الفندق وسط مشاعر متضاربة كادت تعصف بكيانها، لم تستطع أن تفعل شيئًا سوى التفكير فيه «من أنا بالنسبة له؟ وماذا يمكن أن أكون؟ كيف لم أسأل نفسي لماذا لم يتزوج بعدها؟ هل خشيت مواجهة نفسي بالإجابة، ها أنا أواجهكِ بها، إنكِ لن تستطيعي أبدًا أن تكوني سوى الأخرى، لكن حتى في هذه المرة هل سألتِ نفسكِ عن الأولى؟ سأسألكِ أنا إذن، هل أنتِ غريمة مناسبة لكارلا؟».

نبهتها الظلمة التي أحاطت بها أنها بقيت في جلستها لفترة طويلة وأن الليل قد أسدل ستائره، تنبهت أن الوقت مرّ دون أن تفعل شيئًا، دون أن تكتب أو تنتهي من عملها، دون حتى أن تنتبه إلى أنها لم تأكل شيئًا منذ الصباح، فقط غارقة في التفكير فيه.

تحركت لتُضيء نور الغرفة، ثم فتحت هاتفها الذي كانت قد أغلقته بمجرد أن تحركت من أمام مكتب نديم. وجدت رسالتين من دنيا تطلب منها أن تهاتفها للضرورة.

على غير رغبة منها فعلت، حيتها تحية خاطفة، ثم سألتها عن الأمر الضروري.

ـ عمي طارق تعرض لحادث غريب يا منتهى.

صرخت:

حادث.. أي حادث؟!

ـ لقد سقط من الدور الرابع.

شهقت منتهى شهقة كبيرة، وضعت كفّها على فمها كي تكتم شهقتها وتكتم فزعًا تملكها.

ـ كيف سقط؟

ـ ما زال الأمر قيد التحقيق، قرأت الخبر في الجرائد، أنا لا أعرف إن كانت يُسر تعلم أم لا. كتبوا أنه كان واقفًا في الشرفة في عمله بمبنى إداري ضخم، البعض يقول انتحار والبعض يقول اختلّ توازنه و...

قاطعتها بصوت شرخته الصدمة بينما بدأت دموعها تنساب على خدها:

هل مات؟

ـ لا، تم نقله إلى المستشفى في حالة خطرة.

أغلقت الخط، وتركت نفسها لبكاء طويل، سمعت نفسها تهذي «إنه العشق، ذلك الكائن الملعون الذي يُدمّر كل من يطأ أرضه، لقد كذّبت نفسي عندما حدثني طارق تلك المرة الأخيرة، كان صوته صوت عاشق نادم، صوت رجل ذبيح مجروح الكرامة. لقد دمر الحب كل من أحبوا، ها هي يُسر تعذبت وما زال أمامها جرعات من العذاب تنتظرها بمجرد علمها بما حدث لطارق، دمر الحب حياة أبي، ودمر شباب هداية، ماذا أنتظر، لماذا أنا هنا الآن؟ هل أنا مُهيأة لمصير كمصيرهم؟»

وفجأة وسط سيل دموعها قررت الرحيل، قالت لنفسها «الآن وليس بعد أيام». طلبت من إدارة الفندق مُساعدتها في تعديل تذكرة الطيران الخاصة بها، إنها في حاجة ملحّة لأن تعود إلى القاهرة في غضون ساعات.

أخبرها الموظف بأن هناك مكانًا على الطائرة المتجهة إلى القاهرة بعد عشر ساعات، قالت في صوت نال منه البكاء فأرداه واهنًا:

احجز فورًا، وأرسل لي بعد دقائق من يأخذ حقائبي فسأتجه إلى المطار.

سألها متعجبًا:

وهل ستبقين في المطار لعشر ساعات يا سيدتي؟

ـ نعم.

قالتها بلهجة قاطعة.

أغلقت هاتفها المحمول من جديد، قبل أن تغادر الفندق توجهت إلى المركز الخاص برجال الأعمال لتستخدم الكمبيوتر، أرسلت لنديم عبر البريد الإلكتروني:

«عزيزي نديم

لقد انتهيت تقريبًا مما حضرت لأجله، لذا رأيت أنني يجب أن أعود إلى القاهرة، أعتذر عن قبول عرضك الكريم لي بالعمل في وكالة الأنباء، لقد تلقيت عرضًا من إحدى القنوات الفضائية لتقديم برنامج تليفزيوني فرأيتها فرصة جيدة وأكثر مناسبة لي.

غاية الشكر لك على كرمك»

انسابت دموعها من جديد وهي تضغط على زر إرسال، ثم رحلت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الأخير

بمجرد وصولها القاهرة، توجهت إلى البيت باحثة عن يسر، لكنها لم تجدها هناك، حاولت مُهاتفتها فوجدت هاتفها المحمول مغلقًا، هاتفت دنيا التي صرخت عندما علمت أنها وصلت مبكرًا عن موعدها بأربعة أيام، لم تمهلها منتهى الكثير من الوقت لتُجيب عن أسئلتها، فقط سألتها عن يُسر، فأجابتها:

إنها في المستشفى، حالة طارق سيئة!

أغلقت منتهى الهاتف وهرعت إلى يُسر.

في ردهة طويلة بدت لها بلا نهاية، باردة وكأنها تنتمي لإحدى المناطق القطبية، لمحت يُسر جالسة على البعد، منكمشة على نفسها تشبه ورقة مطوية طيات كثيرة وإلى جوارها يجلس والد طارق. جرت نحوها فخفق قلبها من مشاهدة وجه يُسر الممتقع وعينيها المتورمتين اللتين قاربتا على الاختفاء، ألقت يُسر بنفسها بين أحضانها، وتركت لدموعها العنان بلا توقف، جاوب دمع منتهى دموعها. لأول مرة ترى يُسر منهارة إلى هذا المدى. جذبتها وأوت بها إلى ركن بعيد.

ـ أنا أجرمت في حقه يا منتهى، كيف طاوعته، كيف تركته لنفسه، كيف تركته لضغوط الآخرين، كان يجب أن أحميه منهم، كيف اشتريت كرامتي وبعته؟! كيف تخليت عنه؟!

ـ لا تقسي على نفسك إلى هذا الحدّ يا يُسر، هو من طلب أن يرتبط بأخرى.

ـ كان يجب أن أقول له لن تستطيع أن تحيا بدوني يا طارق، لكنني كنت أنانية، قاسية، كنت أعلم أنه لن يستطيع أن يعيش بعيدًا عني، ورغم هذا تماديت في الثأر لكرامتي الجريحة، على حساب من؟ على حساب طارق يا منتهى! طارق الذي أحبني فتعرى أمامي تمامًا منذ اليوم الأول في علاقتنا، وأن يتعرى رجل أمام امرأة فيكشف لها بمحض إرادته عن نقاط ضعفه، عن أدق أسراره، عما يكره أن يواجه به أقرب الناس له، أن يعتبر رجل تلك المرأة هي مكمن سره وموطن راحته، فهذا يُحمّلها مسئولية هذا الرجل كاملة إلى أن يُفرقهما الموت.

بدت كلماتها كسياط حارقة تجلد بها نفسها بلا هوادة، بينما تتساقط دموعها.

ـ والده يطلب مني أن أسامحه لأنه وأمه من تسببا في هذا. وأنا.. أنا من يجب أن يسامحني يا منتهى.. لقد حاول الاتصال بي في العمل مرات ومرات فلم أرد عليه، حضر لمقابلتي فرفضت مقابلته، كنت أشعر أنه ذبحني فقتلته دون أن أدري!

كادت منتهى تصرخ قائلة «كلامك يؤكد أنه انتحر يا يسر! كيف تتصورين هذا، هل من طلقك ليتزوج بأخرى هو من ينتحر لأجلك؟!» لكنها شعرت فجأة أن هناك جوانب أخرى في قصتهما، جوانب خفية في حياة طارق تعلمها يُسر، ولم تخبر بها منتهى.

رفضت يُسر مغادرة المستشفى.

ـ سأبقى هنا حتي ينجو.

ـ سينجو يا يُسر، بإذن اللـه سينجو.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في فراشها باتت مرتعدة الفرائص، هل البرودة التي تُخدّر أطرافها بسبب شعور حقيقي بالبرد أم إحساس داهم بالخوف، عندما لم تستطع النوم فتحت نور الغرفة وأخرجت دفتر مذكراتها وكتبت:

«من يريد أن يعيش حرًا فلينأى عن الحب، من يُريد أن يعيش قويًا فليهرب من الحب، من يُريد أن يملك زمام نفسه، فليهرب إلى المنفى إن تعثّر يومًا بالحب، فليس الحب سوى بضع من ضعف مبين».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في اليوم التالي هاتفت غبريال، جاءها صوته صائحًا:

منتهى... إنه رقمك المصري!

ـ نعم..

قال متعجبًا:

نعم؟! هل تتحدثين من القاهرة؟

ـ غبريال، كل تساؤلاتك واحدة وبالتالي كل إجاباتي ستكون واحدة أيضًا.

ـ تبقت لكِ عدة أيام في باريس، لماذا عدتِ مبكرًا عن موعدك؟

ـ لقد أنجزت ما أريد انجازه، فلِمَ أبقى إذن؟

قالتها بضيق.

صمت غبريال، شعر أن صديقته بها شيء مختلف، تتحدث بعصبية لم يعهدها فيها، فقالت وكأنها تريد أن تُغيّر موضوع الحديث:

ماذا عن معرضك، أظنه تبقى على انتهائه أقل من أسبوع.

تناول الطَعم راضيًا، ولم يستطرد في حديثه حول عودتها المبكرة التي يعلم أن خلفها يختبئ سر ليس بالهين.

ـ كان معرضًا رائعًا، كنت أتمنى وجودك معي، كما أنني تعرفت على شخصية مميزة اسمها يوكي، أظنها ستنافسك في صداقتي.

ـ كل هذا في تلك الفترة القصيرة! أهى يابانية؟

ـ نعم أمريكية يابانية، مصورة وواحدة من منظمي المعرض، دعوتها لزيارة مصر، ستأتي قريبًا، ستُعجبين بها كفنانة وإنسانة و...

قاطعته قائلة:

حتى اليابانيات لم يسلمن منك أيها الغبريال!

قالتها وهي تحاول أن تبدو أكثر لُطفًا مما هي عليه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عقب عودتها تلقت اتصالًا وحيدًا من نديم، قال لها إنه لا يكاد يفهم شيئًا، سألها كيف أخذت هذه القرارات دفعة واحدة، ولماذا لم تخبره عن عرض القناة الفضائية، وكيف أنه لم يستشعر لحظة أنها تفكر في رفض عرضه؟ أجابته بهدوء:

هذه هي أنا يا نديم، أكون حيث يكون عقلي.

قال باقتضاب:

أتمنى لكِ التوفيق.

وهكذا انتهت مكالمتهما الأخيرة بكذبة صنعتها كي تحمي نفسها من مصير يكاد تصوره يصيبها بالهلع، كذبت كي تنقذ نفسها من علاقة بدأت تُهدّد ثقتها بنفسها، بل وتُهدّد استقرارًا في حياة استماتت من أجل الحصول عليها، فمشاعرها قد انقلبت رأسًا على عقب منذ ظهور نديم.

كانت قد تلقت بالفعل عرضًا لتقديم برنامج تليفزيوني قبيل سفرها الأخير إلى باريس، لكنها كانت مشغولة بالإعداد للسفر، لذا لم تُعر الأمر اهتمامًا، وبررت لنفسها عزوفها عن العرض بأنها لا تستطيع أن تخوض تجربتين جديدتين في ذات الوقت، تجربة الإعداد لكتابها الأول، وتجربة تحولها فجأة من صحفية إلى إعلامية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد عودتها فعلت كل شيء كي تستكمل حياتها كما كانت قبل أن تلقاه، حاوِلت أن تحيا للعمل وتزهد في أي شيء سواه. لكن شيئًا فيها كان قد تغيّر،

وكأنها فقدت شيئًا جوهريًا في روحها، صار العثور عليه مستحيلًا.

ظلّت تتابع كل شيء يخصه، تهفو روحها إلى كل ما يخطّه قلمه، ويذهب عقلها إلى كل ما يصدر موقّعًا باسمه. خصصت دفترًا للتعليق على كتاباته، دون أن تفهم لماذا تفعل. إلى أن أتى يوم وآمنت بأنها فشلت تمامًا في تجاوز ظهور نديم نعمان في حياتها. ندمت يومها على صورتها التي تركتها عن عمد في عينيه، فتحت ملف «ورد» على الكمبيوتر وكتبت له رسالتها على مدار أيام، تردّدت كثيرًا في إرسالها، خشيت أن يُسيء فهمها، كما خشيت أن تُثير شفقته، لكنها تستجمع شجاعتها لتفعل كلما تراءت لها صورته وقد اختارها وحدها لينفرد بها ويبوح لها تاركًا أصدقاءه في يوم ميلاده.

وأخيرا ضغطت على زر إرسال بعد أن كتبت في ذيل رسالتها:

«يا نديم لا أنتظر منك ردًا على رسالتي هذه، بل ولا أرغب في رد، فقط رغبت في أن أقول لك إنك رجل فريد، وأن رحيلي كان لثقتي في أنني أبدًا لن أكون شيئًا مميزًا في حياتك، لن أكون إلا كما كنت دومًا في حياة كل من عرفتهم، مجرد أخرى. فأنا نفسي منتهى الأخرى، يوجد مني دومًا نسخة ثانية، لست فريدة في شيء ولم أكن متفردة عند أحدهم، ربما أربكتني علاقة صداقتنا التي وُلدت وطيدة، تلك النوعية من الصداقة التي لم أعرفها في حياتي من قبل، وربما خشيت من كونك صرت أقرب الأصدقاء إلى نفسي، بينما أنا موقنة من أن لديك عشرات الأصدقاء سواي. أعلم إن مجرد التفكير بهذه الطريقة حماقة، صدّقني حتى تلك الحماقة لم أعهدها عن نفسي من قبل، فقط أتمنى أن تتفهم كل شيء.

دمت رائعًا كما عرفتك»

تعجبت عندما لم تتلقَ منه ردًا في اليوم التالي، كانت تتفقد بريدها الإليكتروني في الأيام التالية عشرات المرات دون جدوى، أكلها الندم على إرسالها تلك الرسالة، كيف لم يهتم بالرد عليها وقد أرسلت إليه عمرها بأكمله في كلمات، ربما لم يرَ الرسالة من الأساس، ربما قرر ألا يهتم بأي شيء يخصّها، ربما أصدر فرمانًا ألا يكون لمنتهى رحال وجود نهائيًا بين ثنايا أيامه. باتت كل الاحتمالات قاسية، كل الاحتمالات تُشعرها بالندم أنها فعلت.

إلى أن أتى يوم، بعد أن مرّ أكثر من شهر، نسج خلاله اليأس خيوطه على روحها؛ فوجئت ببريدها الإلكتروني يحمل رسالة منه، خفق قلبها، ولمعت الدموع بعينيها، سألت نفسها: أيتها الحمقاء المراهقة، ألهذا الحدّ تفتقدينه! حملقت في اسم المرسل عشرات المرات قبل أن تفتحها، وفي كل مرة كانت تقول لنفسها نعم إنها منه، أخيرًا تذكرك.

كان الشيء العجيب بحق هو ما رأته بعد أن فتحت الرسالة، ما هذا! لقد ردّ على عشرات الصفحات التي كتبتها بدموعها وابتساماتها بجملة واحدة، وليس العجب فقط في أنها جملة واحدة، لكن ما زاد من ذهولها أنها لم تفهم مراده من تلك الجملة. هي الصحفية اللامعة التي قرأت مئات الكتب العظيمة وكتبت من التحقيقات أنجحها، ولها قاعدة من القراء والمثقفين لا يمكن الاستهانة بعددهم؛ لم تفهم مقصد نديم.

«لكنها لم تكن صداقة أبدًا».

كانت هذه هي الجملة الوحيدة التي أرسلها، لم يسبقها شيء ولم يعقبها تفسير، هذا المغرور، لماذا ينتقم مني إلى هذا الحد! أيقصد أن علاقتنا لم ترقَ إلى حدّ الصداقة أم... بالتأكيد لا يقصد أنها كانت أكبر من صداقة!كادت تُجنّ، تمنت لو سمعت صوته لمرة واحدة ليفسرّ لها تلك الجملة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت قد مرت خمسة أيام على وصول هذه الجملة الغامضة، بينما هى جالسة في مكتبها رفعت عينيها إلى ساعة الحائط، ثم قالت في دهشة:

هل هذا معقول؟ إنها السابعة مساءً.. تصورتها الخامسة بالكاد.

نظر إليها غبريال الجالس أمام شاشة الكمبيوتر.

ـ ربما يجب أن تزجري نفسك وتُذكّرينها أنه يكفيها هذا القدر من العمل، بل قولي لها أيضًا أن تُراجع نفسها في قرارها الأخير المجنون.

ـ أتدري؟ أنا واثقة من أنك ستأتي معي في النهاية وستشكرني على هذا التحقيق.

ـ أشكرك على ماذا يا منتهى؟! إنه درب من الجنون أن تعتبريه أمرًا سهلًا أو عاديًا! كيف تختاري السفر إلى العراق في هذه الأجواء، إن العراق يمور كحمم بركانية!

أودّ الغوص في القصص الإنسانية التي كشفت عنها مآسي وانتهاكات سجن أبو غريب.

قال بغيظ مدفوعًا بخوفه عليها:

منذ متى وأنتِ كاتبة سياسية يا منتهى؟!

ـ منذ أن تأكدت أن الإنسان لا يستطيع أن يُجنّب السياسة عن حياته، فهي المتحكمة بنا شئنا أم أبينا. أشعر في كل يوم أن ياسين وهبة كان محقًا. لكم اشتقت إليه يا غبريال!

ـ هل اشتقتِ إليه الى الحد الذي تودين معه الذهاب إليه الآن؟!

ـ غُبريال، لا تُبالغ.

ـ كنت أظنه هروبًا فإذا به انتحار.

فاجأتها كلماته وأسلوبه شديد الجدية في الحديث.

ـ منذ عودتك من باريس وأنا أراكِ تعملين بلا هوادة، تعملين حدّ الانتحار، وها أنتِ تخبرين رئيس التحرير برغبتك في السفر إلى العراق، لماذا يا منتهى؟ ألم تفعلي ما فعلتِ بمحض إرادتك؟ ألم تهربي من سعادتك التي وجدتيها في باريس عامدة متعمدة؟ إذن ممّ تهربين وأنتِ في القاهرة؟ قضيتِ عمرك تركضين هربًا من ماضي لا ذنب لكِ فيه، والآن تهربين من حاضر تخشين أن تحييه، وكأنكِ اعتدتِ الركض، وكأن ليس لنفسك الحق في التوقف والتقاط الأنفاس، لقد صرتِ تركضين خوفًا يا صديقتي، وربما لا تنتبهين أثناء ركضك إلى أنكِ قد وصلتِ إلى الحافة، فتسقطين دون أن تملكي القدرة على إنقاذ نفسك!

صمت لحظات ثم استطرد يقول:

أنتِ شديد القسوة على منتهى رحال. امنحيها حق التجربة، حق الخطأ، ربما حتى حق الجنون، وحق الفشل، فنحن في النهاية بشر، لا تجحفيها حقها.

قالت بمرارة:

يا ليتني أملك بعض قوتك يا غُبريال!

أنتِ تملكين قدرًا مخيفًا من القوة، أنتِ دومًا قادرة على أن تضعي نفسك في المكان الذي ترغبينه، لكن ماذا عن منتهى الأخرى؟ منتهى الأنثى، الإنسانة؟ لماذا تُمارسين عليها قوتك إلى هذا الحد؟ امنحيها فرصتها لتحيا، لا تسحقيها.

آثرت الصمت وبدت عيناها المجهدتان أكثر شجنًا، بينما أنقذها رنين هاتف غُبريال.

ـ أعتذر عن التأخير، لا، مجرد دقائق وسنغادر المكتب.

نظرت إليه متعجبة لأنه يتكلم بصيغة الجمع، فقال:

لدي موعد ولا أرغب في تركك في المكتب وحدك، أنا مصمم على أن تتوقفي عن العمل الليلة وتفكري في منتهى قليلًا.

ـ غبريال، ما زال أمامي...

قاطعها قائلًا:

إذن أنتِ تُجبرينني على إلغاء موعدي والبقاء معك!

شعرت أنها لو جادلته أكثر من هذا ستكون سخيفة بحق، فهو في النهاية لا يفعل ذلك إلا حرصًا عليها.

أخذت تلملم أغراضها باستسلام، وهي تُلقي على مسامعه بكل المهام الواجب عليهما الانتهاء منها في الغد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بمجرد أن خطت بضع خطوات خارج بوابة الجريدة متجهة إلى سيارتها إلا وشعرت بقدميها لا تقويان على حملها، إنه هو، رأته بكل جوارحها، اتسع خيالها لحدوث أي شيء وكل شيء، لكن أن تراه أمامها فهو أمر فاق خيالها كثيرًا. كان يقف مستندًا على سيارتها، تمامًا كما رأته في المرة الأولى، أنيقًا وسيمًا لا يشبه أي رجل رأته، ارتسمت على شفتيه ابتسامة واثقة، بينا ارتسمت على شفتيها ابتسامة مرتعشة ولمعت عيناها بالدموع، تقدّم نحوها، مدت كفّها الغضّ فاحتواه بين كفّيه، أرخت رأسها، خشيت من أن تفضحها عيناها أو ينطق لسانها بما تعاقبه عليه فيما بعد.

شعرت بأنامله تلمس ذقنها الدقيق لترفع وجهها فتلتقي أعينهما في لهفة وشوق جارفين، قال:

نعم، لم تكن صداقة يومًا، منذ يومنا الأول، كنت أعلم أنكِ أنتِ.

صمتت، فأردف قائلًا:

أظنك ترغبين في دعوتي على الغذاء بمطعم يليق ببداية قصة أظنها لن تنتهى.

في المطعم الساكن بالطابق السادس عشر بأحد الفنادق المطلّة على النيل؛ طال حديث قال لها في نهايته:

أنتِ لستِ الأخرى يا منتهى، وأنا لست الرجل الذي كان يبحث عن امرأة عوضًا عن الأخرى، عندما انتهت حياتي مع كارلا انتهت بحق، كان هذا منذ سنوات طويلة، ولأن حياتي مشحونة بقضايا الوطن وبالعمل والأصدقاء؛ لم أفكّر يومًا في البحث عن أخرى. كيف ترين نفسك الأخرى، فأنتِ أنتِ، رأيتك هكذا منذ يومنا الأول، ذلك اليوم الطويل الذي رغبت ألا ينتهي وصممتِ أنتِ على إنهائه من أجل العمل في اليوم التالي. ففي يوم ميلادي، عندما بدأت بالبوح لكِ ورأيت نفسي وأنا لا أريد أن أتوقف، رأيت ليلتها انعكاس صورتي في عينيكِ وأيقنت أنني أريد أن أبقى معكِ، وأيقنت أيضًا أنني في ورطة، ترددت كثيرًا في مصارحتك، فمنتهى رحال، تلك الجميلة الواثقة من نفسها، التي تؤثر عملها على أي شيء آخر، ماذا لو صارحها رجل يكبرها بعشر

سنوات، سبق له الزواج ولديه ابنان في سن الشباب، بل ويعيش في بلد غير بلدها، ماذا لو صارحها أنه يُريدها أن تكون له؟ هل ستقبل؟ منتهى تلك التي تقترب منك حدّ الابتعاد، وتبتعد عنك حدّ الاقتراب، فتتركك لا تعلم أين أنت منها، تتركك مرتبك الحال، مبعثرًا تمامًا، هل يمكن مصارحتها بسهولة، عندما سافرتِ بتلك الطريقة، تأكّدت أنني كنت محقًا في ترددي.

ساعدتها الأضواء الخافتة في أن تترك عينيها العسليتين لترقدا فوق ملامحه بأريحية شديدة، فأردف قائلًا:

آه من عشق رجل أربعيني يا منتهى، الرجال في تلك السن يختارون بنضج شديد، يختارون ما أنجبته أوجاعهم وخبراتهم وحكمتهم، فحينما يُفاجأ الرجل الأربعيني بامرأة تقتحم عقله وتسكن قلبه، وتصبح هي قسّ الاعتراف الذي يُلقي على عتبتها همومه وعلى بابها ذنوبه، ستصبح المعضلة في ثقته بأنه لا نجاة له إن فقدها من جديد.

بعد العشاء ذهبا لغسل أيديهما، وعندما عادا إلى الطاولة كان عبير صوت كاظم الساهر بين جنبات المكان، لم يكن كاظم يُغني بل يُلقي شعرًا كتبه نزار قباني، بينما تعالت صرخات جمهوره العاشق انبهارًا.

«أحبكِ جدًا.. وأعرف أن الطريق إلى المستحيل طويل..

وأعرف أنك ست النساء.. وليس لدي بديل..

وأعرف أن زمان الحنين انتهى ومات الزمان الجميل..

فماذا أقول؟»

التقت عيناهما، سألته منتهى دون كلمات، هل أنت من طلبت من النادل تشغيلها؟ أأنت من اخترتها، بالتأكيد ليست مصادفة؟ لم تهرب هذه المرة من عينيه.. بينما ما زال كاظم يُلقي القصيدة..

«أحبكِ جدًا.. وأعرف أني أعيش بمنفى وأنتِ بمنفى..

وبيني وبينكِ ريح وغيم وبرق ورعد وثلج ونار..

وأعرف أن الوصول لعينيكِ وهم..

وأن الوصول إلى شفتيكِ انتحار..

ويسعدني أن أمزّق نفسي لأجلك أيتها الغالية..

ولو خيروني لكررت حبك للمرة الثانية».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد مرور عشر سنوات

أمام مكتبها الصغير، تجلس طفلة عائدة لتوها من مدرستها في باريس، إنه يومها الأول من العام الدراسي، جلست لتُنهي واجباتها المدرسية، فلقد طلبت المعلمة من كل طالب كتابة موضوع تعبير عن نفسه وأسرته.

«اسمي منتهى نديم نعمان، أبلغ من العمر تسع سنوات، أبي لبناني يحمل الجنسية الفرنسية وأمي مصرية، لي أخان من أبي أحبهما بشدة، غاضبة لأن أخي عمر سيتزوج الشهر القادم وينتقل من البيت، فمنذ مولدي ونحن نعيش هنا، ولم نفترق أبدًا.

أبي رجل رائع وهو صحفي شهير، له العديد من الكتب، وأمي امرأة جميلة، هي أيضًا صحفية شهيرة، لها كتابان وروايتان، وتُقدّم برنامجًا تليفزيونيًا ناجحًا، تعلمت منهما عشق القراءة، وأن أعتزّ بلغتي العربية مهما أتقنت من لغات سواها، أمي وأبي يُحدّثاني باستمرار عن وطني العربي، كما أننا نذهب في زيارة سنوية إلى مصر ولبنان، لكن هناك رحلة لا يصحباني فيها، فهما يسافران كل عام في عيد زواجهما إلى بلجيكا ليقضيا ليلتهما على بحيرة لا أكاد أذكر اسمها، لكنها في بلدة تُسمى بروج.

لي خال اسمه محمود أحبه كثيرًا، وله ابن رائع اسمه يوسف، نقوم بزيارتهما أو يأتيان لزيارتنا كل بضعة أشهر، فأسرة خالي تعيش في إيطاليا.

علمتني أمي كتابة مذكراتي منذ عام مضى، وتقول لي إنها تفعل نفس الشيء منذ أن كانت في الثانية عشرة من عمرها».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أغلقت منتهى رحال الجالسة أمام مكتبها هاتفها المحمول بعد أن أنهت مكالمتها مع يسر، سألتها فيها عن صحة طارق الذي تعافى بعد سنوات ليست بالقليلة، لم تتركه خلالها يُسر لحظة واحدة. وكعادة مكالماتهما سألتها عن هداية التي عكفت طوال السنوات الماضية على تربية ابنيها اللذين تخرجا من الجامعة، ويعملان في مركزين جيدين، بينما رفضت الزواج مرة أخرى، فهى لم تبرأ يومًا من الجرح الغائر الذي أحدثه بها ممدوح، وخاصة بعد زواجه من لبنى.

قالت منتهى بصوت فاض به الحنين:

وماذا عنه يا يُسر؟ ماذا عن الدكتور فؤاد؟ إن طيفه لا يبرحني منذ رأيته في الصيف الماضى، ربما لم أتصوّره يومًا كما رأيته، وقد طرقت بدايات ألزهايمر بابه.

ـ حالته كما هي، لكن آمال منزعجة بشدّة لأنه يناديها على الدوام باسم آخر، يُناديها مها!

نهضت منتهى بعد أن نظرت في ساعتها، لقد حان وقت التحرك نحو المطار لاستقبال غبريال القادم لقضاء بضعة أيام بباريس مع زوجته اليابانية «يوكي»، والتي تمّ تبنيها منذ صغرها من قبل أسرة أمريكية، وأطفالهما الثلاث، ابناه من يوكي وطفلتهما التي قاما بتبنيها من أحد الملاجئ في مصر.

قبل أن تغادر تعلقت عيناها بتلك اللوحة الموضوعة فوق مكتبها، والمحفور عليها جملة منقولة من روايتها الأخيرة:

«لو كنت أعلم مكافأة النهايات لكنت أكثر صبرًا وجلدًا وأشدّ تحملًا لقسوة البدايات»

منتهى رحال.

نشوى صلاح

٢٩ سبتمبر ٢٠١٧

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الرواية..

الفصل الأول
الفصل الثاني
الفصل الثالث
الفصل الرابع
الفصل الخامس
الفصل السادس
الفصل السابع
الفصل الثامن
الفصل التاسع
الفصل العاشر
الفصل الحادي عشر
الفصل الثاني عشر
الفصل الثالث عشر
الفصل الرابع عشر
الفصل الخامس عشر
الفصل السادس عشر
الفصل الأخير